العدد الثامن – السنة الحادية عشرة – ربيع الاول والثاني 1388 يونيه – يوليوز 968

دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الاسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

في هــذا العــدد :

تصدرها
وزارة عموم الأوقاف
والشؤون الاسلامية
بالمملكة المغربية

ثمن العدد [illegible]

العـــدد الثامن
السنة الحادية عشرة
ربيع الاول والثاني 1388
يونيه - يوليوز 1968
ثمن العدد :
درهمان

دعوة الحق

مجلة تصدرها وزارة
عموم الأوقاف والشؤون
الإسلامية بالمملكة المغربية

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

بيانات إدارية

تبعث المقالات بالعنوان التالـي :
مجلة « دعوة الحق » ـ قسم التحرير ـ وزارة عموم الاوقاف
الرباط ـ المغرب . الهاتف 10 ـ 308

الاشتراك العادي عن سنـة 10 دراهم ، والشرفي 30 درهما
فأكثـر .

السنة عشرة اعداد . لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة .

تدفع قيمة الاشتراك فى حســاب :
مجلة « **دعوة الحق** » رقم الحساب البريدي 55 ـ 485 ـ الرباط

**Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat**

او تبعث راسا فى حوالة بالعنوان التالي :
مجلة « **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم الاوقاف ـ
الرباط ـ المغـرب .

ترسل المجلة مجانا للمكتبات العامة ، والنوادي والهيئات الوطنية
والثقافية والاجتماعية ، وذلك بناء على طلب خاص .

لا تلتزم المجلة برد المقالات التي لم تنشر

المجلة مستعدة لنشر الاعلانات الثقافية .
فى كل ما يتعلق بالاعلان يكتب الى :
« **دعوة الحق** » ـ قسم التوزيع ـ وزارة عموم **الاوقاف** ـ الرباط
تليفـون 308.10 ـ 327.03 ـ الرباط

كلمة العدد

حول رحلة الوفد المغربي للاتحاد السوفياتي والجمهوريات الإسلامية به

كانت المهرجانات الدينية الكبرى التي احتفل بها المسلمون في هذه السنة بمناسبة مرور أربعة عشر قرنا على نزول القرءان الكريم منطلقا لبعث جديد، ووعي رشيد، وايقاظ همم المسلمين، وشد عزائمهم، وتحريك سواكنهم للنظر في أحوالهم، والعمل على ترقية شؤونهم للسير قدما في مواكب الحياة الراكضة التي يتطلبها الكون، وتقتضيها مستلزمات التطور والانعتاق، ولا سيما في هذه الظروف الحاضرة التي انفجرت فيها المخاطر من حول العالم الاسلامي، وتواثبت الخطوب على جوانبه، وتفاقمت النوازل في أطرافه ...

وقد اتخذت حكومة صاحب الجلالة نصره الله وايده مستنيرة بهديه وارشاده من هذه السنة، سنة القرءان، احتفاء بذكراه، وتخليدا لامجاد الاسلام، واعظاما لما قام به رجاله الافذاذ، وقادته الاماثل، الذين اعطوا المثل الاعلى في صلابة العقيدة، وصدق لنية، وقوة الايمان، من فتوحات ظافرة، التفت لها الدهر، ومواقف حاسمة، دوخت العالم، فكانت شجى في حلق الحاسد، وقذى في عين من اضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه، وجعل على بصره غشاوة.

وهكذا احتفل المغرب المسلم بهذه المناسبة المجيدة الدينية احتفالا يليق مع جلال الذكرى، وقدسية المناسبة، وروعة المقام، حيث مرت في جو تغمره العظمة والعبرة، ويحفه الطهر والصفاء، فاستدعى رجالات الاسلام من جميع جهات الدنيا، واصقاع المعمور ليجددوا ما اندرس من عهد، ويؤكدوا مواثيق يتعزز بها الدين، ويسود المجد، ويتم النور، ويتحول المسلمون جميعهم الى منزلتهم الاولى من صدر الحياة.

ومن احق في البلاد الاسلامية من المغرب وملكه بالاحتفال بهذه الذكرى التي جمعت القلوب المخلصة على حماية الدين، وقيادة النفوس المومنة الى نصرة الحق، ومحاربة الاعداء الكائدين الذين لا بد من أن يدركوا وبال

أمرهم ، وداء بغيهم وعتوهم وعنادهم ، فيخروا للاذقان ضارعين ، صرعى لليدين وللفم .

وقد حضرت وفود اسلامية تمثل مختلف الاقطار من جميع جهات العالم لتشارك المغرب احتفاله بهذه الذكرى ، ولتقيم وحدة متماسكة الوشائج ، وثيقة العرى ، تستمد أسسها من كتاب الله الذي جعل من المسلمين خير أمة أخرجت للناس ، كما حضر فيمن حضر من رجالات الاسلام وفد يمثل مسلمي آسيا الوسطى والاتحاد السوفياتي برئاسة سماحة الشيخ السيد ضياء الدين ابن المفتي ايشان ابابا خان مفتي مسلمي آسيا الوسطى وقازاخستان .

وعقب هذه الاحتفالات الدينية الكبرى وجهت حكومة الاتحاد السوفياتي دعوة الى وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية للقيام برحلة الى الاتحاد السوفياتي والجمهوريات الاسلامية بها .

وتلبية لما توجبه الروابط الدينية والتاريخية من التواصل والتعاطف والمجاملة ، فقد قام وفد مهم يضم خيرة رجال الفكر والثقافة ، وحماة الدين والفضيلة لزيارة الاتحاد السوفياتي والجمهوريات الاسلامية لقي فيها من الحفاوة البالغة ، والاكرام الجميل ما يخفى القلم دون توفيته بعض حقه .

وتراس الوفد الذي عينه صاحب الجلالة والمهابة نصره الله وايده معالي وزير عموم الاوقاف والشؤون الاسلامية الاستاذ الحاج احمد بركاش، وعضوية الاساتذة السادة :

عبد الرحمن الدكالي
عبد الله كنون
عبد الكبير الفاسي
محمد بنعبد الله .

كما انضم الى الوفد سعادة سفيرنا بموسكو الاستاذ عبد الهادي الصبيحي .

* * *

ويعتبر موقع الجمهوريات الاسلامية فى آسيا الوسطى من اعظم المواقع، ومسقطها من اكرم المساقط ، وعدتها الممكنة من خير العدد ، فقد كانت هذه البلاد الشاسعة الاطراف فى آسيا الوسطى والتي كانت تعرف فيما قبل بالتركستان ، مهدا لرجال الدين الصحيح ، والعلم الناضج ، والفن الاصيل، ومنبت العزة والاستقلال الصريح ، وموطن الحرية والكرامة والسيادة الكاملة ، كما كانت ايضا مركزا للدول المستقلة الحرة ، والامبراطوريات التي سارت بذكرها الركبان طوال العصور المتعاقبة قبل ظهور فجر الاسلام وبعده.

هذه الامة التركستانية ظل مسلموها ـ فى مختلف العهود ـ يكافحون ويناضلون ، ويشرحون صدور الناس للاسلام ، ويخوضون الصعاب والاهوال ، لتثبيت دعائمه ، وتركيز اسسه وقوائمه ، فكانوا منبت الانفة والاباء ، ونقطة التحول ، ونواة الاصلاح ، ومصدر الخلاص .

وكيف لا يتم لهم ما ارادوا واجدادهم الفاتحون ، الغر الميامين ، لـم يقف امام تحقيق غايتهم رعن الجبال ، وشم الوهاد ، ومناعة الارض ، وبعد الشقة ، وقسوة المناخ ، لقد طلبوا الموت وفتحوا له صدورهـم ، فوهبـت لهم الحياة ، وسادوا الدنيا عندما طلبوا النصر المؤزر من السماء .

وكفى هذه البلاد العظيمة فخـرا ومجـدا انها اجتمعـت فيهـا من المؤسسات العليا للعلم والعرفان في مختلف العصور ما عز نظيره في غيرها من الاقطار ، فقد كان تيار العلم متدفقا من بخارى ، وسمرقند، وفرغانة ، ونسف ، وترمذ ، وخوارزم ، وطشقند ، وبلخ التي اصبحت مراكز علمية مشهورة يشع منها نور العلم والحضارة في العالم اجمع ، ويتدفق منها ينبوع الفكر الاسلامي الى الشرق والغرب اجيالا واجيالا .

وهل لنا ان نعدد طبقات العلماء والفهماء الذين كانوا هداة مرشدين جادت بهم هذه الارض المعطاء ، وقمما عليا تهدي الانسانية الحائرة في بيدائها ومنائر شامخة يهتدى بها في دنيا الفكر والدين والثقافة .

وحسب هذه الاقطار الاسلامية فخرا اولئك الاعلام الذين رفعـــوا للاسلام لواء ، وللعروبة مجدا ، وللانسانية مشعلا ، كقثم بن العبـاس عـم رسول الله (ص) ، والامام الحافظ الحجة أمير المومنين في الحديث ، ابـي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري . والترمذي . والامام الكبير محمد بن اسماعيل القفال صاحب محاسن الشريعة . وولده ابي القاسم الشاشـي صاحب التهذيب ، ونظام الدين الشاشي ، وابن الهيثم بن سعيد الشاشـي صاحب المسند في مجلدين والمشهور بمحـدث ما وراء النهر ، وجـار الله الزمخشري ، ويوسف السكاكي ، وعبد القاهر الجرجانـي ، وسعد الديـن التفتازني ، والعلامة السيد الشريف الجرجاني ، وشمس الدين السرخسي صاحب المبسوط ، وعلي بن ابي بكر المرغيناني صاحب الهداية ، وعبد الله بن احمد النسفي صاحب التفسير ، وابي منصور الماتريدي امام اهل السنة، وابي بكر الخوارزمي الكاتب الاديب ، والشطرنجي الصولي الاديب المعروف وابي النصر الفارابي المعلم الثاني ، والشيخ الرئيس علي ابن سينا ، وابي زيد البلخي، وبني موسى بن شاكر،وابى الريحان البيروني الذي علم المسلمين فلسفة الهند وعلومها ، والجوهري الذي اهدى الى الامة العربية معجمـه اللغـــــوي .

اولئـك آبائي فجئنـي بمثلهـم اذا جمعتنـا يا جريـر المجامـع

❊ ❊ ❊

ولما اضطرب المسير ، وابطأ التقدم ، وتعثرت الخطى جادت هـــذه البلاد المباركة ، كدأبها ، بابطال كماة ، ارادوا وصل ما أمر الله به ان يوصل، فتنفس بهم العمر في ميادين الجهاد والجلاد ، ومحاربة الظلـم والطغيـان والفساد ، كالامام المجاهد الكبير الشيخ عبد القادر شامل القوقازي وغيره ممن جاهدوا في الله حق جهاده ، فاشفت بهم التضحية والاقدام على شفا الموت والهلاك ، فخلدوا وقائعهم الناصعة بالتضحية والايثار على صفحات الخلود ، فكانوا ــ بحق ــ رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، بعد ما ابلوا بلاء حسنا في الذياذ عن كرامة الاوطان وحرمة الكيان ، وعزة الماضي المجيـد ، والدفاع عن الحاضر الملح .

ومما شرف الوفد المغربي انه حمل معه في هذه الزيارة المفيدة هدايا تتضمن مجموعة من الكتب الاسلامية التي انجزتها وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية ، وفي مقدمتها المصحف الكريم الذي امر مولانا صاحب الجلالة نصره الله وايده وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية بانجازه وطبعه ، كهدية منه حفظه الله الى مسلمي تلك الاقطار النائية الذين تقبلوه بصدر رحب ، وحفاوة بالغة ، ودموع حرى تشي بما يجول في قلوبهم من صدق النية وبرد اليقين ، وحرارة الايمان .

ومما يدعو الى الاعتزاز والفخر ـ أيضا ـ ان المشرفين على الادارة الدينية لجمهورية عزبكستان هم من الطلبة المتخرجين من جامعة القرويين العامرة الذين ربطوا حسن العلاقات الطيبة بيننا وبين المسلمين هناك .

والحقيقة اننا لم نكن نتصور المسلمين الذين تشرفنا بزيارتهم وسعدنا بلقياهم يمارسون شؤونهم الدينية بالصورة التي رأيناهم عليها في مختلف المساجد التي قمنا بزيارتها مما اثلج صدورنا ، وافعم قلوبنا املا ورجاء ، ولكن ذلك غير كاف ... فللادارة الدينية مجال رحب الحدود للقيام بتوسيع الدروس الدينية على اوسع نطاق حتى يعم نفعها بين المسلمين ، ولا سيما بين الاحـــــداث .

دعوة الحق

ركائز التفكير الاسلامي

لسماحة مفتي طرابلس العلامة
نديم الجسر

أثار أحد أساتذة الفلسفة فى الجامعة الامريكية ببيروت شبهات وشكوكا حول بعض آيات القرآن ، وكان للحوار الذي عقده سماحة مفتي طرابلس العلامة الشيخ نديم الجسر للرد على ما أثاره هذا الاستاذ فى جريدة « النهار » دوي عظيم فى العالم العربي كله .. وقد بلغ من اعجاب العلماء المحققين بذلك الرد القيم ان أحدهم قال عن الجزء المتعلق بركائز التفكير الاسلامي انه من ناحية شموله (للايمان والعمل) يكاد يكون أعظم وانفع من كتاب (قصة الايمان) .

وقد رأت جمعية مكارم الاخلاق الاسلامية بطرابلس كعادتها فى نشر ما يخدم الايمان والاسلام ، وينفع الشباب المثقف الحائر بين الفلسفة والعلم والقرآن ، أن تطبع من رد سماحة الاستاذ الجسر ذلك القسم المخصص لبيان ركائز التفكير الاسلامي وتنشره فى كتيب صغير الحجم ليكون فى متناول ايدي الناس عامة والشباب خاصة ، فان هذه الركائز هي كما وصفها كاتبها بقوله :

« كخزانة الدواء فى البيت يجد فيها الشاب العلاج لكل شك وزيغ » .

« ودعوة الحق » يسرها أن تنقل الى قرائها ، باعتزاز ، هذا البحث القيم الذي وصلها اخيرا من سماحة مفتي طرابلس العلامة الشيخ نديم الجسر تعميما للفائدة .

التحرير

وجود الله

ارجح أن الجدل بيننا ، الآن ، ليس عن وجود الله او عن عدم وجوده . فانك ، وانت استاذ الفلسفة ، لابد ان تكون عند الحق من قول فرنسيس باكون « ان القليل من الفلسفة يبعد عن الله والكثير منها يرد الى الله » . والظاهر من كلامك انك مؤمن بان الله هو خالق الكون ، ومؤمن ، بالتالي ، وبالبداهة ، بان خالق الكون هو خالق النواميس ، وبانه خالق الحياة ، وخالق الذباب ، الذي قال عنه القرآن ، فى سورة الحج « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز » قبل ان قال (روجر باكون) و (توماس اكويناس) بقرون طويلة ، تلويهما المشهورين : « ما من عالم قد عرف ، حتى اليوم ، حقيقة ذبابة » .

وانما أنت تستصعب تصور الذهن لهذا الاله ، على طريقة القرآن الذي يقول عنه « ليس كمثله شيء » وتستشكل فى خلق الله لآدم من تراب ، وتقطع كل علاقة لله فى خلق الاجنة ، حتى تكاد تخرج من هذه الصعوبات والاستشكالات الى ما يوشك ان يكون الغاء لوجود الله .. وهذا ما يحيرني فى أمرك .. والا فقل لي : كيف توفق بين كونك مؤمنا بان الله خالق الكون ، وخالق الحياة ، وخالق الانسان ، وخالق النواميس ، وكونك تغفل ، وانت العالم الالمعي ، عن تفسير آيات خلق آدم ، وخلق الجنين فى بطن امه بانها قد تعني

الخلق التطوري للخلية الانسانية بطريق النواميس التي خلقها الله ، مثلما تد تعني ، في الظاهر ، الخلـــق الدفعي المباشر ، مع ان كلا الخلقين داخل في قدرة الله ، وليس احدهما بادل على هذه القدرة والحكمة من الاخر ؟

ومهما يكن الامر ، فاننا لا نسوق الحديث اليك وحدك ، بل نسوقه الى من وراءك من الشبان العلماء الذين يؤمنون بوجود الله وبانه خالق الكون ، ويرددون في صدورهم بعض الاسئلة التي طرحتها ، وامثالها . والحوار مع هؤلاء لا يدور ، اذن ، حول وجود الله . والا فتكون مصيبة ان نبدأ ابجدية الايمان من اولها ، ونسرد قصة الايمان التي الفناها من بدايتها الـــى نهايتها .. وانما يدور الحوار على القرآن وما فيه من آيات متشابهات ، يبدو لك ولهم ، في الظاهر ، انهـــا تتناقض مع العقل او مع العلم ، ويدور ايضا حول تفكير المسلمين في العالم المعاصر ، وزعمك انه مقيد ومشدود الى الوراء شدا يمنعهم من الانطلاق والتلاقي مـــع التفكير العقلي العلمي الحديث .

فعلينا ، اذن ، ان نكشف تراب الظنون الباطلة عن ركائز التفكير الاسلامي ، لنرى ان كانت تتعارض مع العقل ام تعتمد عليه ، وتتنافى مع العلم ، كمـــا زعمت ، ام تؤيده ؟ وبهذا الكشف والتبيين يستكمـــل الرد على شكوكك وشكوك غيرك ، مهما كان نوعهـــا وموضوعها ، حججه وبراهينه ، بدون تطويـــــل ، ويصبح هذا الرد المركز الذي نضعه كالجعبة فيهـــا السهام ، بل كخزانة الدواء في البيت ، نجد فيها العلاج لكل شك وزيغ .

وقبل ان نكشف عن ركائز التفكير الاسلامـــــي نسارع الى بيان امور اربعة :

ركائـــز التفكيـــر الاسلامـــي

اولها ــ انني المسؤول عن صدق هذه الركائز ، وانا المطالب بالدليل على كل واحدة منها لانه لا يتسع المجال في هذا الرد الصحفي ، لبسط الادلة على ما نقول . ولو اردنا ان نفعل لاحتجنا الى مجلد ضخم او اكثر ، ولن يتسع عمرنا ، الذي اشرف على نهايته ، لمثل هذا العمل الضخم . ولعل الله يقيض له من يقوم بـــه .

اما الامر الثاني ، الذي نسارع الى بيانه وتأكيده، فهو ان التفكير الاسلامي نابع من اصول القرآن ومبادئه لا ينفك عنها ابدا .

والامر الثالث هو : ان ركائز التفكير الاسلامـــي تتلاقى تلاقيا تاما مع آخر ما انتهى اليه العقل والعلم والفلسفة من الحقائق القاطعة المتفق عليها .

والامر الرابع هو : انه لا تعارض مطلقا بين قولنا ان ركائز التفكير الاسلامي ترسو على اصول القرآن ومبادئه وقواعده ، وقولنا انها تتلاقى مع حقيقة التفكير العالمي المعاصر ، لان اصول القرآن تتسع لكل ما هو حق وخير ونافع ومفيد في كل عصر وزمان ومكان ؛ ولان فهم اصول القرآن يزداد عمقا كلما ظهـــرت حقائق العلم القاطعة . وبهذا التوفيق يكون لنا فكـــر اسلامي معاصر جديد ينبع من القرآن القديم . ولا قيمة لراي الجامدين والجاهلين .

فما هي ركائز التفكير الاسلامي (القديم والجديد) التي تتلاقى مع حقائق العقل والعلم القاطعة ؟

1 ــ القـــرآن والعقـــل

ان القرآن يجعل للعقل السلطان الاعلى في ادراك كل معاني الحق والخير ، من اتفه الامور كاماطة الاذى عن الطريق ، الى اعظمها وهو وجود الله وصفـــات كماله . وفي القرآن اكثر من 300 آية تدعو الى تحكيم العقل ، وتزري ازراء شديدا بالذين لا يحكمون عقولهم. وابلغ هذه الايات واوجعها قوله « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » . وكل ايمان لا يبنى على العقل لا يعد من الايمان الكامل . اما ايمان العجائز فانما هو مقبول من باب العذر ورفع الحرج عـــن العاجزين .

والقرآن يكره الجمود على تقاليد الاباء والاجداد اذا كانت هذه التقاليد تناهض احكام العقل القاطعة ، ويهزأ بهؤلاء الجامدين ، ويسخـــر مـــن الخرافـــات والاساطير ، وليس فيه اسرار يحدث تصورها تناقضا عقليا في الذهن . وكل نص في القرآن يحدث تصوره ، في الظاهر ، تناقضا عقليا في الذهن يجب تأويله حتـــى يرتفع التناقض .

فالاسلام ، اذن ، هو الدين السماوي الذي يجعل الجدل العقلي الصارم طريقا للوصول الى الحق .

هذه حقائق يقينية مقررة ، حتى تكاد تكـــون معلومة من الدين بالضرورة . ومن جهلها او انكرها فهو جاهل لحقيقة القرآن والاسلام .

2 ــ القـــرآن والحريـــة

ان حرية الانسان ، في نظر القرآن ، هي امـــر طبيعي وضروري وبديهي . وان حرية الفرد مطلقة الى

آخر حدود الاطلاق ، ولا تقف الا اذا اصطدمت بالحق أو بالخير .

وهذا المفهوم الجامع ، كما انه يشمل كل انواع الحريات ، من حرية التفكير ، وحرية العقيدة ، والقول ، والعمل ، والتملك ، والتصرف ، فانه يشمل ، كذلك ، كل انواع الحق والخير ، بالنسبة الى الفرد ذاته ، وبالنسبة الى غيره من الناس ، وبالنسبة الى المجتمع . لا فرق ، في ذلك كله ، بين ان يكون الفعل او القول مباحا بذاته للفرد ، او حقا من حقوقه المشروعة ، او ضربا من القربات الى الله . فلو اسرف الفرد في اكل الطيبات ، اسرافا مضرا بصحته ، انقلب المباح حراما ، ولو اسرف في اساءة استعمال ، حقه وقف حقه ، ولو اسرف في الزهد والتقشف والتبتل ، بل في العبادة نفسها ، بل في الصدقات والمبرات ، الى الحد الذي تصطدم ، عنده ، حريته بخير نفسه أو زوجه أو ولده او وارثه او المجتمع ، لانقلبت قرباته هذه كلها الى محرمات يمنعها القرآن .

3 — القرآن والعلم

ان القرآن يجعل لحقائق العلم الطبيعية القاطعة ، القوة نفسها التي للحقائق الرياضية القاطعة ، اي السلطان نفسه الذي للعقل . لان العلوم الطبيعية انما هي انكشاف للنواميس التي خلقها الله في الكون ، فانكارها ، هو بالضرورة . انكار للعقل الذي يدرك النواميس ، وانكارللذي خلق النواميس ، ومعارضة للقرآن الذي استدل في آيات كثيرة ، بهذه النواميس ، على وجود الله وقدرته . وهذه الانكارات تؤلف بذاتها تناقضا عقليا صارخا بين الايمان والعقل .

وليس صحيحا قولك « ان العلم الذي حث على طلبه الاسلام هو في جوهره العلوم الدينية والشرعية وما يتعلق بها وليس الفيزياء والكيمياء » ، بل الحث عام يشمل علم الدين الذي هو اعظم العلوم وانفعها للمجتمع ويشمل علم الطب ، وكل علم ينفع الناس والمجتمع . وليس ادل على ذلك من الآية 28 من سورة (فاطر) ، التي يخلع بها القرآن وصف (الخشية الكاملة) على علماء الطبيعة ، ويكاد يحصرها بهم حين يقول : « الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء » . فهل العلماء هنا هم علماء الشريعة والفقه ، ام هم علماء الطبيعة العالمون باسرار النواميس في الحياة والنبات والحيوان والمطر وطبقات الارض ؟

4 — القرآن ليس بموسوعة

ولكن القرآن ليس بموسوعة للعلوم والفنون ، وما فيه من الاشارات الى بعض النواميس الطبيعية انما هو للتدليل على وجود النظام المحكم ، ثم الاستدلال العقلي بهذا النظام على وجود الله . واما قول القرآن « ما فرطنا في الكتاب من شيء » فليس معناه انه موسوعة لعلوم الاولين والاخرين ، كما يقول بعض البلهاء ، بل معناه انه لم يترك اصلا من الاصول ولا مبدأ من المبادىء التي يرتكز عليها الحق والخير الا ذكره وبينه .

5 — نهج القرآن في الخطاب

ان اعجاز القرآن اللغوي لا يقوم على بلاغته المعروفة عند بلغاء العرب فحسب ، وانما يقوم على قدرة عجيبة في التعبير عن الحق ، بشأن النواميس الطبيعية والاجتماعية ، التي لم تكن معروفة للعرب ، او معروفة للبشر ، ببيان يفهمه البدوي الساذج على قدره ، ويفهم اسراره المدهشة العالم أو الفيلسوف على قدره . لانه ما كان لله العليم الحكيم ان يخاطب الناس بامور لا يفهمونها ولا سمعوا بها ولا تتسع لادراكها معارفهم .

فاذا قال لهم سبحانه « ويمسك السماء ان تقع على الارض » سورة الحج الآية 65 — او قال لهم « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة » سورة الاسراء 12 — او قال لهم « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » سورة الزمر 5 — أو قال لهم « والفلك تجري في البحر بامره » سورة الحج 65 — او قال لهم « وانزل لكم من السماء ماء » سورة النمل 60 — او قال لهم « أفرأيتم النار التي تورون ، أانتم انشأتم شجرتها ام نحن المنشؤون » سورة الواقعة 71 — أو قال لهم « الم نجعل له عينين » سورة البلد 8 — او قال غير ذلك من مئات الايات الدالة على قدرته ، المشيرة الى النواميس التي وضعها في مخلوقاته ، فانه يقول لهم ما يفهمونه على ظاهره ، من غير ان يشوش افهامهم ويذهل عقولهم بذكر ما لا يفهمون من اسرار نواميس الجاذبية ، والنور ، والبصريات ، ودوران الارض على نفسها امام الشمس ، وقانون ارخميدس ، او اسرار عملية المطر ، او اسرار ناموس الاحتراق عند اتحاد الكربون مع الاوكسجين .. ولكنه سبحانه يقول لمن سيأتي من العلماء الذين يطلعون على هذه الاسرار « سنريهم آياتنا في الافاق وفي

انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » . وقد جاء الوقت ، وانكشفت بعض الاسرار ، وتبين الحق .

6 ـ قانـــون العليــــة

من ركائز التفكير العقلية في القرآن أمر الفطرة، ومن جملتها « قانون العلية » . ذلك ان في عقولنـــا قوانين فطرية وهي التي سماها « كانط » « قوانين العقل المنظمة » .

ومن جملتها ، بل من اعظمها قانون العلية ، الذي يتطلب بالبداهة ، لكل معلول علة ولكل مسبب سببا . هذا مقرر ، وليس لنا ان نشك فيه ، كما انه ليس لنا ان نتطلب عقولا وراء عقولنا التي فطرنا الله عليهـــا « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها » سورة الروم 30 ــ وبهذه الفطرة من قانون العلية ندرك وجود الله . ومهما اختلف المتفلسفـــون في هذه الفطرة وكونها مكتسبة من تجارب الانســـان الطويلة ، أو كونها من خلق الله ، فان قانون العلية الذي اعتبره (ديكارت) صادقا وغير خادع ، واستدل به على الله ، وعلى صفات كماله ، هو ، على كل حال، القانون العقلي الذي يتحكم في ادراكنا لكل ما في الوجود وعليه يقوم العلم ، وعليه تقوم المعرفة ، وعليه تقوم الحياة ، وعليه يقوم الايمان بالله .

7 ــ ميـــزان التناقـــض

ان النظر العقلي يدور ، في كل شيء من الماديات والمعنويات ، والمشاهدات والمغيبات ، حول احكـام ثلاثة : (الوجوب والامكان والاستحالة) . هذا مفهوم عند ابسط الناس علما وفهما ، ولكن الذي يشتبـــه ويخفى على بعض ارقى المثقفين من الشباب ، احيانا ، هو التفريق بين نوعين من المستحيل : المستحيل العقلي وهو الذي يشكل تصور وجوده او تصور عدمه تناقضا عقليا في الذهن ، كقولنا الواحد ربع الاثنين لا نصـف الاثنين ، او قولنا جزء الشيء اكبر من الشيء ، أو قولنا جبل لبنان يدخل في الفنجان . اما المستحيــــل العادي فهو لا يحدث تناقضا عقليا في الذهن ، ولكننا ، بحكم العادة ، نظن انه مستحيل ، وما هو كذلـــك ولكننا تعودنا ان نراه مستبعدا كالمستحيل ، ثم عرفتنا الايام انه ليس بمستحيل عقلي : مثل الصعود الــى السماء ، والتخاطب والتناظر من اقاصي الارض ، والوصول الى القمر . والميزان الضابط في تكذيب الخبر ليس استبعاده واستغرابه ، بل هو كونه يحـــدث تناقضا عقليا ، كما يقول (لايبنتز) . فان أحدثه نفيناه، وان لم يحدثه توقفنا عن التكذيب . فلا يغفلن الشاب المثقف عن التفريق بين هذين النوعين من المستحيل اذا هو تورط في جدل مع نفسه حول الله والديـــن واخبار القرآن .

8 ــ نطـــاق العقـــل

من ركائز التفكير الاسلامي الراسية على أصول القرآن ، التفريق ، في الادراك ، بين عالم الغيب وعالم الشهادة . وهذا نفسه ما عرفته الفلسفة واوضحـــه (كانط) . فهنالك نوعان من الادراك للموجـــودات : ادراك لكنه الشيء بذاته ، وادراك لوجوده بالدليل ، مع العجز المطلق عن ادراك كنه ذاته . فالعقـــــل البشري قد يستطيع ادراك كنه الشيء بذاته ، الى حد ما ، ضمن نطاق محدود ، وهو نطاق العالم المادي المحسوس (عالم الشهادة) ، اما في عالم الغيب غير المحسوس فالعقل يستطيع ادراك وجود الشـــيء بالاستدلال ، ويستطيع ادراك بعض صفاته ، مـــن آثاره . ولكنه يعجز عن ادراك كنه ذاته . هذا مقرر لا يحتمل الجدل . وبهذا الادراك نستدل على وجود الله ، وعلى بعض صفات كماله ، من اثاره ، بـــدون ان نستطيع ادراك كنه ذاته .

9 ــ التصـــور والتعقـــل

ومن ركائز التفكير الاسلامي ، الذي ينبع مـــن أصول القرآن ان نفرق بين التعقل والتصور . هكـــذا يقول العلم ، وهكذا تقول الفلسفة الصحيحة . فليس كل ما يمكن تعقله يمكن تصوره . لاننا قد نعقل وجـــود الشيء بالدليل ، ولكن لا نستطيع ان نتصوره . وليس عجزنا عن تصور الشيء الذي تعقلناه مبررا للقول بعدم وجود . اترانا نستطيع ان نتصور ان صحيفة من ورق السجاير الرقيق الرقيق ، اذا قطعت بالتضعيف 45 مرة ثم ركمت صعودا تدق بالقمر ؟ ولكننا بالحساب البسيط نتعقله . واذا القي الينا من المجرة مثلا جهاز تلفزيون ، افلا نستدل به على وجود صانع ، ثـــم نستدل به على بعض صفات ذلك الصانع ، التي منها انه عاقل وذكي وعالم ؟ ولكننا مع تعقل وجـــوده ، وتعقل بعض صفاته ، لا نستطيع تصور كنه ذاته ، لاننا لم نشاهده ولم نحسه ، فلا ندري أهو من البشر أم من نوع الانسان الالي ، ولكن هل يصح ، في حكم العقل ، ان ننكر وجوده لاننا لا نستطيع تصور كنـــه ذاته بعدما تعقلنا وجوده وبعض صفاته بالدليل العقلي القاطع ؟

10 — غايـــات الاشيـــاء

ومن ركائز التفكير الاسلامي ، الراسية على أصول القرآن ، اننا محجوبون عن ادراك بدايات الاشياء ونهاياتها . هذا مقرر . هكذا خلقت عقولنا ، بل هكذا خلقت حواسنا ، حتى في عالم المادة الذي نعيش فيه ، كما يقول (باسكال) . فالصوت اذا افرط في الشدة يصم اسماعنا ، او على الاصح لا نسمعه ، والنور اذا افرط في الشدة يعشي ابصارنا بل يصعقنا، كما صعق موسى ، والقرب يمنعنا من الرؤية اذا افرط، كما يمنعنا البعد . هذا هكذا في عالم الشهادة ، فكيف اذا كان الامر الذي نريد معرفة اولياته وبداياته ونهاياته وغاياته في عالم الغيب ؟

11 الظـن والحـق

من ركائز التفكير الاسلامي (ان الظن لا يغني من الحق شيئا) سورة النجم 28 — وهذا هو نفسه منطق العقل في اثبات الشيء ونفيه . هنالك فرق كبير، عند القطع والجزم ، بين الاثبات والنفي . فنحن نجزم بثبوت الشيء الذي يقوم الدليل العقلي او العلمي القاطع على وجوده . ولكن لا يحق لنا أن نجزم بنفي الشيء أو الخبر الذي لم يقم لدينا الدليل على وجوده، الا اذا كان تصور وجود هذا الشيء ، أو هذا الخبر ، يشكل تناقضا عقليا في الذهن ، كما يقول (لايبنتز) . اما اذا لم يكن الامر كذلك ، وكان الشيء او الخبر من النوع الممكن ، فاننا نقف امامه موقفنا من كل ممكن غير مستحيل ، فلا نقطع بثبوته عقلا ولا نقطع بنفيه عقلا .

12 — نواميس الله لا تتخلف

« ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » سورة فاطر 43 — وكذلك يقول العلم ان النواميس الكونية ثابتة ولا تتعطل ولا تتخلف . ولكن الانسان يستطيع ان يوقف تأثير ناموس بناموس آخر. ولا يقال ، هنا ، ان الانسان عطل فعل الله ، او عطل خلق الله . ولكن يقال ان ناموس الله تعطل بناموس الله ، كما في تأخير نمو الخلية الانسانية في الجنين او افسادها او تشويهها بالمواد الكيمائية او بالاشعة .

الصوفيـــة في الاســـلام

واما قولك عن الصوفية لمن اعتبرها الحل النهائي والجذري لمشكلات الانسان المعاصر (ان كلامه هذا يخبيء وراءه سلوكا هروبيا هدفه الابتعاد عن مواجهة الحقائق والواقع عن طريق انطواء الانسان على ذاته) فهو ، منك ، قول في منتهى الصحة والعمق والاخلاص . فانه ليس في دين الاسلام صوفية بهذا المعنى (الهروبي الانطوائي) قط . بل هذه صوفية خيالية اتتنا رياحها المخدرة من الشرق القديم ، ومن النساك المترهبين ، في فترة قلقنا الفكري والاجتماعي والاخلاقي والوجداني، فراق لبعض المخلصين منا ان يصوغ على مثالها صوفية اسلامية ، كان منها الصافي النابع من معين النبوة ، وكان منها ، بعد ذلك ، المعكر بزبد الطقوس الغريبة عن معدن الاسلام وجوهره .

واذا كان في الاسلام صوفية فانما هي صوفية النبي وكبار اصحابه في عبادتهم ، وبعدهم عن الترف ، وجهادهم الدائم الدائب في كل ما ينفعهم وينفع الناس : من سعي وعمل ، واكتساب وارتزاق ، وعلم وتعليم، وقوة ودفاع ، ونصح وارشاد ، وتعاون وتناصر وامر بالمعروف ونهي عن المنكر ، واهتمام بامر الجماعة ، واستنكار لكل ما يحمل معنى الانقطاع عن الدنيا أو معنى التبتل أو التعمق في العبادة او المغالاة في الزهد، او الانطواء على الذات ..

هذه اهم الركائز في التفكير الاسلامي النابع من معين القرآن ، وهي تكاد تكون كالبديهيات في منطق العلم ومنطق القرآن . وهي الكفيلة بالرد على كل التساؤلات والشكوك والصعوبات التي اثيرت ، وبالرد على كل صعوبة يجدها الشاب المثقف في بعض آيات القرآن ، حتى يفهمها ، أو يكف عن تكذيبها على الاقل. ويكفي الشاب المثقف اذا كان يسأل للاستفهام حقا ، لا للجدل والمراء « بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير » سورة الحج 9 — ان يعرض شكه على هذه الركائز ، وينعم النظر فيها ، ليجد الجواب الذي يرضاه العقل السليم ، والمنطق القويم ، والقرآن الكريم .

في الـرد بايجـاز علـى تسـاؤلاتك

ا — اما تساؤلك حول موقف المسلم من الثقافة والحضارة المعاصرة ، والانقلاب العلمي ، والثورة الصناعية ، وكتاب (دارون) في أصل الانواع ومؤلف (ماركس) في « راس المال » ونظرية (اينشتاين) في (النسبية) ، فانك تجد جوابه في الركائز الثلاث الاولى التي اوضحنا فيها ان القرآن يقدس العقل والعلم والحرية . ولن يكون موقف المسلم ، من هذه المستجدات التي ذكرتها ، الا كموقف كل انسان ذي عقل سليم . يدركها ويفهمها ويأخذ منها بكل ما يتلائم مع الحق والخير ، على أساس مفهوم الحرية في الاسلام .

اما مذهب (دارون) فقد بينا في محاضرتنا ، وفي كتابنا « قصة الايمان » ، نقلا عن « الرسالة الحميدية » انه عند ثبوته الثبوت القاطع ، لا يتنافى مع القرآن .

واما نظرية (اينشتاين) في (النسبية) فقد بينا في « قصة الايمان » انها لا تتعارض مع القرآن في شيء ، لان القرآن يؤيد كل ما هو حق في باب العقل والعلم .

ب — واما تساؤلك حول خلق آدم من طين فتجد جوابه في كلامنا عن مذهب (دارون) . ومثله سؤالك عن المعجزات ، فانك تجد جوابه في الركائز (7 ، 8 ، 9 ، 10 ، 11) . فالمعجزات التي قد ورد ذكرها في كل الكتب السماوية لا في القرآن وحده ، ما هي في الحقيقة الا خرق للناموس من قبل الله . فاذا كنا نؤمن بان الله هو خالق الكون وخالق نواميسه ، فبداهة العقل تحكم بان الذي خلق الناموس قادر على خرقه . والقول بنفي هذه القدرة هو الذي يشكل تناقضا عقليا .

وكذلك سؤلك عن الملائكة والجن ، فانك لتجد جوابه في الركائز الخمس المذكورات . لقد كان تصور الملائكة والجن ، لعمري ، اكثر صعوبة قبل اكتشاف نواميس الضوء .. اما اليوم بعد معرفة امواج الضوء وانواعها من المنظورة وغير المنظورة ، وسلالمها الكثيرة التي يقع العالم المنظور في سلم واحد منها فقط ، فقد اصبح من قبيل التعنت والمراء ان نقف من الملائكة والجن موقف الانكار .

والخلاصة ان هذه الامور الغيبية كلها ، من خلق آدم ، وخرق النواميس ، ووجود الملائكة والجن ، انما يقع تصديقها او تكذيبها تحت تمحيص مبدأ التناقض الذي ذكرناه في الركيزة (7) . وبما انها من النوع الممكن ، ولا يحدث تصور حدوثها او وجودها تناقضا عقليا في الذهن ، فلا مجال للجزم والقطع بتكذيبها .

خلــق الانســـان

ح — واما تساؤلك حول الاية الواردة في سورة « المؤمنون » التي تتعلق بخلق الانسان من نطفة وعلقة ومضغة ، وقولك عنها ان ظاهرها يفيد الخلق الدفعي المباشر ، وان هذا يتنافى مع علم الاجنة ، وما ثبت فيه من تطور الخلية الانسانية ، وتحيرك في كيفية التوفيق بين خلق الله المباشر المتكرر للنطفة فالعلقة فالمضغة فالجنين في اطواره المذكورة ، وبين كوننا نستطيع ان نتحكم في نمو الخلية ، ونستطيع تأخيره او تشويهها ، ونكون بالتالي كالمعطلين لعمل الله في الخلق ، فانك لتجد جوابه في الركيزة (12) ، وفي كلامنا عن خلق آدم ومذهب (دارون) ، وقولنا فيه : ان الخلق يمكن ان يكون بالطريق التدريجي التطوري ، على مقتضى نواميس وقوانين وضعها الله في الكـــون . واحسب ان علم الاجنة مما يؤيد هذا الخلق التطوري ويقدم عنه مثالا محسوسا ، وان كان الخلقان يقعان تحت قدرة الله ، وليس احدهما ادل على القدرة من الاخر .

واما تعجبك مما يعطيه ظاهر الاية من معنى الخلق المباشر المتكرر ، فتجد جوابه في الركيزة (5) ، التي بينا فيها ان نهج القرآن في مخاطبة الناس انما يكون على قدر افهامهم ومعارفهم . وما كان لله العليم الحكيم ، الذي هو الخالق في الحقيقة على كل حال ، ان يحير الناس ، في عهد نزول القرآن ، بذكر تفاصيل الخلق عن طريق الخلية ونموها التطوري بقـــوة النواميس التي وضعها الله في الكون ، وهم لا يفهمون معنى الخلية ولا معنى الناموس ولا معنى التطور .

وهذا ما قلنا عنه انه من اعجاز القرآن ، حين يعبر عن المعنى بعبارة يفهمها البدوي الامي على ظاهرها ، ويفهمها العالم الفيلسوف في اعماق اسرارها .

وآخر الاجوبة عن امر الخلية هذه تجده في الركيزة (12) التي تلنا فيها ان نواميس الله لا تتخلف ، ولكن يمكن توقيف اثرها بتسليط ناموس على ناموس . فنحن عندما نتحكم في نمو الخلية او فسادها او تشويهها لا يقال اننا عطلنا عملية الخلق التي يقوم بها الله بيده ، ولكن يقال ان احد نواميس الله قد توقف بأحد نواميس الله ، طبقا لما اراد الله في الناموسين ان يتفاعلا ، وطبقا لما اراد الله للانسان من التصرف في استعمال النواميس والانتفاع بها ، وطبقا لما قدره الله في علمه الازلي من خلق الجنين او عدم خلقه . وهذا اظهر من ان يحتاج الى جدل .

« ليــس كمثلــه شــيء »

د — واما كلامك عن مخالفة الله لجميع الاشياء وعن قول القرآن عن الله « ليس كمثله شيء » وقولك انت عنه في آخر الكلام عن لسان المسلم « كيــف اؤمن بكائن يقال لي انه في الحقيقة لا يوصف ؟ وهــل يكون ذهني خاليا من كل معنى او تصور حينما اصفه بالعدل والرحمة مثلا ؟ الا يكون ، عندئذ ، وجود مثل هذا الاله او عدم وجوده سيين بالنسبة الي » .

فاني اسألك ، في جوابه : مالك يا دكتور ؟ انه ليبدو انك تكاد تضع المشكلة في طريق مســدود ، او

تكاد تطلقها « الى ظل ذي ثلاث شعب، لا ظليل ولا يغني من اللهب » .. فاما ان تنكر وجود الله ، واما ان تقول بالتجسيد للاله ، واما ان تقول بوحدة الوجود .. وما احسبك تريد شيئا من هذا .

ثم . هل القرآن وحده قال بهذا التنزيه لله عن مشابهة الحوادث ، ام اجمعت عليه كل الكتب السماوية المنزلة الصحيحة ، كما اجمع عليه كل الفلاسفة الالهيون ؟

ام ترانا ، مع الدكتور العالم الاستاذ في الفلسفة نحتاج الى ان نبدأ الابجدية من اولها ، ونقول له المحدث محدث والله قديم ، والمحدث يفتقر الى محدث والله قائم بذاته والمحدث ممكن الوجود والله واجد الوجود.. والمحدث مركب والمركب محدود والله مطلق .. الى آخر الامثولة ؟ ..

اننا لا نحتاج الى ذلك معك ، ولكن ما العمل وقد نجرت السؤال على صفحات الجرائد ؟ اسكت ليقول الشباب الذين يقفون على عتبة الزيغ : انه حيرهم فلم يحيروا جوابا ؟

الا تذكر ما قلناه في الركيزة التاسعة عن الفرق بين التعقل والتصور ، وان ليس كل ما يمكن تعقله بالدليل القاطع يمكن تصوره .. ثم ، الا تذكر ما قلناه في الركيزة الثامنة عن عجز عقولنا عن ادراك كنه الشيء بذاته الا في المحسوسات ؟ ثم . من الذي زعم ان القرآن قال عن الله بانه لا يوصف ؟ امثلك يقول هذا ، والقرآن مملوء بصفات كمال الله سبحانه ؟ ولو لم ترد صفات كمال الله في القرآن السنا نستطيع ان نعرفها من آثاره ؟ الم يعرفها (ديكارت) بعقله ، لما رجع عن شكه واستنتج من وجود نفسه ، وجود ربه وخالقه ، ثم استنتج من آثاره اكثر صفات كماله ؟

الايمان العجائزي

هـ ــ واما قولك « انه يفترض في المسلم ان يعتقد بايمانه وقلبه لا بعقله وذهنه » فغير صحيح . بل عكسه هو الصحيح . فليس في الاسلام ايمان قلبي روحاني يكتفي بالتخيل او الالهام او التلقين او التقليد ، بدون ان يعتمد على ادلة العقل اذا نضج العقل وبدأ التفكير، اما الذي يسمونه ايمان العجائز فانه ليس بالايمان الكامل ، الذي يقف على رجليه اذا عصفت زوابع الشك او اعاصير الشبهات . ولكنه يقبل من العجائز والعاجزين عن الاستدلال العقلي ، من باب رفع الحرج والتكليف بالوسع ، وهما من اهم واحكم مبادىء القرآن. بل ان هذا الايمان العجائزي ، الذي تحسبه قلبيا روحانيا الهاميا تلقينيا تقليديا ، ينبع ، في الحقيقة ، من العقل الباطن الذي تكمن فيه ، من غير شعور منا ، ادلة العقل بالفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ومن بعضها قانون العلية ، الذي يتطلب العقل فيه لكل معلول علة ، ولكل مسبب سببا .

ولو اكتفى ايمان الاسلام بان يكون من الظن والخيال والالهام والتلقين والتقليد ، لما كان يختلف في هذا عن ايمان المشركين وعبدة الاوثان . كلا ثم كلا . ان ايمان الاسلام هو ايمان الحق واليقين ، لا ايمان الظن والخيال و « ان الظن لا يغني من الحق شيئا » . واذا كان ايمان المسلم يقع ، اخيرا ، في القلب والضمير، فانما ينحدر اليهما من قمة العقل ، طاهرا من ادران الظنون والاوهام ، بعد ان يمر بمصفاة العقل السليم ، ويصبح صالحا لمقاومة الشكوك والشبهات ، كالدم الذي يرده القلب الى حيث يصفى من سمومه ليصبح قويا وصالحا لمقاومة الجراثيم .. هذا هكذا . ومن ظن ان في الاسلام ايمانا كاملا غير هذا الايمان العقلي البرهاني اليقيني ، فانه يشوه معنى الايمان بالله الذي يمتاز به دين الاسلام عن الوثنية المشركة بكل اشكالها.

طرابلس : نديم الجسر

عبرة من ذكرى المولد والهجرة

للأستاذ محمد الطنجي

جرت عادة المسلمين فى العصور الاخيرة بالاحتفالات فى مبدا العام الهجري والمولد النبوي على صاحبه افضل الصلاة والسلام ، وذلك بقصد التذكير بعظمة رسول الاسلام والحض على احياء سنته والسير على المبادىء المثلى التي جاء بها ، وكثيرا ما يقع الاعتناء بذكر تسلسل الحوادث فى سيرة الرسول دون اخذ العبرة منها فيفوت المقصود الذي قصده من احدث هذه الاعياد ، فان الرسول عليه السلام ولد فى شهر ربيع الاول وتوفاه الله فى نفس هذا الشهر ، وكانت هجرته ايضا فى شهر ربيع الاول الا ان الاحتفال بالعام الهجري جعله المتاخرون من المسلمين فى شهر المحرم ليكون فى مبدا العام الهجري .

ومما ينبغي ان يعرفه المسلمون ان الاحتفال بهذه الذكريات لم يكن من الاعياد الاسلامية فى عهد الرسول (ص) ولا فى عهد خلفائه الراشدين بل احدثت هذه الموالد بعد القرون الثلاثة التي اخبر الرسول انها خير القرون ، ولعل ذلك كان لما قل العمل وكثر في المسلمين القول والجدل ، فقد عقد الشيخ علي محفوظ رحمه الله فى كتاب الابداع فصلا فى بدع الموالد ، ومن احدثها نقل فيه ما ياتي : قيل اول من احدثها بالقاهرة الخلفاء الفاطميون فى القرن الرابع فابتدعوا ستة موالد : المولد النبوي ومولد الامام علي رضي الله عنه ومولد السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ومولد الحسن والحسين ومولد الخليفة الحاضر انتهى ثم ذكرانها ابطلت حتى كاد الناس ينسونها ثم احييت

كما ذكر ان اول من احدث المولد النبوي بمدينة اربل الملك المظفر ابو سعيد فى القرن السابع هذا فى بلاد المشرق .

اما فى بلاد المغرب فنستفيد وقت احداث هذه الموالد مما ذكر ــ الشيخ احمد بابا السوداني فى كتابه: نيل الابتهاج نقلا عن الخطيب ابن مرزوق : قال الخطيب بن مرزوق سمعت شيخنا الامام ابا موسى ابن الامام وغيره من شيوخ المغرب يستحسنون ما احدثه العزفي وولده ابو القاسم بالمغرب في ليالي المولد وهما من الايمة ويستصوبون قصدهما فيه والقيام به ، ونقل عن بعض علماء المغرب انكاره ، والاظهر عندي (الخطيب يقول) ما قاله بعض المغاربة استعمال الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فى هذه الليلة واحياء سنته ومعونة ءاله وتعظيم حرمهم وفعل انواع البر افضل مما سواهما مما احدث اذ لا يخلو من مزاحم فى النية او مفسد للعمل او دخول شهوة وطريق الحق والسلامة معروف ، فالافضل تكثير الصلاة عليه واعمال البر ، قال الشيخ السوداني الناقل انتهى ملخصا وقد ذكر المؤرخون ان ابا العباس العزفي توفى سنة 649 فيكون فى القرن السابع ، فالعلماء عدوا هذه الاحتفالات من البدع ولكن بعض العلماء يراه من البدع المستحسنة .

وبعد هذه الكلمة فى بيان هذا الاحتفال بالمولد نخلص الى مجال العبرة من الهجرة ، فان الهجرة لها

اسباب واحوال ينبغي ان يستخلص المسلمون منها ما يفيدهم في حياتهم الحاضرة . اما ذكر تسلسل الحوادث في حياة رسولنا العظيم دون المغزى الحقيقي لها فانه قليل الغناء فمن اول مغزى هذه الهجرة ان يعرف المسلم المومن ما فعله الايمان بنفوس اسلافنا حيث آثروا الاحتفاظ بايمانهم والصبر على اذاية المشركين لهم ولو كلفهم هذا الايمان التخلي عن متاع الدنيا وراحتها ، قال الحافظ ابو بكر بن العربي عند تفسير قول الله تعالى : « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » ، قال علماؤنا رحمهم الله كان رسول الله قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء ، انما يومر بالدعاء الى الله والصبر على الاذى والصفح عن الجاهل ، فكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم عن بلادهم ، فهم بين مفتون في دينه ومعذب ، وبين هارب في البلاد مغرب ، فمنهم من فر الى ارض الحبشة ومنهم من خرج الى المدينة ومنهم من صبر على الاذى ، فلما عتت قريش على الله وردوا امره وكرامته ، وكذبوا نبيه ، وعذبوا من آمن به وعبده ووحده وصدق نبيه ، واعتصم بدينه اذن الله لرسوله في القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت اول آية انزلت في اذنه له بالحرب واحلاله له الدماء : « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » ، وقال الحافظ ابن العربي قبل هذا : وكان الكفار يعتمدون النبي صلى الله عليه وسلم والمومنين بالاذاية ، ويعاملونهم بالنكاية ، لقد خنقه المشركون حتى كادت نفسه تذهب فتداركه ابو بكر ، وقال : اتقتلون رجلا ان يقول ربي الله ، وقد بلغ باصحابه الى الموت ، قد قتل ابو جهل ، سمية ام عمار بن ياسر ، وقد عذب بلال وما بعد هذا الا الانتحار بالقتال .

وهذه النصوص تبين لنا ان مشروعية القتال كانت دفاعا عن النفس اولا وعن حرية نشر الدعوة وحرية العقيدة والتوحيد ثانيا .

ومما سبق هذه الهجرة وهيأ للنبي واصحابه موطنا آمنا لاقامة الدين في امن وجماعة ما كان الرسول يقوم به في مواسم الحج من تبشير بالاسلام ومن عرض نفسه على القبائل للايمان برسالته وحمايته حتى يبلغ كلمة الله الى الناس ، واستمر دائما على الدعوة والتبشير بالاسلام اعواما في مواسم الحج حتى وجد من سكان المدينة الاوس والخزرج من استجاب لدعوته وآمن برسالته ، فكانت النتيجة ان فتحت المدينة بالقرءان كما يقول الحافظ بن القيم . فكانت ديار الانصار عامرة بتلاوة القرءان .

فتوطدت في المدينة دعوة الاسلام ووجد النبي واصحابه مكان الامن والايمان مستعدا لقبول المهاجرين وعلى رأسهم صاحب الرسالة ، فآخى النبي بعد الهجرة بين المهاجرين والانصار فواسى الانصار المهاجرين بالنفوس والاموال حتى جمع الله بهم الشمل ومهد لهم الغلبة والنصر ، ومدح الله صنيع الانصار ورضي عن احوالهم وسيرتهم وايمانهم وانزل فيهم قرءانا يتلى على مر القرون والاعوام ، فقال تعالى : « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما اوتوا ويوثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » .

ولابد من اشارة هنا الى ان اسلافنا الصالحين قاموا بنشر دعوة الاسلام في المشرق اولا وفي المغرب ثانيا كما هو معلوم في تاريخ الاسلام العظيم ، وهذا ما ينبغي ان يفعله المسلمون في الوقت الحاضر ، فيكونوا ويؤسسوا جمعيات لنشر الدعوة الاسلامية بالطرق السليمة المشروعة ، كما يفعله غيرهم من اصحاب الديانات الاخرى ، لا فرق في هذه المساعي الحميدة بين عالم وتاجر وغني وفقير . اما هذا التواكل الذي يعيش فيه العالم الاسلامي فهو سبب الخذلان . العالم الذي يقول انه ضعيف وليس له ما ينفقه على نفسه وعياله وعلى السفريات في مختلف النواحي، بل البعض لا يقوم بواجب التعريف بالاسلام حتى في الحي الذي يسكن فيه ، والغني الذي له فضل من المال يقول :هذه مهمة العلماء وهم المكلفون بنشر العلم الديني ، والتاجر يبخل حتى بزكاة ماله ، والجاهل لا رغبة له حتى في التعلم ، وهكذا بتفريط الجميع حلت التهلكة بالعالم الاسلامي وتفككت وحدة المسلمين وتوالدت النكسات عليهم ، مع ان الله تعالى يقول : (وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ، واحسنوا) وسيرة النبي وقادة الاسلام وابطاله تبين لنا التطبيق العملي والقدوة المثلى من وجوب التعاون على كل خير كما تقول الاية : (وتعاونوا على البر والتقوى) وتقول آية اخرى : (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر) ، فاين المسلمون

من هذه التعاليم والمبادىء التي رفعت اسلافنا الى مقامات الرياسة والسعادة والمجد .

ثم اننا نجد في هجرة النبي ما يدفعنا الى الاقدام كما كان الرسول يبذل مجهوده ولا يبالي بالمؤامرات على قتله او نفيه او حبسه كما تذكر الاية الكريمة : (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك او يقتلوك او يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) وقد لخص الحافظ بن العربي ما تشير اليه الاية فقال: قد بينا انها مكية وسبب نزولها والمراد بها ما روى : ان قريشا اجتمعت في دار الندوة وقالت ان امر محمد قد طال علينا فماذا ترون ، فاخذوا في كل جانب من القول ، فقال قائل نرى ان يقيد ويحبس ، وقال آخر نرى ان ينفى ويخرج ، وقال آخر نرى ان ياخذ من كل قبيلة رجل سيفا فيضربونه ضربة واحدة فلا يقدر بنو هاشم على مطالبة القبائل ، فاتفقوا عليه وجاء جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فاعلمه بذلك واذن له في الخروج فامر النبي (ص) علي بن ابي طالب بأن يضطجع على فراشه ويتسجى بثوبه الحضرمي وخرج النبي حتى وضع التراب على رؤوسهم ولم يعلموا به واخذ معه ابا بكر الى الغار فلما اصبحوا نظروا الى علي في موضعه وقد فاتهم ووجدوا التراب على رؤوسهم ولم يعلموا تحت خزي وذلة ، فامتن الله على رسوله بذلك من نعمته وسلامته من مكرهم بما اظهر عليهم من نوم على السرير كانه النبي ومن وضع التراب على رؤوسهم وهذا كله مكر من فعله جزاء على مكرهم والله خير الماكرين .

وهنا نذكر صنيع النبي في اخذ العدة لهذه الهجرة والخروج خفية ، والمكوث في الغار اختفاء من الكفار الذين آذوه والجأوه الى الخروج من مكة موطنه ومقر عائلته الى دار هجرته ومحل اقامته مع سلوك طريق وعر غير مسلوك حتى وصل الى اتباعه وانصاره واعتز بحياته بينهم حتى قال لهم بعد فتح مكة : لو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار .

والمغزى الذي يجب اخذه من كثرة هذه الاحتياطات في هذه الرحلة هو اتخاذ الاسباب التي تضمن الوصول الى الهدف المقصود والاستعانة بالكتمان واخذ الاحتياط والعلم بان التوكل على الله هو بعد اتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة لا قبل ذلك

وهذا ما فقده المجتمع الاسلامي فصارت احواله وسياسته واستعداداته ان وجدت يقع الاعلان عنها تفاخرا ورياء وكثيرا ما يكون ذلك ادعاء فقط ، ونظرا لعظمة الهجرة وفسحها المجال لانتشار الدعوة الاسلامية اخذ بعض الصحابة يفخر بها على ما يظهر من حديث الرسول الذي ينظر الى الحقائق واصلاح النفوس لا الى المظاهر والانتقال من مكان الى مكان ، وهذا والله اعلم ما يستفاد من قول الرسول : (المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) ؛ نقول وهذا هو الحظ الاوفر من الهجرة وهو باق بعد الصحابة المهاجرين لجميع المسلمين الى يوم القيامة ، فالى العمل ايها المومنون .

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون

الرباط : محمد الطنجي

خلود الاسلام

للأستاذ حسن السايح

تجتاز الامم الاسلامية اليوم مرحلة الغفلة عن حقيقتها الوجودية الى مرحلة الوعي الذاتي ، ولعل هزيمة فلسطين كانت اعظم مناسبة للنقد الذاتي والعمل الى الرجوع الى القيم الاسلامية ، فمنذ ان انحرف المسلمون عن انطلاقاتهم الرشيدة في عهد الرسول وهم يعانون محنة الاغتراب ، واذا كانت الخلافة الاسلامية تستقطب مصالح المسلمين كافة وتغطي بعض التخلفات فانها انحرفت يوم اصبحت تقيم اسسها على عصبية لم يقرها الاسلام ، او على عبثية سيقت اليها قسرا ، او على تفرق وتصدع نتيجة فقد الشخصية الواعية ، حتى انتهت اخيرا على يد العثمانيين الذين لم يستطيعوا ابراز ملامحهم الخلافة في معناها الحقيقي فانغمست في تجديدات مائعة اعان المتآمرون من الصهاينة والمستعمرين على تحطمها ، فماتت ، وبقي المسلمون يتامى يعملون في اطارهم القديم ولا يعملون في اطار جديد .

لقد كانت الخلافة الاسلامية بمفهومها الحق اعظم منطلق للاسلام ، ولكن المسلمين حينما انحرفوا انتهوا الى تشتت استغله خصوم الاسلام استغلالا فاحشا ، ورغم عناد هؤلاء فانهم لم يستطيعوا ان يقتلوا الروح الاسلامية التي ظلت دائما حية قوية في كل قلب مسلم .

والمسلمون اليوم في حاجة اكيدة الى البحث عن وسائل تحقيق تكتل المسلمين في اطار قوي للعمل على نهج يوافق تطور القرن الذي نعيشه ويحافظ على حقيقة الروح التي كانت تعمل لها الخلافة ... ذلك لان رسالة الاسلام يجب ان نؤديها في فهم جديد عميق للاسلام وفي اطار قوي جديد للعمل .

اما بالنسبة للفلسفة الاسلامية فحاجتنا الى بعث تراثنا الاسلامي وخلق حركة ثقافية اسلامية واقعية ونحن نملك اسس هذه الفلسفة في اصول العقيدة الاسلامية نفسها ، فقد بنى الاسلام على (الاعتدال) في كل شيء حتى لا تتصارع الارادات في الانسان سواء في علاقته مع غيره ، او في الصراع الوجداني الداخلي ، وذلك ليظل الانسان مسايرا النزعة الفطرية في تكوينه النفسي والعقلي والجسمي .

واذا كان الفيلسوف افلاطون حاول ان يقيم مدينة فاضلة على اساس مجتمع طبقي قوي تتبدد فيه (الاعتدالية) فقد شعر بخيالة تفكيره ورجع الى سيادة القانون وخضوع الجميع له ، وبذلك عادت الفلسفة التي نادى بها افلاطون الى دعوة الدين ، ورغم ان افلاطون في دعوته الى طبقية قسرية لم يكن شيوعيا يقيم الفلسفة على الاقتصاد ولا داروينيا يقيم بقاء الاصلح على الانتخاب الطبيعي ، فانه كان ينشد الانسان المثالي الذي صاغه الاسلام (في اعتداليه) متزنة طبيعية تقرر الواقع وتطوره في دائرته الكونية دون قسر او تكلف ، وجاء الماركسيون من بعده ليأخذوا فكرة الصراع البشري للانتخاب الطبيعي عن داروين ؛

والجدلية عن (هيجل) وليقيموا (اعتدالية) للمجتمع، ولكنهم اقاموا المجتمع على (اعتدالية) اقتصادية اكيدة لم يعد الانسان فيها أكثر من آلة صماء ... ولذا كان الفرد اساس الفلسفة والمذاهب وموقعه في الجماعة اهم نقطة شغلت الفكر الانساني، فمن الطبيعي ان تبدا الفلسفة والمذهب بالفرد ، لان المعرفة انبثقت منه . وعلى اساس ذلك اشتغل المحللون بالجانب النفسي والاجتماعي للفرد ، فتولد عن ذلك الاهتمام به وبحالته العقلية والنفسية والمذهبية وعلاقته مع غيره، ونتجت عن ذلك المذاهب الاجتماعية والاشتراكية والليبرالية والشيوعية الهادفة لتحقيق سعادته وسعادة مجتمعه ، ومن ثم لا يخلو الفرد في كل تاريخ من عناية خاصة باصحاب الفكر ، وكل تطور يحدث في الفكر يجعل من الفرد نقطة التحول والبحث الى ان تبلورت في القرون المتاخرة فلسفة دراسة الفرد وما يسمى بالذات والانا . وكان ديكارت في القرون الوسطى من المع الذين وجدوا كينونة الفرد فبدأ من الشعور بالانا ، وظل قويا لا يجد من يخالفه الى عصر سارتر الذي بدأ اكتشاف الفرد من الوجود ، قبل البدء بالشعور ، وبذلك اصبحت الوجودية تعلن ان الانسان موجود ومنه ينبع كل شيء بدل ان ينبع الوجود من المجتمع كما كان . اما في الاسلام فالفرد فيه جزء من الوجود ذاته بل هو جزء من الكون كله ، وعلى اساس ذلك اعطى للفرد حريته وللمجتمع حقوقه ليضمن للجميع توازنا نفسيا واجتماعيا واقتصاديا قارا على اساس (الاعتدال) .

وظل المجتمع الاسلامي ينمو في ظلال الفرد والجماعة على اساس فلسفة الاسلام (الاعتدالية) بين الوجود الفردي والوجود الاجتماعي (والاعتدالية) بين ظاهر الوجود الاجتماعي والذاتي ..

وقد فقدت اوربا هذه (الاعتدالية) على يد الكنيسة التي حاربت الوجود الفردي فاتجه الفكر العربي الى تنمية روح الفرد بعد الصراع مع الكنيسة فكان التطرف في الحرية ايضا على حساب الجماعة . وهكذا (فالاعتدالية الاسلامية) دائما موفقة في التصالح بين الفرد والجماعة ، غير ان فلاسفة اوربا تأثروا بمدرسة ابن رشد على يد طوماس الاقويني فحاربوا الصوفية وشجعوا العقل ، كما حاربوا النظرية المزدوجة التي ترى ان ما كان صحيح في اللاهوت قد يكون صحيحا في العلم ، وهذا الاتجاه الرشدي يخالف الاعتدالية الاسلامية السنية السلفية ويساير النزعة الفلسفية لان الاسلام كان أكثر دقة في معالجة قضايا الانسان من الفلسفة اليونانية فهو لم يخرج الانسان عن الوحدة الكونية بخلاف العلم اليوناني من قبله فقد اهتم بالحياة الانسانية بالدرجة الاولى .

ان الآراء والنظريات الاسلامية التي غزت الفكر الغربي كانت محدودة المجال ولم يكن نفوذها بارزا الا في الجامعات العلمية وعقلية احرار الفكر الغربي (1) . ولذلك نجد مرونة الفكر السني والاعتزالي التي تقر التاويل أثرت على (امبروز) الذي اكد لاوغسطين معتمدا على سلطته الدينية انه لا يجب الايمان حرفيا بما جاء من قصص فج في الانجيل ، كما ان الشرط العقلي في الايمان انتقل في عصر اباء الكنيسة ، ثم جاء (لوثير) ليظهر تأثره الواضح بالتفكير الاسلامي ، فترجم الانجيل ووضعه بين يدي المؤمنين ، وشدد اصحابه في التاويل الظاهري متمسكين بحرفية النص على طريقة مذهب ابي داود ، كما حجر كثير من الاباء في قضايا المعرفة الدينية حتى يكون ما يؤمن به الناس عن اقتناع يبلغ حد اليقين : ... أما الاسلام فهو ينبني عن الاقتناع الفكري والوجداني على اساس حرية العقيدة ومبدا حرية الفكر والعقيدة واتاح للعلم ان يخطو خطوات واسعة أدت بالفكر الانساني الى صورته الحاضرة ، لان الفكر هو عنصر الحضارة الخلاق وهو الذي يصلنا بالماضي وبالمستقبل أكثر مما تتصل بهما عن طريق الروابط العريقة والطبيعية والمصالح المشتركة ولان العقل مزيج من العقائد والمثل العليا التي تحرك البشرية لتنشأ الحضارة وليكون التاريخ ، فالحرية ضرورية لانطلاقه ، والاسلام اذ يعتمد على العقل ، يزوده بقوة الايمان ، وصدق الموضوع ، وذلك سر انتصاره في هذا الصراع الابدي بين المادة والروح والجسد والعقل .

---

(1) كما ان العرب انفسهم لم يأخذوا من الفكر الغربي الاغريقي الا جانبا واحدا حيث اكتشفوا في منطق ارسطو المعرفة القومية والنقد المركز فتاثروا به وتأثرت به مدرسة طوماس الاقويني الذي اكتشف كثير من اتباعه من خلال بحثهم في الفلسفة اليونانية عن العلم الهلنستي الاسكندري مجالات في الطبيعة ذاتها لا في المنطق ، ومهدوا لعلماء الطبيعة في الغرب الذين كان لهم اثر في تطور العلم الطبيعي مثل جلليو ونيوتن .

لقد كانت الكنيسة فى الغرب لا تهتم بموقف الانسان وحياته المادية فى الارض ، ولم تكن لها صورة كونية لبناء العالم وتفهم الاشياء على اساس عقلي ، بل ان الكنيسة فى الغرب على يد (تارتوربارن) كانت تؤمن بالمستحيل وترفض المعرفة الفكرية بصفة عامة ، بينما كان (أرنوبيوس) لا يجد فائدة لاية معرفة كانت ، وقد كان هذا الجمود الفكري فى الغرب طاغيا عندما كان (كليمنطت ، واوروجين ، واثناسيوس) يضعون في الاسكندرية نظرية التثليث الخيالية ايضا ، كما يلاحظ أن (سيبريان ، وامبروز ، واغسطس) وجهوا عنايتهم وجهودهم الفكرية لكفاح الانسان الاخلاقي ومشاكل الخطيئة والتعميد ، حتى اصبح التدين المسيحي في لغرب رواقيا يؤمن ان محافظة الانسان على روحه وهدوئها فوق كل شيء ، وظل الصراع دائما بين المعرفة عن طريق الايمان الخالص والحدس ، او عن طريق التفكير الدياليكتكي ، بينما الاسلام ظل دائما يجد الحل فى كل الاراء والنظريات على اساس (اعتداليته) .

واذا كانت الاخلاق المسيحية تبنى على المحبة وتحتاج لفلسفة اضافية لبناء المجتمع فالاخلاق الاسلامية تبتني على العمل والحرية والمسؤولية ، وليست فى حاجة الى فلسفة لتفسير موقفها من الكون لانها هي الواقع .

ان المسيحية عندما تتقدم فى تفكيرها تتصل دائما بالتفكير الاسلامي ، وقد برهن على ذلك (فيكو) فى كتابه (خطبة فى كرامة الانسان) عندما انفصل عن الاراء المسيحية متحررا تحررا عقليا ومرددا كثيرا من الاراء الاسلامية فقرر ان الله خلق آدم على صورته ، زمن تم انطلق لسرد كثير من الاراء التحررية التي توافق الاراء الاسلامية ، كما ان (كلفان) اعلن عداءه للتصوير والايقونات فى الكنائس لانها تشغل عن العبادة جريا على المذهب السني الاسلامي ، وتبدو الاعتدالية الاسلامية فى بناء شخصية المسلم ، فلا رهبانية فى الاسلام بمفهوم الرهبانية فى الاسلام لا لمفهوم الرهبانية الكنسي ، اما بالمفهوم الاسلامي فالرسول يقول الجهاد رهبانية أمتي ، وقد نصح المسلمون الاولون رجال الحرب بعدم مهاجمة الرهبان لانهم اعضاء سلبية في المجتمعات ولذلك فالاسلام وسط بين الرهبانية والفطاقورسية .

واذا كانت اللوثيرية تعتقد بان لا صلة بين الاخلاص والاخلاق لان الاخلاص أمر ديني محض لا ارتباط له بالمكان المطلق الذي هو شحنة الايمان لا شحنة الاعمال ، ولان الايمان يأتي من الله لا من الانسان لتخرج من مشاكل (الوجوب) على الله ، فان الاسلام فى اعتداليته قرر العلاقة وفوض الامر لله تعالى بل ان اللوثيرية لم تخرج عن نهج بعض الفرق الاسلامية في اعتقاداتها .

ويعتبر مذهب التطهير فى المسيحية ان الكسل خطيئة منددا بضروب الاستمتاع ، وهو فى هذه المحاولة يقترب من الدعوة الاسلامية الى العمل وترك التوكل والكسل ، واقامة اعتدالية الجدية والتسلية معا .

وقد اقر مجمع (ترانت) فى قواعد تعلم الدين المسيحي ان الايمان التقليدي هو الايمان الصحيح على غرار الكلمة الاسلامية ، اللهم ايمانا كايمان العجائز . .

وعندما انتقد (ديدرو) المسيحية ووصفها بالقسوة والتخيل والانتقام والخطر على الامن العام . انما كان ينتقد الانحرافات المسيحية الحقة التي لو عاش المسيح لسانده فى نقدها نظرا لما اصابها على يد الرهبان ، بل يرى (ديدرو) ان اللوثيرية افضل من الكاثوليكية ، ويرى (الكالفانية افضل من اللوثيرية والسوشيانية افضل منها ، وعبادة الله فى المعابد فقط افضل من السوشيانية . . . فهل يا ترى وصل الى غير ما دعا اليه الاسلام من عبادة الله المطلق الوجود الذي هو معكم اينما كنتم ؟ !

واذا تجاوزنا الكنيسة الى المذاهب الفلسفية والعلمية التي ناهضت الكنيسة فسنرى انها فى معظمها تاثرت بالتفكير الاسلامي ، فمذهب (لوك) الحسي الذي صدرت منه الاسس اللازمة للديمقراطية المقررة ان الناس يولدون متساوين ثم تختلف معارفهم بناء على التجارب الحية ، يتاثر بالراي الاسلامي الذي يرى ان كل مولود يولد على الفطرة وابواه يهودانه ، او يمجسانه او ينصرانه ، وقد انتزع الفكرة السياسيةمن هذه الفطرة الخليفة عمر حين اعلن ان الناس يولدون احرارا ، وعلى اساس ذلك فالمواطن الصالح انما ما يصبغه القانون الصالح ، فالتربية الاسلامية هي التي تكيف المواطن اجتماعيا وسياسيا وتربويا في تركيب فيزيائي اجتماعي ، وعلى اساس ذلك ايضا يكون الحاكمون المنتزعون من الامة نفسها حسب الكلمة (وكما تكونون يولى عليكم) فالمستبد العادل فى القمة منتخب من القاعدة وقد يكون المستبد العادل رحيما عادلا او يكون من خلال تصرفه مسوغا للحكم المطلق ،

لقد تقدم علم الاخلاق في أوربا منفصلا عن الكنيسة فاصبحت الاخلاق علمية عقلية كما يرى (كلارك) . اما الاسلام فيرى ان الاخلاق تساير الفطرة والفكر السليم ، ولا تتغير حسب الاهواء والظروف لان الله خلق كل شيء فأتقنه صنعا كما يردد (روسو) في كلامه دون ان يعرف انه يردد آية قرءانية ، والانسان بتدخلاته فقط يفسد الخير ليستحيل الى الشر .

وكما يروي الاسلام ضرورة الدين للبشر كافة (فلوك) يعتقد ان الدين ضروري لضبط الشعب . والفكرة العالمية التي يهدف لها الاسلام الذي لا يقر الوطنية بالمفهوم الضيق كانت دعوة المفكرين الغربيين الى عهد (فخته) وفي عمل كثير من رجال الفكر الاشتراكي .

وبينما كان الدين الاسلامي طلائعيا داعية وعي وتقدم دائم، ترى مواقف الكنيسة ضد التقدم مشهورة في التاريخ : فكم اعدمت من مفكرين ، وكم احرقت من علماء ، فانعدمت حرية الراي لانها طقوس كهونية لا دستور مدون ، ولان التوراة كتاب ادبي لا كتاب مذهب وفلسفة وقانون ، ولذلك كانت الكنيسة تستأثر بالمعرفة كالكهان ليبقى الدين مجهولا عن الشعب ، اما الاسلام فقد اعطى فرصة التدين والمعرفة للجميع ، فالايمان فيه متسلسل راسخ ، والمعرفة فيه تتحول وتتجدد والمثل الاعلى هو الشوق الصوفي الدائم الذي يتجدد ولا يدرك ابدا ، وبما ان الاسلام دين ليس فلسفة لانه عقيدة وعمل ، اما الفلسفة فهي وسيلة للنقد والهجوم على التقليد او الدفاع عنه واعادة البناء ، والقضايا الاجتماعية هي التي تصلح لمنطقة الفلسفة ، اما الدين فعالمه اسمى من ذلك واشمل ، وليس في وسع الفلسفة ان تحل المشكل العويص الذي هو بداية الكون ومصيره المفزع ، او الاستقرار والتنظيم لما من طبيعة الدين .

لقد ثار كثير من المفكرين الغربيين على الكنيسة ولم يثوروا على الايمان ، ولقد صاغ فولتر ونيوتن ديانة دون وحي بل صاغ كومت ديانة وضعية لقبها (هسكلي) بانها الكاثوليكية بدون مسيحية ...

وتحرر كثير من المفكرين المسيحيين عن نظرية الخطيئة (الاصلية) متأثرين بالاسلام ، وبذلك اقروا ان الجنس البشري قادر على ادراك الكمال كما في الاسلام .

واذا كان المذهب البروتستانتي تزعم الثورة الدينية على الكاثوليكية ، ومكن الشعوب من قراءة التوراة ففتحت المدارس وانتشر العلم واصبحت التوراة اساس آداب الامم الشمالية فانما بدات من جديد ما دعا اليه القرءان في اول اية منه (اقرا) بل ان نهضة القرن الثامن عشر في أوربا نتيجة الاحتكاك مع الثقافة الاسلامية التي اذاعت في اوربا الاراء الاسلامية ، وكان العرب يمثلون من تلك القرون الفكر العلمي والنهضة الصناعية كما تمثلها المانيا الحديثة اليوم الدعوة الى العلم التجريبي ... وشهدت اواخر القرون الوسطى مدرستين عظيمتين : مدرسة اوكام في اكسفورد وباريس ، ومدرسة ابن رشد في (اوربا) وهؤلاء هم الذين وصلت معرفتهم الى ديكارت وبيكون ليقولوا (بالمنهج) الذي حول التفكير الغربي ، غير ان ديكارت هزم ارسطو فاحتلت الرياضيات مكانة المنطق واصبحت الحياة مجرد تعبيرات كيمائية طبيعية لتقدم على الرياضيات ثم وطد الافكار الدينية على اساس ديكارتي — (مالبرنش) وموسيه من بعد ، فتأثر العقل الغربي في نهضته بالاسلام الذي يقران العلم التجريبي يحتاج للعلم العقلي ، (فلا عقل بدون تجربة) والعكس كذلك ، وقد استعمل بعد ذلك فولتر العقل ليبني عليه لاهوتا عقليا وحقوقا طبيعية واخلاقا طبيعية متأثرا بفلسفة ابن طفيل في حي بن يقظان .

ان التقدم العلمي بالنسبة للمسلمين امر ديني سواء كان العلم يتصل بالدين او بالمعارف الدنوية التي لها غايات دينية ، فالاسلام يفرض معرفة وبفسر الاهلة في القرءان على اساس الفلك ، ولذلك يدرس المسلمون الفيزياء والكيمياء والوسائل الميكانيكية لخدمة الانسان عقليا ونفسيا وتربويا اتباعا لتعاليم الدين ، ولذلك اهتموا بالرياضيات واشتغلوا بالحساب وطوروا الارقام ونظموها . وفي تاريخ المغرب نذكر باعجاب تقدم الرياضيات على يد تميم بن طريف مخترع الارقام على الزوايا التي ذاعت في فاس وقرطبة واعتبارها الافرنج المعجزة العربية التي قدمت العلم .

ان الاسلام بدا منطلقا من اول كلمة نزلت في القرءان ، « اقرا باسم ربك » ، فالاسلام بني على التعلم والمعرفة والتجربة والتأمل والتبصر في الكون ، وحمل الى الشعوب التي اعتنقته بسرعة فائقة كل معارفه وتجاربه ، فكان المسلمون الاولون يحملون القرءان في فتوحاتهم ليعرفوا العالم الاسلامي بدعوة القرءان في سهولة ويسر ، وحسبنا ان نعرف نجاح الدعوة الاسلامية في المغرب من اول يوم ، ونرى في المغرب طارق بن زياد كخطيب مفوه وسابق المطمطي كشاعر كبير ، ويحيى الليثي كفقيه مجتهد ، لان الاسلام لا

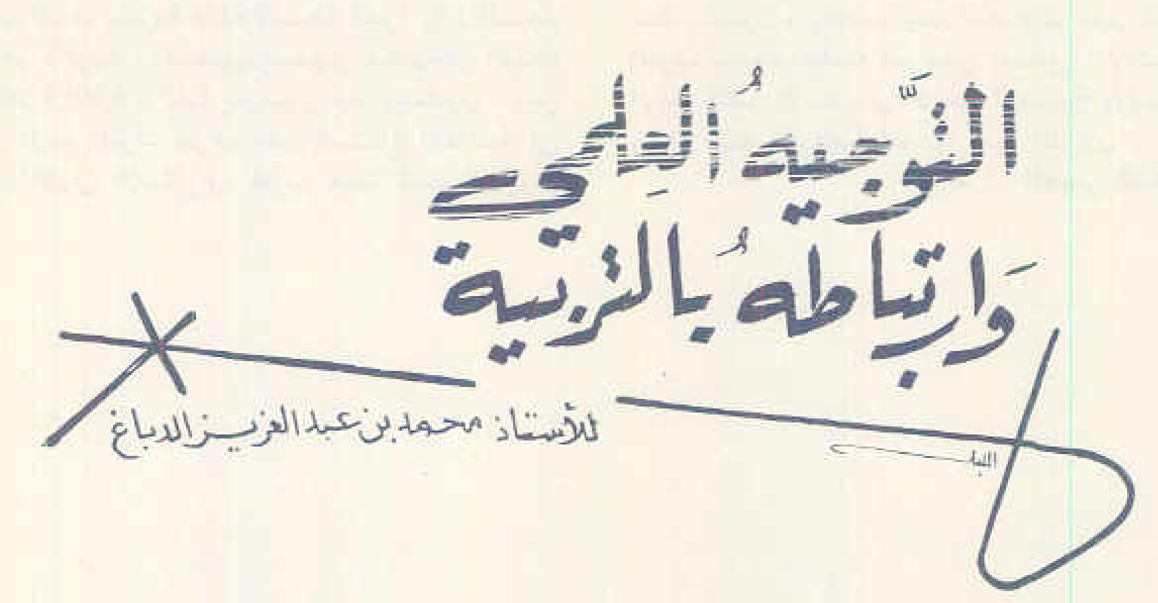
يحمل العمران المادي ، ولا يقيم الاهرام ، وانما يحمل الثقافة الفكرية والروحية ، وقد سارت العروبة في المغرب المسلم بسرعة فائقة لاسباب كثيرة ولان المسجد كان هو (فروم) المسلمين يخطبون فيه رجال القيادة كما كان (الكلية) ايضا يدرسون فيه ويتعلمون ، ومن خلال تاريخ المغرب نعرف مدى اتساع الثقافة في العهود الاولى للاسلام فى المغرب حيث كانت القيروان جامعة عظمى يعلم فيها اساتذة مثل الامام سحنون ، والامام اسد بن الفرات وتعلم فيها نساء عالمات كخديجة بنت سحنون ، وفاطمة بنت اسد ، ثم تقيم امراة من المغرب مسجد جامعة القرويين بفاس ، ويشيدون الربط لنشر الاسلام فى افريقيا الجنوبية والوسطى فى وحدة متناسقة كاملة اقامتها دعوة القرءان .

الرباط : الحسن السائح

فضائل علي

قال الجاحظ :

لا يعلم رجل فى الارض متى ذكر السبق فى الاسلام والتقدم فيه ، ومتى ذكرت النخوة والذب عن الاسلام ، ومتى ذكر الفقه فى الدين ، ومتى ذكر الزهد فى الامور التي يتناصر الناس عليها ، كان مذكورا فى هذه الخلال كلها الا علي .



التوجيه العلمي وارتباطه بالتربية

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

الحاجة الى تحقيق وجودنا واثبات شخصيتنا تدفعنا الى العمل من أجل الحصول على المعرفة والتبحر في العلوم العامة لان كيان الدول لا يقوم على الجهل ابدا فبالعلم غزا الانسان الفضاء واستغل الامكانيات الطبيعية التي لم يكن له بها علم فكشف عن الطاقات المجهولة وبحث عن وسائل الغذاء التي تمكن الانسان من الحياة الرغيدة الآمنة .

لقد اصبح العلم ضروريا لحياة الامم وترقية الشعوب ، والامة الجاهلة لا تثبت وجودها ولا تستطيع حماية نفسها ممن يحاول غزوها او يريد استعبادها .

ان العلم هو المحرك القوي الذي يدفع الامة الى الامام وهو السلاح الناجح الذي يحمي الذمار ويصمد امام الجهل والذل والعار فاذا استطاعت امة ان تعتني بالجانب العلمي وتعمل على انشاء المعاهد والجامعات فانها تصبح سيدة متحكمة وتصير لها هيبتها بين الدول .

الدولة الجاهلة أمام الدول العالمة كالقزم امام العماليق لا يستطيع مطاولتهم ولا مقاومتهم بل انها كالمشلول الذي يريد ان يسابق الاقوياء الاصحاء المفتولي العضلات يسيرون الى الامام وهو متقاعس جاثم لا يستطيع حراكا .

فاذا شعرت امة بالتخلف او احست بضعفها ازاء الامم الاخرى فما عليها الا ان تسرع الى التسلح بالعلم لانه مفتاح الخير وباب الامل .

طريق العلم واضحة : مواظبة على التعلم واخلاص في الطلب من المواطنين وتشجيع للمراكز العلمية وانشاء لها من الحكومات الرسمية ومن الهيآت العامة ومن الافراد المخلصين .

العلم واجب وطني يتحمل مسؤوليته كل افراد الامة وجميع الهيآت الادارية والحرة ؛ لهذا نجد في بعض الدول الراقية شركات وهيآت تؤسس بعض الجامعات وتكفل العلم وتحميه وتستغله للمصالح الاقتصادية وتنمي به الدخل العام للامة .

فلم يعد من المعقول ابدا في هذا العصر ان تحيا امة جاهلة حياة كرامة وعزة وحياة رفاهية وغنى فان العلم اصبحت له السيطرة على توجيه الامم واصبحت بيده الموارد والمنشآت العامة فكم من امة بسبب جهلها صارت كالبقرة الحلوب يستغلها الآخرون وهي لا تلقى من وراء الاستغلال الا جهدا وعناء بل ان الامة الجاهلة قد تؤخذ منها المواد الخام بثمن بخس ثم تعود اليها بعد ان تحولت على يد الفنيين والعلماء الماهرين الى اشكال اخرى بثمن مرتفع قد ينزف اقتصاد الدولة الجاهلة ويجعلها دائما في خضوع وخشوع .

وكم يعجبني هنا قول الرصافي رحمه الله :

اذا ما الجهل خيم في بلاد
رأيت اسودها مسخت قرودا

وليعلم القراء أن التقدم العلمي في العالم ليس

موقوفا على امــة دون اخرى أو على جنس دون آخر فان الهمم القوية والعزائم الموجهة تستطيع توجيــه الفرد الى ما فيه الخير له ولامته . لذلك يمكننــا اذا آمنــا بحقيقة العلم وصلاحيته واعتقدنا ذلك ان نرفع من مستوى التعليم الجامعي في امتنا وان نرفع مــن مستوى التقدير المعنوي لعلمائنا فنشجعهم على مواصلة العمل وندفعهم الى الاخلاص في عملهم والى تقديــر مسؤوليتهــم .

قيمــة العالم الحقيقية لاترجع الى ما يكتسبه من ربح خاص به وانما ترجع الى ما تكتسبه الامــة منه ومن تجاربه واعماله ؛ لهذا أرى أن الواجب يفرض علينا تقدير العلماء من جهة ويفرض على العلماء تقدير مسؤوليتهم من جهة اخرى وبذلك تنصهر مصالحهم في مصالح الامة وتندمج منافعهم بمنافع باقي الافراد.

الشعور بالمسؤولية الوطنية واجب ملقــى على عاتق العلماء وقد يربطون بينه وبين الشعور العالمــي ولكنه ارتباط يجب ان لا يؤدي مطلقــا الى الاضــرار بالوطن او يتسبب في اهانة الامــة التي ينتمي اليهــا العالــم المسؤول .

اذا فقد العالم الشعــور بمسؤوليته الوطنيــة فقد يصبح آلة في يد اعداء الامة التي ينتمــي اليهــا ويصير علمه آنذاك خطرا على دولته وعلى مواطنيه .

ولهــذا فلا يمكننا ان نفصل أبدا العنصر العلمي عن العنصر التوجيهي الذي يتصل بكيــان الدولــة وباخلاقها وبتربيتها اذ لا بد من ايجاد برامج كفيلــة بتحقيق هذا الغرض الذي يجمع بين التوجيه السليم والعلم النافع اذ لا منافاة بين العلم والتوجيه التربــوي الذي يتصرف في مصير العلماء.

والغالب ان الدول الكبرى لا تهمل هذه الظاهرة في تعليمها وتوجيهها فهي تعمل ما امكنها على ربــط شعور العالم بأمته حتى يصبح منقادا لها يعمل مــن اجلها ويخدم بعلمه حاضرها ومستقبلها .

فالعالم السوفييتي مثلا قد يهدف الى تحقيــق أغراض واهداف يكون فيها النفع للسوفييتيين دون ان يكون في اعتباره غيرهم لان مصالحه القومية تقتضــي ذلك وكذلك العالم الامريكي مثلا قد يعمل على البلــوغ بعلمه الى تحقيق الرخاء والازدهار والتمكــن مــن الاستمرار الحكمي لامريكا دون اعتبار لباقــي الــدول الاخــرى .

ومعنى ذلك هو ان هذا الشعور الداخلي المرتبط بالعمل على جعل الامة التي ينتمي اليها العالم في مركز القيادة ليس غريبا عن الانسان وليس بعيــدا عــن الشعور البشري لان حب الظهور وحب التغلب وحب الانتصار وحب القيادة غرائز بشرية ان العلم لايمحوها وانما يهذب طريقة تنفيذها وتحقيقها فقط .

واذا علمنا ذلك وجب علينا ايضا ان نربط بيــن العلم في امتنا وبين الاهداف التربوية التي يجب علينــا تحقيقها فنحن في حكم الجغرافية البشرية مغاربــة عرب مسلمون لا نرضى ان ننسلخ عن هذه الخصائص وان نبتعد عنها بل ان شعورنا الداخلــي يدفعنا الــى الغضب والتحدي والمقاومة كلما شعرنا باهانة لهــذه المقومات من غيرنا ولكن فرق كبير بيــن ان نغضب اذا اهاننا غيرنا وبين ان لانغضب اذا نحن اهنا انفسنــا فان الغضب التقليدي الذي ياتي عن طريق الانفعال ولا ياتي عن طريق العمل هو غضب طائش قد يضر بالامة أكثر من ان ينفعها لانه غضب لايدفع الى البناء وانمــا يــؤدي الى الانتحــار .

تصور موقف العرب في ايــام النكسة التي اصيبوا بها في حرب فلسطين فان غضبهم وحده لا يكفي اذ لابد من استعداد علمي يؤازرون بــه غضبهم ليكون لذلك الغضب نتيجة ايجابية اما ان نغضب لاننا اهنــا في كرامتنا ثم نستمر في لهونا وعبثنا وتنكــرنا لتقاليدنا واهمالنا لاســس الرقي فان هذا هو العمل المنكر الــذي لا يرضاه العقل ولا ترضاه الهمــم .

من غضب من اجل الانكسار يجب عليه ان يبحث عن اسبابه وان يوجه عنايته الكبرى للقضاء عليه فاذا كان جاهلا فليقبل على العلم واذا كان متخاذلا فليتحــد واذا كان مريضا فليبحث عن اسباب العــلاج اما اذا استمر على لهوه وعبثه وجهله رغم معرفته للاسبــاب ولوسائل العلاج فانه يكون آنذاك كالعالم الذي لا يعمل بعلمه وكالمريض الذي يعرف ان شفاءه في تناول دواء معين ولكنه يرفض تناول ذلك الدواء فيكون مسؤولا عن استمرار مرضه وتعذر علاجــه .

اذا اتضحت هذه الحقيقة اصبح من الضروري استيعابها ومحاولة تنفيذها في برامجنا العامــة وصار من اللازم اذاعتها في جميع المجالات لان العلم في الحقيقة أساس عملي لحياة الامم وترقية الشعــوب وذلك اذا كان يهدف الى الخير والســلام اما اذا كــان يؤدي الى الخراب او التنكر للمقومات التربوية التي ترفع من شان الانسانية فانه سيصبح خطرا على العالم وقد يكــون في يوم من الايام سببا في الدمار .

وحيث اننا اصبحنا نحس بأن العلم سلاح ذو حدين يمكنه أن يبني ويشيع الخير والسلام ويمكنه أن يهدم ويشيع الشر والفزع لم يعد مبرر لاهمال الجانب التربوي في التوجيه العلمي .

وهذا الجانب يجب ان نستمده نحن العرب من كياننا ومن وجودنا وان نضفي عليه حلة من قوميتنا وديننا . فالعالم العربي يجب ان يجمع بين الحقائق العلمية وبين شعور يربطه بامته وتربيتها ولا يتأتى ذلك الا بتوجيه تربوي يبدأ من المدرسة الابتدائية والثانوية ويصل الى التعليم الجامعي اما اذا انحرف التوجيه التربوي في ربط شعور العالم بامته فان ذلك التعليم قد يؤ دي عكس ما كنا نتوخاه منه بحيث نتيقن بأنه سيوجد لنا علماء سيكونون كالاجانب في امتهم لا يفكرون وفق مناهجها في الحياة ووفق مصالحها الخاصة وهذا هو السبب الذي يدفع كثيرا من المهتمين بالتربية والتعليم في امتنا الى الدعوة الى ربط التعليم باللغة العربية وبالتربية الاسلامية وبالتاريخ الحضاري للعرب لانهم يرون في ذلك احياء لمقوماتنا وبعثا لحضارتنا وتجديدا لتقدمنا العلمي وفتحا لمجال العمل الجدي من اجل تحقيق مستقبل زاهر للامة العربية .

ان المستقبل هو النتيجة العملية لاعمالنا الحاضرة فاذا كنا نعمل بجد واخلاص وفق برنامج صالح ومخطط واضح يرتكز على احياء المقومات وحفظ كيان الامة كان المستقبل زاهرا وكان الغد خيرا من الحاضر ومن الماضي اما اذا كانت البرامج منحرفة وكانت التربية منكوسة فان المستقبل ايضا يكون مظلما ويكون ضائعا ويكون اسوأ من الماضي والحاضر .

اذا كان الامر كذلك فما علينا الا ان نخطو خطوة عملية في تحقيق هذا الهدف المقصود فنعمم تعليم اللغة العربية ودروس الحضارة الاسلامية ونوجه النشء الى تربية دينية قد تكون قادرة على توحيد شعورنا في المستقبل .

ومن المعلوم أن طلبة اليوم هم علماء الغد واساتذة المستقبل فاذا تكونوا ونضجت عقولهم وتهذبت نفوسهم اصبحوا مسؤولين عن توجيه الامة وجهوها الى الخير والصواب .

فمصير الامة في المستقبل رهن في ايدي شباب اليوم فان وجهوا الى العلم والخير كان المستقبل وضيئا مزدهرا وعليه فان الواجب الوطني يدعو جميع الافراد الى العناية بالشباب وتربيته وتوجيهه الى طريق العلم الناجع المفيد .

وما العلم الناجع المفيد الا العلم الملقم بالاخلاق الفاضلة الهادفة الى اصلاح الامة واصلاح الانسانية .

فالعلم دون اخلاق قد يكون خطرا على الامة وشرا على العالمين .

ومن اسس الاخلاق استغلال العلم للترفيه على الامة وللعمل على تنمية اقتصادها وتقوية دفاعها وابعاد الاذى عنها .

وبربط التوجيه العلمي بالشعور التربوي نستطيع أن نهيىء العلماء الذين نرجوهم وهم العلماء الذين يجمعون بين قوة العلم وقوة الايمان ويضيفون الى معرفتهم العامة شعورا قوميا يحققون به وجودنا ويثبتون به شخصيتنا امام الراي العام العالمي .

اننا لا نستطيع ان ننفصل عن الكتلة البشرية لاننا ننتسب اليها عن طريق الجنس والمصالح المشتركة ولكننا لا نريد أن نتصل بها دائما اتصال التابع بالمتبوع او اتصال المحب الولهان الذي ينسى وجوده ويندمج اندماجا كليا في عشيقه بل نريد ان يكون في علاقتنا بالغير عنصر العقل من حيث اختيار احسن ما عنده وعنصر العاطفة من حيث الاعتزاز بالعنصر الشخصي ا[illegible]عل الذي يثبت شخصيتنا كامة ذات حضارة وتاريخ ودين وذات مبادىء سامية ترى صلاحيتها للعالم وتعمل من اجل ابقائها ونشرها بين اطراف المعمور .

وبهذه التربية القويمة نستطيع استغلال الطاقات العلمية في تنمية المجتمع وفي رفع مستوى البلاد اقتصاديا وخلقيا ونستطيع بناء دولة قوية تستند في بنائها وتحقيق وجودها على العلم والاخلاق .

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ

في سبيل تصحيح مفاهيم تاريخ
الفكر الاسلامي والثقافة العربية

كانت مرحلة مقاومة وتحد ولم تكن فترة انحطاط

للأستاذ أحمد أنور الجندي

حاول بعض المؤرخين والكتاب ان يصفوا الفترة من 656 هـ بعد سقوط بغداد الى 1213 هـ 1798 م — وهو تاريخ قدوم نابليون الى الشرق — بانها فترة انحطاط .

والحق ان هذه القرون الستة لا يمكن ان تدرس على انها مرحلة واحدة ، ولا يمكن أن يصدر عليها حكم واحد فضلا عن ان علامات اليقظة فى عالم الاسلام سبقت قدوم نابليون بوقت طويل ، وقد انبعثت من الاعماق ولم تكن بفعل مؤثر خارجي .

واعتقد ان هذا الحكم ربما قصد القائلون به قطاعا معينا هو « الادب العربي » ثم انسحب على الفكر الاسلامي كله ، ذلك ان الدلائل المؤكدة تثبت ان « الفكر الاسلامي » قد واجه مرحلة ضخمة من مراحل التحدي خلال فترة الغزو الخارجي ، وانه استجاب استجابة واضحة فكان على مستوى المعركة ، وقد استمر هذا الفكر قويا الى مرحلة (عصر الوحدة الاسلامية العثمانية) وان فترة ضعفه لم تزد على مائة عام قبل ظهور دعوة التوحيد على لسان الامام محمد ابن عبد الوهاب .

*

والواقع ايضا ان « الادب » ليس هو « الفكر العربي الاسلامي » فى هذه المرحلة ، ولكنه قطاع واحد منه ، ولم يكن سقوط بغداد فى الحق هو اول مرحلة الغزو الصليبي ، وليس سقوط بغداد الا حادثا جزئيا ، ربما احدث اثره فى الاداب نتيجة للهزة العاطفية التي اصابت المسلمين بعد سقوط (بغداد) مقر القيادة السياسية الاسلامية ، اما اثره الفكري فلم يكن عميق الغور ، اذ أن مراكز الثقافة لم تلبث ان انتقلت الى الشام ومصر والمغرب ، ويمكن القول بأن « عصر الغزو والمقاومة » كان امتدادا طبيعيا لعصر « التبلور والانصهار » لعالم الاسلام فكرا ومجتمعا . بل ان ثمرات الفكر الاسلامي والعلوم والفلسفات كلها قد تفتحت فى عصر المقاومة ، ولعل الادعاء بأن هذه المرحلة جميعها فترة ضعف ، ولا نقول انحطاط ، قد جاء بنتيجة ما لوحظ من توقف حملات الصراع بين المذاهب والدعوات ، التي اتسم بها « عصر التبلور والانصهار »بيد أن هذا التوقف فى معارك السجال ، وانما هو ظاهرة طبيعية لهذه المرحلة ، وليس علامة جمود ، فان المذاهب التي نشأت نتيجة اختلاف مفاهيم المعتزلة والسنة ودعاة الكلام والفلاسفة والتصوف كانت قد تقاربت ، بعد ان زال الصراع السياسي الذي كان يحمل لوائها ويستخدمها ، وبعد أن دخلت الى الاسلام موجات ضخمة من السلاجقة والبربر والمماليك وعناصر مختلفة من الاجناس والامم ، وبعد ان غلبت الثقافة السنية التي حمل لوائها الاتراك فى عناصرهم المختلفة : سلاجقة واتابكة وايوبيين وعثمانيين من بعد وكانوا بالاضافة الى المماليك والبربر (المرابطون والموحدون) جميعا من انصار الثقافة السنية ، بينما كانت الثقافة التي تحمل طابع اهل البيت — وهي اساسا لا تختلف مع مذهب السنة والجماعة الا فى

الفروع ــ قد انحسرت فى منطقة فارس وما بعدها وتمثلت فى الفرس والتتار .

*

ومن ابرز ما تتسم به هذه المرحلة منذ الغزو الخارجي للعالم الاسلامي (الصليبيون فى المشرق والفرنجة فى المغرب) هو غلبة طابع التصوف على الجماعات الاسلامية وتغلغل هذه الظاهرة فى المجتمع الاسلامي وتأثيرها على مفاهيم الثقافة السنية والربط بينها وبين مفاهيم الثقافة الشيعية فى الالتقاء على حب النبي وآل البيت مما قرب هذه المرحلة بين اهل الفقه واهل التصوف وبين السنة والشيعة جميعا .

وقد كان لسمة « التصوف » الظاهرة الواضحةفى هذه المرحلة اثرها البعيد المدى ، فى معركة المقاومة للغزو الاجنبي . فقد كانت من عوامل القوة الدافعة لمجموعات ضخمة من الشباب بالفتوة والمرابطة فى سبيل الله والانصراف الى الجهاد والمقاومة والاعتصام بالثغور ، والانضواء تحت لواء القوات الاسلامية المندفعة بقيادة عماد الدين زنكي ونور الدين محمود، وصلاح الدين الايوبي ، والظاهر بيبرس ، ويوسف ابن تاشفين وعبد المؤمن بن علي وغيرهم من زعماء مقاومة الغزو الخارجي لعالم الاسلام .

وفى هذه المرحلة كانت المعاهد الاسلامية القائمة فى انحاء العالم الاسلامي هي العامل الاكبر الذي حافظ على اللغة العربية والفكر الاسلامي : الازهر فى مصر ، والقرويين فى فاس ، والزيتونة فى تونس الاعظم بالقيروان ، والاموي بدمشق ، ومعاهد النجف وكربلاء وسامرا ، وكلها استطاعت ان تحتضن الفكر الاسلامي واللغة العربية فى هذه المرحلة الدقيقة وتذود عنهما عادية الغزو ، وقد ظلت هذه المعاهد من حلقات المساجد والكتاتيب ، والى الجامعات قائمة بدورها التاريخي ، خلال فترة اجتياح المغول والصليبيين والفرنجة لعالم الاسلام .

وكان دور المرأة فى مجال العلم خلال هذه الفترة مطرد النماء ، فقد ظهرت اسماء لها شهرتها فى هذه المرحلة من المسلمات المتفقهات ، كن يعلمن ويتحدثن فى مجالس القاهرة ودمشق . كما رافق حكم المماليك فى مصر والشام حركة علمية ادبية توافرت خلالها المدارس والمكتبات والمؤسسات الخيرية فضلا عن التآليف والابحاث الدينية واللغوية وظلت اللغة العربية هي لغة العلم والسياسة .

وكان للازهر دوره الضخم فى هذه المرحلة . فقد اطلق صلاح الدين الايوبي 567 ـ 1171 م للازهر رسالته فى مجاله الثقافة الاسلامية السنية ، ومنذ عصر صلاح الدين اصبح الازهر جامعة الفكر الاسلامي ومهدا للاسلام واللغة العربية ، فلما جاء الظاهر بيبرس جدد شباب الازهر ، حيث عادت صلاة الجمعة .

وكانت للازهر فى مرحلة الغزو والمقاومة مدارس فرعية متخصصة تمده بالطلاب ، وكانت اقامة هذه المدارس قد بدات فى عصر الدولة الايوبية ، وقد اقامها نور الدين محمود فى الشام (دمشق وحلب) وفى مصر قامت مدارس مختلفة لدراسة الفقه الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي والحنفي ، وفى المدرسة الناصرية تولى شان الدراسة ابن خلدون وتعهد الازهر علماء كثيرون فى مختلف أنحاء عالم الاسلام ، فى هذه الفترة منهم : عبد اللطيف البغدادي (589) هـ وقد تولى التدريس بضعة اعوام فيه ، وكان موسى بن ميمون يلقي فيه دروسا فى الرياضة والفلك والطب ، وكان شرف الدين ابن الفارض يعقد به حلقات الصوفية الروحية. وكذلك شهاب الدين السهروردي ،وشمس الدين بن خلكان صاحب وفيات الاعيان ، وكان الازهر فى هذه المرحلة يضم اعدادا ضخمة ، وكان مفتوحا للطلاب من كل مذهب ، تدرس فيه سائر العلوم الدينية واللغوية ، ويقوم على تثقيف العدد الكبير من الطلاب عدد كبير من الاساتذة ، يقصدونه من كل بقاع عالم الاسلام ، ويقطن فى اروقته منهم عدد كبير ، بلغ فى اواخر القرن الثامن الهجري سبعمائة وخمسين طالبا (المقريزي) .

*

ومن علماء الازهر فى القرن الثامن الهجري : شمس الدين الاصبهاني (امام الدنيا فى المقومات) وشرف الدين الزواوي المالكي ، وكان بمصر من الاندلس العلامة : محمد بن يوسف ابن جنان النفري، والعلامة الحافظ بن حجر العسقلاني ، وتقي الدين المقريزي ، تلميذ ابن خلدون ، والحق ان الازهر منذ الغزو المغولي والقضاء على الحضارة الاندلسية ، اصبح اكبر معهد فى عالم الاسلام كله، وميزته انه يتوسط هذا العالم ، وانه قريب من الحجاز ، وله صبغته العربية المحضة (د . فولزر) والواقع ان هذه الفترة ناضلت فيها الثقافة الاسلامية وان ضعف الادب ، كانت عوامل اليقظة والقوة واضحة فى مجال التاريخ

والقصة والنصوص . وفي تأليف الموسوعات وكان ذلك تحديا للضعف السياسي ، وكان مجال العلم التجريبي والفلسفة قد اتسع افقه في الاندلس ، بينما عرفت الشام ومصر بالتقدم في مجال الفقه والنصوص .

*

ولعل من اهم الظواهر في هذه المرحلة : (ظهور الثقافة العربية) مقام الادب العربي الذي لم يكن في كل هذه المراحل ممثلا للفكر الاسلامي ، وقد كان طابع التكامل والوسطية التي اشتهرت في الابحاث في هذه الفترة أكثر اصالة من ذلك التمزق الذي حفلت به الفترات الماضية حين كان الادباء والشعراء يذهبون الى ابعد مدى في خدمة الامراء واذلال النظم لهم ، وقولهم غير الحق ، واسرافهم في المدح والهجاء، والمجون والاباحة الخمريات على نحو بلغ انحرافه عن مفهوم الاسلام حدا كبيرا .

أن الثقافة العربية في مرحلة الغزو الخارجي قد كانت تحررت من خلافات المذاهب ومعاركها ، كما تحررت من اهواء الشعراء والنظامين من الواقفين على اعتاب الامراء ، ومن ثم كان العلماء وهم القادة في هذه المرحلة أشد الناس عزوفا عن عطايا الحكام أو قبول مناصبهم ، تحرز لفكرهم واستعلاء على قبول الظلم او كتمان كلمة الحق ، وكان للثقافة الاسلامية في هذه المرحلة اثرها الواضح في التخلص من المحسنات البلاغية وجمع الفنون المختلفة والمزج بينها ، وكان التاليف الموسوعي الجماعي المنوع في هذه المرحلة يهدف الى تقديم المعرفة بصورة شاملة وسريعة ، وكان ذلك في واقعه انما يمثل اكبر رد فعل للغزو الصليبي والفرنجي والمغولي وما دمر من مكتبات وقضى على معاهد وجامعات ، فهو عصر خوف وسرعة ومقاومة ، استهدف جمع حصيلة ضخمة من التراث الاسلامي وحفظها وتنسيقها في موسوعات ما تزال حتى الآن من الاعمال التي قامت عليها النهضة الحديثة في مجال التراجم والفقه واللغة .

اما توقف الاجتهاد وغلبة النقل والتعليق فيرجع ذلك الى طابع العصر نفسه ، فان عصور المقاومة والجهاد لا تتيح فرصة العمل المنظم الذي يحقق الابداع والاجتهاد ، ابداعا واجتهادا يتصل بعصور البناء ونمو الحضارات وازدهار السلام ، كما يقوم في كنف الوحدات النامية المزدهرة ، ومن خلال تطور الحياة الاجتماعية ونموها بالتفاعل والتعامل ، اما في عصر المقاومة فمن الحق أن يتصرف الفكر الاسلامي كله الى شحذ اسلحة المواجهة والجهاد واعادة صياغة الفكر على نحو من الشمول والتكامل حتى لا يفقده الغزو المتصل مقاوماته الاساسية ، وآية ذلك ان النشاط العقلي للمسلمين لم يتوقف وان ضعف فيه الابتكار الذي هو ثمرة حياة الدعة والسلام ، وبرزت ظاهرة تاليف الموسوعات التي تعد من اعمال مراحل التحدي والمقاومة ، ويمكن القول بأن هذه ليست فترة موت ولكنها فترة بناء على نحو يتفق مع تحديات العصر في مجال حياطة وحماية وتجديد الفكر الاسلامي وتنسيقه على نحو جديد .

وقد تنوعت الثقافة في هذه المرحلة بين ابحاث التاريخ والجغرافية والادب والكلام واللغة والعروض والحديث والتفسير والفلك والموسيقى والسياسة والرياضة ، ويرجع ذلك الى انتشار دور العلم في ارجاء مصر والشام وخزائن الكتب ، وقد وصف حكام هذا العصر بأنهم مثقفون ثقافة ممتازة ، وقد احاطوا انفسهم بطبقة ممتازة من المثقفين، وآية ذلك مجالس بدر الدين محمود وصلاح الدين الحافلة بأهل العلم ، فضلا عن بناء المدارس ، وقد مضى المماليك في نفس طريق الايوبيين، فكان الظاهر بيبرس يقرب النابغين في كل علم ، ومنه، ويقول : ان سماع التاريخ اعظم من التجارب وكذلك فعل قلاوون ، وظلت المساجد خلال هذه الفترة عامرة بحلقات العلم وكذلك الزوايا والمدارس .

وقد ابرزت هذه المرحلة عديدا من الاعلام .

القزويني 605–682 ، ابن منظور 620–711 ابن نباتة 686–768 ، ابن قيم الجوزية 691–851 ابن بطوطة 703 – 779 القلقشندي 756 – 821 ، المقريزي 766–845 لسان الدين ابن الخطيب 733 – 808 ، ابن خلدون 732 – 808 .

وهكذا تنهار من اساسها تلك الشبهة التي تقول ان مرحلة ما بين سقوط بغداد وقدوم الحملة الفرنسية كانت مرحلة تخلف وثبتت عكس ذلك .

أنور الجندي



للأستاذ أحمد عبد الرحيم السائح

الدين والعلم : كلمتان من أشيع الكلمات قديما وحديثا . ولكل كلمة مدلولها ومفهومها .

فالدين : هو القوانين الاعتقادية التي جاءت من طريق الوحي الالهي . وهو ضالة الارواح ، وانشودة العواطف ، وبلسم جراح الحياة ، ونسيم الراحة والطمانينة ومهب نفحات الحق ، وهو واحد لا تعدد فيه ، بعث الله به الانبياء كافة الى الامم رفعا لما طرأ عليهم من الخلاف ، وحسما لما احتوشهم من روح النزاع « كان الناس امة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » .

وجاء في دائرة معارف القرن العشرين حرف (د) ان الدين : هو الطاعة والانقياد واسم لجميع ما يعبد به الله .

والعلم : هو مجموع المعارف الانسانية المؤيدة بالدلائل الحسية والعلم لا يعترف بمسألة الا اذا قبلها العقل وايدها الحس ، وقبلت الخضوع لاسلوبه من الاختبار والتمحيص والغربلة والتحقيق والتدقيق .

ويطلق العلم ايضا : على ما يضاد الجهل على الاطلاق وقد يقصد بالعلم تلك المعرفة الرياضية والطبيعية التي قامت على تجارب دقيقة والتي وصل عن طريقها الانسان الى كشف قوة البخار والكهرباء والذرة الى ما شاء الله .

واذا كانت هذه التعاريف : تعطي في مضمونها الحد التام لمعنى كلمتي : الدين والعلم ، فهل يجتمعان؟ او لا يجتمعان ؟

في نظر الماديين والطبيعيين : انهما نقيضان لا يجتمعان وضدان لا يلتقيان والحقيقة التي لا يسوغ انكارها : ان العلم والدين يلتقيان في اسعاد البشرية . ورفاهية الانسانية .

غاية العلم : الكشف عن الحقيقة وخدمة الانسان في الحياة .

وغاية الدين : اسعاد الانسانية في الحياة الدنيا، وفي الاخرة .

فالدين : اداة لمعرفة الحقيقة ، والعلم : اداة لمعرفة الحقيقة .

اذن ... : العلم والدين يواجهان الحقيقة الا ان الطرق مختلفة ، فالدين يعطي المعرفة من طريق الوحي ، مدركة ببصيرة خاصة ، على حين ينشد العلم المعرفة عن طريق البحث والملاحظة ومقاييس التعميم والاختبار والتجربة ، والعلم لا يحكم بصدق قضية الا اذا خضعت لاسلوبه وقام عليها البرهان .

وان الطرائق العلمية والدينية لتعرف الحقيقة ، ليست متعارضة ، ولا ينفي بعضها بعضا ، فان الدين والعلم يعالجان حقيقة واحدة ، غير انهما يمثلان نواحي مختلفة فهما لا يتفقان بالضرورة في رؤية الحقيقة الا انهما يواجهانها من طرق مختلفة .

والعلم وحده هو الذي يخضع للتجارب في المعامل ويرى فيها جوهر الحياة وعناصر القوة قال العلامة (اينشتاين) : ((العلم يخبرنا بما هو كان ولكن الوحي وحده هو الذي يخبرنا بما ينبغي أن يكون)) .

وهذه التفرقة التي ذكرها اينشتاين مهمة وحقيقة واقعة لاجدال فيها . فالعلم يصف ويحلل ، والدين يأمر، وقد يستطيع العلم أو يفيدنا ما هو الانسان ؟ وكيف اصبح على ما هو عليه ؟

ولكن الدين وحده ، هو الذي يخبرنا لم يعيش الانسان ؟

((افحسبتم انما خلقناكم عبثا ، وانكم الينا لا ترجعون)) . ((تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي الموت والحياة ليبلوكم ايكم احسن عملا)) . والدين وحده هو الذي يخبرنا ايضا : الى اي غاية يجب ان توجه حياة الانسان ؟

نخلص من هذا كله : الى ان التطور الفكري والبحث العلمي لا يتعارضان مع الاسلام فى شيء البتة ، ومع قليل من التحفظ ليس لدينا ما يمنع من قبول تلك الاراء التي ذهب اليها الفيلسوف ((وليم جمس)) فى قوله ((ان موضوع العلم ، وطرق البحث، واساليب المعرفة فيه تختلف عنها فى الدين ، ومع هذا لا يناقض احداهما الآخر)) .

ولكن مما ينبغي معرفته ان الفيلسوف وليم جمس يتحدث عن دين تنحصر وظيفته فى النهوض بروح الانسان فحسب ، والدين الاسلامي غير هذا لانه ينظم الحياة من جميع وجوهها فهو نظام عالمي عام . يوجه الانسان فى الحياة ويساعده على ان يحصل لنفسه وللجماعة الانسانية اسمى درجة من الكمال الانساني. فى الروح والخلق والمادة والعقل والقيم ، لانه قانون الفرد والجماعة والعلاقات ، وكل تكييف لعمل الانسان حسب تعاليم الاسلام يعتبر عبادة مشروعة .

والاسلام لا ينسجم مع نتائج البحث العلمي والعقلي فحسب ، بل قدس هذا النوع من البحث ، فجعل متابعته واجبا دينيا يؤجر عليه المسلم ((طلب العلم فريضة على كل مسلم)) .

وكلمة العلم فى القاموس الاسلامي اطلقت ولم تخصص بمادة معينة من مواد العلم فوجب ان تبقى مطلقة دون تقييد بمعلوم مخصوص أو منظور مخصوص ((هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)) ويرشدنا هذا الاطلاق الى ان العلم فى نظر القرآن ليس خاصا بعلم الشرائع والاحكام من حلال او حرام وانما العلم فى نظره هو كل ادراك يفيد الانسان توفيقا فى القيام بمهمته العظمى التي القيت على كاهله منذ قدر خلقه وجعل خليفة فى الارض؛ وهي عمارتها واستخراج كنوزها واظهار اسرار الله فيها ، فادراك ما يصلح به النبات وينمو ويثمر وما تستنبت به الارض وتحيا ((علم)) .

وادراك ما يصلح الحيوان ويستمر فى نسله وتتصل قوته علم ، وادراك موارد الصناعة على اختلاف انواعها وكيفياتها وتوزيعها علم ، وادراك الامراض وعللها وكيفية علاجها وطرق الوقاية منها علم . وادراك ما تعرفه الامم من وسائل الدفاع والهجوم حفظا للاوطان ودفعا بما يرهبهم علم ، وقد جاء الايمان بهذا كله واضحا وجليا فى القرآن الكريم وبه كان العلم بمعناه الشامل العنصر الاول من عناصر الحياة فى نظر الاسلام .

ما دام كل ذلك فى سبيل النفع العام المنقذ للانسانية ، المعالج لادوائها ، المفيد لتقدمها ورقيها .

والاسلام الحنيف يدعو الى العلم ، والعلم يؤيد دعوة الاسلام ((ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري فى البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون)) .

((ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الالباب)) .

فالاسلام ساق هذه المظاهر الكونية ليرشد الى العلم الصحيح . والى الايمان بالله خالق الكون .

وكلما دق علم الانسان بالطبيعة ومظاهرها كلما ازداد ايمانا بالله . ومفاتيح العلم فى الاسلام واضحة صريحة لا عوج فيها ولا أمتا ، فالقرآن الكريم صراحة وضمنا وجملة وتفصيلا يدعو الى العلم والسير والنظر . ولفظ القرآن نفسه مشتق من القراءة ، وهي ادنى مفاتح العلم لبني الانسان ، وان اول كلمة نزلت على رسول الانسانية محمد — عليه الصلاة والسلام — هي « اقرأ » وكلمة « اقرأ » فيها من الامر والتوجيه العالمي الملزم لكل مسلم ومسلمة فى كل زمان ومكان .

وان اول قسم فى القرآن الكريم اقسم به الرحمن فى ثاني آية نزلت بعد الامر بالقراءة صدر بحرف من حروف الهجاء وكان بالتعلم وبما يسطر العالمون « ن والقلم وما يسطرون » .

فاول سورة نزلت من القرآن سورة « العلق » ومن العلق يخلق الانسان وكانت السورة التالية فى النزول لسورة العلق هي سورة « القلم » وبالقلم يكتب ويتعلم الانسان .

فانسانية الانسان لا تكون الا بالخلق والعلم قال رب العزة « الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان . علمه البيان » .

فالدين الاسلامي هو الدافع الاقوى لكل علم صدق ، وهو الدافع الى التبحر والعمق والاصالة في كل علم وفن .

وهذا هو السر في ان حضارة الاسلام كانت اروع الحضارات العالمية مجدا واجداها نفعا ، تلك الحضارة الشامخة التي اقامها الاسلام باسقة الفروع وارفة الظلال انتشلت الانسانية من وهدة الضياع وزوايا النسيان وبوأتها مكانا عليا ..

وليس من شك في اننا نحن ابناء العالم الاسلامي اهل اصالة واثالة في العلم قدنا الانسانية نحو المجد والقوة بفضل علماء العروبة والاسلام الذين حملوا المشعل الحضاري واضاءوا الدنيا بالمعرفة والعلم والنور .

ولقد تلمست اوربا انهار حضارة المسلمين العلمية فاستقت من روافدها المعرفة والفلك والجبر والهندسة والكيمياء والطب والفلسفة والزراعة وسائر انواع الفنون الحضارية .

وبنى رجال اوربا بما تعلموه في معاهد المسلمين بالاندلس وبما نقلوه من علوم اسس النهضة الحديثة التي ظهر نجمها في القرن الثامن عشر وازدهر في القرن التاسع عشر وتألق في القرن العشرين .

والاسلام بدعوته الى العلم هو الذي خرج رجال الحضارة وجهابذة العلم واساتذة الدنيا وعمالقة العلماء امثال :

ابن الهيثم والكندي والفارابي وابن سينا والبيروني والبتاني والبوزجاني والفرغاني والطوسي والبغدادي والرازي والقزويني والانطاكي والزهراوي والخوارزمي والصوفي وجابر والجاحظ وابن البيطار وابن النفيس وابن حيان وابن حمزة. والادريسي والمسعودي وابن بطوطة وابن زهر .

وهذا ابن الهيثم (965 — 1039) يبحث في السهول والاودية ويجول فيها طولا وعرضا . حتى يضع قواعد علم الضوء .

وابن الدجيلي يسهر على قمم الجبال العالية ، يحدق في الكواكب والنجوم ليحدد افلاكها ويعرف ابعادها ويقيس محيط الكرة الارضية بالاجهزة الدقيقة .

وابن النفيس يجري التجارب والاختبارات حتى يثبت ان الدم ليس سائلا مستقرا في الاوردة والشرايين المبثوثة في الكائن الحي . بل هو سائل متحرك يدور في جميع اجزاء الجسم ، وذلك قبل ان يكتشف (هارفي) الدورة الدموية بثلاثة قرون .

وابن مسكوية الذي يسبق فلاسفة اوربا وعلمائها بثمانية قرون في علوم الاخلاق والفلسفة والتهذيب والبيلوجيا .

وجابر ابن حيان يحلل عناصر الطبيعة وتفاعل المواد المختلفة حتى يضع اصول علم الكيمياء وابن يونس يسبق العلماء في اختراع بندول الساعة « الرقاص » .

وما زالت اسماء العلوم والمصطلحات التي اعطاها هؤلاء العلماء المسلمين لغرائب العلم ، ما زالت حية نابضة في جميع اللغات رغم ما نالها من تحريف وتغيير .

ولقد سجل التاريخ آيات هذه الحضارة العربية الاسلامية باعزاز كما شهد لها المنصفون من فلاسفة العالم ومؤرخيه الذين لا يبغون من بحوثهم ودراساتهم الا مرضاة العلم في ذاته . والذين لا تسيطر عليهم العصبية الهوجاء ، والسطحية العمياء .

واننا نسوق الى العربي بعض النقول التي جاءت على لسان فلاسفة العالم والتي تشهد صراحة وضمنا لمجد الحضارة الاسلامية .

والواقع ان الاسلام ليس في حاجة الى اقوال هؤلاء فهو قوي بذاته . لكننا نأتي بها لما نراه من ان كثيرا من كتابنا ومؤرخينا يغمطون حق حضارة العرب.

وان شئت بعبارة اقرب فقل انهم يجهلونها ولا يعرفون عنها الا النذر اليسير . والى هؤلاء واولئك بعض اقوال كواكب الاستشراق والبحوث العلمية والدراسات الواسعة .

قال « هير شفيلد » وليس للقرآن مثيل في قوة اقناعه ، وبلاغته وتركيبه واليه يرجع الفضل ، في ازدهار العلوم بكافة نواحيها .. وان الدين الاسلامي مخالف لهذه الابراج الشامخة التي تسقط من ضربة واحدة لان فيه قوة وصلابة ومناعة تجعله قادرا على المقاومة قدرة تامة » .

وقالت الكاتبة الالمانية الدكتورة « سيجر هونكه» « ان هذه الطفرة العلمية الجبارة التي نهضت بها ابناء الصحراء من العدم ، من اعجب النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ العقل البشري فسيادة ابناء الصحراء التي فرضوها على الشعوب ، ذات الثقافات القديمة ، وحيدة في نوعها وان الانسان ليقف حائرا امام هذه المعجزة العقلية الجبارة والتي يحار الانسان في تعليلها وتكييفها » .

وقالت ايضا : « وان أوربا تدين للعرب وللحضارة العربية وان الدين الذي فى عنق أوربا وسائر القارات للعرب كبير جدا » .

وقال العلامة « كاربنسكي » ان الخدمات التي اداها العرب للعلوم لم تكن مقدرة حق قدرها من المؤرخين وان الابحاث الحديثة قد دلت على عظم ديننا للعلماء المسلمين الذين نشروا العلم بينما كانت أوربا فى ظلمات القرون الوسطى » .

وقال الفيلسوف الفرنسي « الكسي لوزاون » .
« خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل للاخلاق وكتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا او المكتشفات الحديثة مسالة تتعارض مع الاسس الاسلامية فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية .

قال العلامة « دريبر » المدرس بجامعة (هافارد) بأمريكا فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين) « ان اشتغال المسلمين بالعلم يتصل بأول عهدهم باحتلال الاسكندرية سنة 638 ميلادية اي بعد موت محمد بست سنوات ولم يمض عليهم بعد ذلك قرنان حتى استأنسوا بجميع الكتب العلمية وقدرها حق قدرها » .

ولو اردنا ان نستقصي كل نتائج هذه الحركة العلمية العظمى لخرجنا عن حدود هذا الكتاب فانهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا واوجدوا علوما جديدة لم تكن معروفة قبلهم » .

« ان نتائج هذه الحركة العلمية تظهر جليا بالتقدم الباهر الذي نالته الصناعات فى عصرهم فقد استفادت منها فنون الزراعة فى اساليب الري والتسميد وتربية الحيوانات وسن النظم الزراعية الحكيمة وادخال زراعة الارز وقصب السكر والبن ، وقد انتشرت معالمهم ومصنوعاتهم لكل نوع من انواع المنسوجات كالصوف والحرير والقطن . وكانوا يذيبون المعادن ويجردون فى عملها على ما حسنوه وهذبوه من سبكها وصنعها ، واننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم من الاراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر » .

ويقول فى مواطن اخرى : « ان جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الاوربيين الذين نزحوا اليها من بلادهم لطلب العلم وكان ملوك أوربا وأمراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها » .

وقال العلامة سديو فى كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون فى القرون الوسطى منفردين فى العلم والفلسفة والفنون وقد نشروها اينما حلت اقدامهم وتسربت عنهم الى اوربا فكانوا هم سببا لنهضتها وارتقائها » .

وقال العلامة جيبون المؤرخ الانجليزي :

كان من اثر تنشيط الامراء المسلمين للعلم ان انتشر الذوق العلمي فى المسافة الشاسعة بين سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة ويروى عن وزير لاحد السلاطين انه تبرع بمائتي الف دينار لتأسيس جامعة علمية فى بغداد ووقف عليها خمسة عشر الف دينار سنويا وكان عدد طلبتها ستة آلاف لا فرق فيهم بين غني وفقير » .

وقال دريبر :

أول مدرسة انشئت للطب فى أوربا هي المدرسة التي اسسها العرب فى (بالرم) من ايطاليا واول مرصد اقيم فيها هو ما اقامه المسلمون فى اشبيلية بأسبانيا . وانهم رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا واوجدوا علوما أخرى لم تكن موجودة من قبلهم » .

وقد امتاز العرب فى الجمع بين فروع العلم والادب وفاقوا غيرهم فى هذا الميدان ومن يطلع على كتب محمد بن موسى الخوارزمي يجد ان المؤلف جمع بين الجبر والادب فانت تجد ان المادة الرياضية مفرغة فى اسلوب اخاذ وقالب ادبي رائع لا ركاكة فيه ولا تعقيد

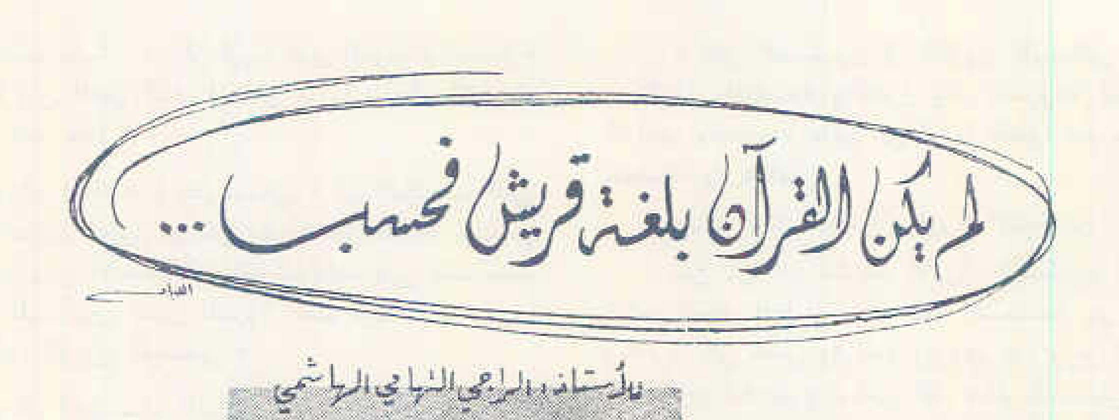
وانظر الى كتب البيروني تجد ان الادب والرياضيات اجتمعا متعانقين . قال العلامة درابرا : « لقد كان تفوق العرب فى العلوم ناشئا عن الاسلوب الذي توخوه فى مباحثهم وهذا الاسلوب هو الذي اوجب لهم هذا الترقي الباهر فى الهندسة والمثلثات » .

وقال الكاتب الهندي فسواني : « التهذيب العربي هو الذي انشأ فى آسيا وأوربا نشأة جديدة وانسانية جديدة » .

ان هذه الاقوال التي جاءت على لسان علماء افذاذ لمرضاة العلم فى ذاته تشهد صراحة وضمنيا وجملة وتفصيلا لحضارة المسلمين ومدى فاعلية الحضارة الاسلامية الانسانية التي لمست الانسانية فيها معاني السيادة ومست القلوب فيها معاني السعادة واعتلت فى ظلها صروح المجد .

هذه الحضارة ستظل خالدة خلود الابد ، باقية بقاء الدهر ، مدوية دوي الآذان لا ينضب لها معين ، ولا ينتهي لها مدى .

احمد عبد الرحيم السايح



للأستاذ الراجي التهامي الهاشمي

- 15 -

14 ــ قبيلة اليمـــن :

قال الشاعر الكلاعي يصف اليمن

هي الخضراء فاسأل عن رباهـا
يخبرك اليقـــين المخبرونـــا
وسطرها المهيمن في زمـــان
به كل البريـــة يطمئنونــــا
وفي اجبالها عـــز عزيـــز
يظل له الورى متناصرينـــــا
واشجـــار منـــورة وزرع
وفاكهة تـــروق الآكلينـــــا

كما يصفها السيد محمد شكري الالوســـي البغدادي فيقول : (1) « فهذا اقليم عظيم متسع الارجاء متباعد الاطراف والانحاء ، لم تزل محمودة على السنة الاصفياء لما اودع الله فيها من البركة في جميع الاشياء، وكانت تسمى الخضراء لكثرة مزارعهـا ونخيلهـا واشجارها وثمارها ومراعيها وريعها . »

ولاقليم اليمن تاريخ قديم حافل يدل عليه هـذا العدد العديد من القصور الفخمة العجيبة الفاخرة ، نذكر منها قصر غمدان الذي اسسه ازال بن قحطان بأمر اخيه يعرب ، وهو القصر الذي ورد ذكـــره في قصيدة الشاعر ثعلبة بن عمرو العبدي (2) قال :

« ولو كنت في غمدان يحرس بابـه
اراجيل احبوس واسود آلـــف »

ومن مدنها القديمة التي اشتهرت بين القبائـل مدينة نجران التي يذكرها الشاعر الجاهلي عبد يغوث ابن وقاص الحارثي (3) فيقول :

فياراكبا اما عرضت فبلغـــن
نداماي من نجران ان لا تلاقيـا

ومارب المشار اليها في القرآن الكريم في قوله عز وجل (4) « لقد كان لسبا في مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا لـه بلدة طيبة ورب غفور » . بلدة جميلة في اليمن ذات ماء عذب وهواء منعش .

اما اسواق اليمن في الجاهلية فقد كانت مزدهرة ، وهي التي ساعدت على انتشار اللهجة التي كانت سائدة فيها بين جميع قبائل العرب . واللغة التي كانت معروفة آنذاك في ربوعها هي اللغة الحميرية . جاء في كتاب نهاية الارب في معرفة احوال العرب نقلا عـــن المؤرخ الفرنسي دردي ما يلي (5) : « كانت الآداب قبل انتشار العرب من جزيرتهم متأصلة فيهم مـؤداة بلغتين الحميرية في اليمن والقرشية في الحجاز وبالاخيرة جاء القرآن . »

---

1) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب الطبعة الثالثة بالقاهرة صفحة 202 من ج 1 .
2) انظر ترجمته عند الانباري 559 . وفي كتاب الاشتقاق صفحة 197 وعند احمد محمد شاكر وعبـــد السلام محمد هارون في المفضليات الطبعة الثالثة بدار المعارف ص 253 .
3) انظر ترجمته في المفضليات صفحة 155 .
4) سبأ الآية 15 .
5) نهاية الارب الجزء الاول صفحة 181 .

ويظهر لي ان اليمنيين كانوا مضرب الامثال في الشجاعة والمروءة والوفاء . والامثال التي احتفظ التاريخ لنا بها تقوم حجة على ذلك وكلها تشيد برجالات اليمن المغاوير . ك « مروان القرظ » الذي يضرب به المثل في العز و « لاحر بوادي عوف » و « اجبن من المنزوف ضرطا » و « لو ترك القطا ليلا لنام » وغيرها كثير .

ولقد شاركت اليمن بالفاظ كثيرة في القرآن الكريم بيانها كما ياتي :

1 ـ كلمة : « **لهوا** (6) » في قوله تعالى : « لو اردنا ان نتخذ لهوا لاتخذنه من لدنا انا كنا فاعلين » الآية 18 من سورة الانبياء . ويكاد سائر المفسرين وجميع اللغويين ان يتفقوا على ان هذه اللفظة تدل هنا على المراة وان اغفلوا الاشارة الى انها تدل على المراة في لغة اليمن (7) ، ومن الذين ذهبوا هذا المذهب الزمخشري حين قال : « وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل المراة (8) » وهو كلام يظهر بوضوح ان جار الله لا يركن اليه وانما يرويه دون ان يعتقده وشان الزمخشري في هذا الباب شان الراغب الاصفهاني ، كلاهما يشك في هذا التاويل . الا ان صاحب المفردات في غريب القرآن يحاول ان يجد لهذا التأويل مبررا فيقول (9) : « ومن قال اراد باللهو المراة والولد فتخصيص لبعض ما هو من زينة الحياة الدنيا التي جعل لهوا ولعبا » ويجمل العالمان الجليلان جلال الدين محمد بن احمد المحلي وجلال الدين عبد الرحمن ابن ابي بكر السيوطي المراة زوجة فيقولان : « لو اردنا ان نتخذ لهوا : ما يلهى به من زوجة او ولد (10) غير ان العلامة اسماعيل ابن حماد الجوهري وسع هذه المعنى اليمني اكثر مما كنا ننتظر فقال (11) : « وقد يكنى باللهو عن الجماع » وهو بعد ذلك يعطي المفردة في هذه الآية معنى المراة او الولد . ويذهب لهذا المعنى وبدون التواء مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي فيقول (12) : « واللهوة المراة الملهو بها كاللهو » .

2 ـ المفردة : « **حاق** » في مواضع كثيرة من القرآن الكريم (13) ولاسيما في قوله تعالى : « فوقاه الله سيئات ما مكروا ، وحاق بآل فرعون سوء العذاب » الآية 45 من سورة غافر ، ومعناها بلغة اليمن (14) وجب وهي تدل على نفس المعنى في لغة قريش ولهذا فلا اشكال هنا .

3 ـ اللفظة : « **المرجان** » في قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » و «كانهن الياقوت والمرجان » الآيتان 22 و 58 . اجمع المفسرون وعلماء اللغة قديما على أن هذه المفردة يمنية. يقول السيوطي (15) : « واخرج (16) فيه (17) عن الكلبي قال : « المرجان صغار اللؤلؤ بلغة اليمن » .

غير انه من الملاحظ ان هذه المفردة موجودة في اللغة الاغريقية بنفس الصيغة تقريبا ولا يستبعد ان يكون صيادوا اليونان الذين كانوا يبحثون عن هذا الحجر النفيس قرب شواطىء البحر المتاخمة لشبه جزيرة العرب قد تركوا هذه اللفظة لليمنيين وقت ازدهار بلادهم. ويظهر لي ايضا ان اليمن تمتعت بازدهار تحسد عليه في حقب مختلفة من تاريخها الطويل سواء بعد بناء سد مارب ام قبله ، سواء وقت خرابه او بعد خرابه بزمن ليس باليسير .

---

6) اول من عزا هذه المفردة الى اليمن هو الاستاذ الجليل : «ابو القاسم بن سلام» .
7) الا ابو عبيدة فقد راى انها تدل على المراة في لغة اليمن واخبر انه رواه عن الحسن (الاتقان صفحة 135 من الجزء الاول) .
8) الكشاف الجزء الثالث صفحة 5 .
9) المفردات في غريب القرآن صفحة 455 .
10) تفسير القرآن العظيم المعروف بالجلالين الجزء الثاني صفحة 32 .
11) الصحاح الجزء السادس صفحة 2487 .
12) القاموس المحيط الجزء الرابع صفحة 388 .
13) في الانعام الآية 10 وهود الآية 8 والنحل 34 وغيره .
14) ابو القاسم سلام في رسالته المنشورة في حاشية تفسير الجلالين صفحة 163 من ج 2 .
15) الاتقان في علوم القرءان الجزء الاول صفحة 134
16) ويقصد ابا بكر الاباري .
17) يعني كتاب الوقف .

ومن المحتمل ان يكون صيادوا اليونان تركوا لليمنيين هذه الصيغة μαργαρίτης Margarites التي تدل عندهم على لؤلؤة صغيرة (18) وهو الشرح الذي اعطاه لهذه المفردة جميع اللغويين . قال الجوهري (19) : « والمرجان صغار اللؤلؤ وقالا صاحبا الجلالين (20) : « المرجان خرز احمر او صغار اللؤلؤ . وقال الراغب الاصفهاني (21) « والمرجان . صغار اللؤلؤ » .

والملاحظ ان هذه الكلمة لم ترد في القرآن الكريم الا مرتين : وفي سورة الرحمن دائما .

4 — الكلمة : (« **وزر** ») في قوله تعالى: «**كلا لا وزر**» الآية 11 من سورة القيامة نسبها الى لغة اليمن العلامة ابو القاسم ابن سلام (22) وروى « ابن ابي حاتم عن الضحاك في قوله تعالى (لا وزر) قال لا حيلة وهي بلغة اهل اليمن (23) »

وهي حسب ابن سلام ، لفظة مشتركة بين ثلاث قبائل بمعان مختلفة ، فهي بمعنى « لا حيلة ولا ملجأ » بلغة توافق النبطية » (24) وهي : « ولد الولد بلغة هذيل » (25) ومعناها اخيرا ولا حيل بلغة اهل اليمن .

5 — كلمة : (« **سامدون** ») في الآية 61 من سورة النجم التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : « وانتم سامدون » يقول الامام جلال الدين السيوطي الشافعي (26) : « اخرج ابو عبيدة من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله وانتم سامدون قال الغناء وهي يمانية . »

وقد اعطت في اللغة العربية الفصيحة « سمد » في قولهم سمد البعير بمعنى رفع راسه (27) . وقد اعطت ايضا في اللغة العربية الفصيحة ، اخذا عن اللغة اليمانية « اسمدي لنا يا جارية (28) أي غني لنا (29) »

ويوضح الجوهري هذه المفردة اكثر فيقول : « السمود اللهو . والسامد اللاهي والمغني . والسامد القائم والساكت (30) » .

ويرى بعضهم انها حميرية ، ولا فرق بين القولين ما دامت الحميرية هي اللغة التي سادت اليمن في ذلك الوقت .

ويحسن ان نشير الى ان هذه المفردة لم ترد في القرآن الكريم الا مرة واحدة .

6 — « **ارائك** » في قوله تعالى : « اولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الانهار يحلون فيها من اساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الارائك ، نعم الثواب ، وحسنت مرتفقا » الآية 31 من سورة الكهف . وقد وردت اربع مرات أخرى في القرآن الكريم على صيغة الجمع دائما (31) . ومفردة ارائك في اللغة العربية اريكة : « سرير منجد مزين في قبة او بيت ، فاذا لم يكن فيه سرير فهو حجلة » (32) .

اما سبب تسمية هذه الآلة بهذا الاسم فقد بينه بكل وضوح الراغب الاصفهاني حيث قال (33) : وتسميتها بذلك اما لكونها في الارض متخذة من آراك وهو شجرة أو لكونها مكانا للاقامة من قولهم : اراك

---

18) غرائب اللغة العربية صفحة 269 .
19) الصحاح الجزء الاول صفحة 341 .
20) تفسير القرآن العظيم المشهور بالجلالين صفحة 221 من الجزء الثاني .
21) المفردات في غرائب القرآن صفحة 465 .
22) الجلالين ذيل صفحة 265 من الجزء الثاني .
23) الاتقان في علوم القرآن صفحة 135 من الجزء الاول .
24) انظر دعوة الحق في عددها الثاني من السنة العاشرة 37 .
25) وقد ورد بيان ذلك في مجلة دعوة الحق في العدد الرابع من السنة 9 صفحة 18 .
26) الاتقان في علوم القرآن الجزء الاول صفحة 134
27) المفردات في غريب القرآن صفحة 241 .
28) اساس البلاغة صفحة 219 من طبعة 1953 وجعلها المؤلف هنا من المجاز .
29) الكشاف الجزء الرابع صفحة 43 .
30) الصحاح الجزء الاول صفحة 486 .
31) في سورة يس الآية 56 وفي الانسان الآية 13 وفي المطففين الآية 23 و 35 .
32) الصحاح الجزء الرابع صفحة 1572 .
33) المفردات في غريب القرآن صفحة 16 .

بالمكان اروكا ، واصل الاروك الاقامة على رعي الاراك ثم تجوز به في غيره من الاقامات .

اخرج ابو عبيد عن الحسن قال : كنا لا ندري ما الآرائك حتى لقينا رجل من اهل اليمن فاخبرنا ان الاريكة عندهم الحجلة فيها السرير (34) .

7 ــ لفظة : « **معاذير** » في قوله جلت قدرته : « ولو القى معاذيره » الآية 15 من سورة القيامة . روى ابو عبيدة عن الضحاك « ان معاذيره ستوره بلغة اهل اليمن (35) » .

والملاحظ ان هذه المفردة وردت في مصحف الامام على وزن مفاعيل بمد العين ولم يقراها ، في علمي ، قارىء بغير ذلك ــ وحقها ان تكون على وزن مفاعل ليس الا ، ما دامت جمعا للاسم المفرد معذرة (36) . غير ان الامام محمود بن عمر الزمخشري بحث عن علة ذلك فقال (37) : « قلت المعاذير ليس بجمع معذرة انما هو اسم جمع لها ونحو المناكير في المنكر . »

يكاد المفسرون يتفقون على ان المعاذير معناها الستور كما ذكرت اعلاه ، ــ وان الستر يمنع عادة رؤية المتحجب وراءه كما تمنع المعذرة عقوبة المذنب ــ الا مجاهد فيقول في قوله تعالى : « ولو القى معاذيره » اي ولو جادل عنها .

8 ــ كلمة : « زوج بــ » في قوله عز من قائل : « كذلك وزوجناهم بحور عين » الآية 54 من سورة الدخان . وفي قوله تعالى : « متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين » الآية 20 من سورة الطور .

« اخرج ابن ابي حاتم عن عكرمة في قوله تعالى : (38) « وزوجناهم بحور عين » قال هي لغة يمانية وذلك ان اهل اليمن يقولون : « زوجنا فلانا بفلانة » . ولقد عثرت بمناسبة البحث عن تطور هذه الكلمة خلال تاريخها الطويل على الطف تأويل يمكن ان يجده باحث في هذا الباب . ذلك ان الراغب الاصفهاني حين علم ــ وهو العالم الخبير بما تقوله العرب وما تدع ــ ان ليس من قولهم : « تزوجت بامراة » اتى بتأويل ظريف لقول الله تبارك وتعالى « وزوجناهم بحور عين (39)» قال : « اي قرناهم بهن ، ولم يجيء في القرآن زوجناهم حورا كما يقال زوجته امراة تنبيها ان ذلك لا يكون على حسب المتعارف فيما بيننا من المناكحة » .

ولم يتفق المهتمون بلغة القرآن جميعهم على نسبة هذه اللهجة الى اهل اليمن ، ذلك ان الفراء يرى ان قولهم : « تزوجت بامراة (40) » لغة في ازد شنوءة .

وهنا يحق لقائل ان يقول: لماذا لم تدخلها والحالة هذه في لغة ازد شنوءة حين تعرضك لها (41) ابادر فاقول انني لم ار مبررا معقولا لما ذهب اليه الفراء ، ولذا لم آخذ برايه ، ذلك انني استنتجت من بحثي في لهجة ازد شنوءة ان ليس من خصائص لغتها ان تتميز عن اللهجات الاخرى بالحروف كما هو الشان في لغة تميم مثلا .

هذه من جهة ، ومن جهة اخرى لم استطع ان احدد بالضبط تحركات افراد قبيلة ازد شنوءة (42) وما اظن ان احدا بقادر على ذلك في الوقت الراهن ولذا فليس من المستبعد أن يكون هذا التركيب استعمل بين افراد من قبيلة ازد شنوءة على ارض اليمن او ان يكون تركيبا يمانيا وسع استعماله اهل

---

34) الاتقان في علوم القرآن صفحة 135 الجزء الاول.
35) المصدر السابق نفس الصفحة .
36) الصحاح الجزء الثاني صفحة 739 الذي لم يبين سبب ورود جمعها على معاذير بالياء كما سكت عن ذلك صاحب القاموس المحيط في مادة (عذر) .
37) الكشاف الجزء الرابع صفحة 165 .
38) الاتقان في علوم القرآن الجزء الاول صفحة 135
39) المفردات في غريب القرآن صفحة 216 .
40) الصحاح الجزء الاول صفحة 320 .
41) انظر دعوة الحق العدد التاسع والعاشر من السنة العاشرة ابتداء من صفحة 76 .
42) وان كنت اعرف انهم قليلوا الارتحال عن ارضهم بسبب تعاطيهم للحياكة التي كانت تتطلب منهم استقرارا في الارض ، ونظاما مضبوطا في العيش.

أزد شنوءة اثناء رحلاتهم هناك (43) . ذلك ان اليمن مساحة ارضية قد يعيش فوقها ويتداول عليها افراد من قبائل مختلفة بينما ازد شنوءة جماعة من الناس قد يوجدون فى نواح مختلفة من بينها ارض اليمن .

هذا اذا لم ننس الاشارة الى ان لفظة زوج لفظة موجودة فى جميع اللغات السامية تقريبا فهي مثلا بنفس الصيغة فى العبرية

זוג zug

ولامر ما لم اقل انها لفظة سامية بل ذكرت عنوة انها لفظة موجودة فى جميع اللغات السامية اعتقادا مني انها ليست منها اصلا . ذلك ان اللفظة الاغريقية

Ζεῦγος zevghos

تدل على شخصين متحدين بالزواج هي التي اعطت دون ريب هذه المفردة للغات السامية ولكنها عرفت ، اول ما عرفت فى اليمن ، لذا جعلناها منها .

9 — كلمة : « **نقبوا** » فى قوله تعالى : « وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم اشد بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص » الآية 31 من سورة ق « اخرج ابو بكر بن الاباري فى كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان فنقبوا هاموا بلغة اليمن . هذا على من قراها بقاف مفتوحة بالتشديد اما بكسر القاف مع التخفيف فأمر آخر اظنه بعيدا عما نحن فيه .

10 — لفظة : « **العرم** » فى قوله تعالى « فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتهم جنتين ذواتي اكل خمط واثل وشي من سدر قليل » الآية 16 من سورة سبا .

« اخرج سعيد بن ُمنصور فى سننه عن عمرو بن شرحبيل فى قوله تعالى : « سيل العرم » المسناة بلغة اليمن (44) غير ان كثيرا من المفسرين اعطوا لهذه المفردة تفسيرات كثيرة يمكن جمعها فى خمس تاويلات هي :

— العرم الجرذ الذي نقب على اتباع بلقيس السد الذي بنته لهم .
— العرم جمع عرمة وهي الحجارة المركومة .
— العرم المسناة وهي التي نذهب اليها وهي بلغة اهل اليمن .
— العرم اسم الوادي، وقديكون اسم الوادي الذي اقامت فيه بلقيس سدها .
— العرم المطر الشديد — ومن القراء من يقراها بسكون الراء .

اكادير : الراجي التهامي الهاشمي

---

43) حددت فى حلقة سابقة (دعوة الحق) لجمادى الاولى 1387 صفحة 76) الرقعة الارضية التي كانوا يعيشون فوقها ومن ضمن هذه الرقعة جزء من قبيلة اليمن .
44) الاتقان فى علوم القرآن صفحة 135 الجزء الاول.

الأربعون حديثاً

في الادب العربي والفارسي والتركي

للدكتور فيكتور الكك

« من حفظ على امتي اربعين حديثا من امر دينها بعثه الله في زمرة الفقهاء والعلماء

ان موضوع (الاربعون حديثا) لهو من اهم الموضوعات التي ينبغي ان يتنبه لها المشتغلون بالدراسات الاسلامية ، والمنصرفون الى دراسة الآداب العربية والفارسية والتركية والاسلامية بوجه عام ، في اصولها وتأثراتها وروافدها . فالاحاديث الاربعون تحتل مكانا بالغ الاهمية في الثقافة الدينية الاسلامية ، اذ انه لم يكتب لاي فن من فنون الادب الاسلامي ما كتب لهذا النوع من التاليفات في الاحاديث الاربعين من عميق الاثر الذي تركته في انفاذ تعاليم الاسلام الخلقية الى اذهان العامة ، فضلا عن الخاصة من جهة وفي الدفاع عن العقائد الروحية والاجتماعية والسياسية واشاعتها بين مختلف فئات المؤمنين من جهة اخرى .

منشا الفكرة :

اما فكرة (الاربعون حديثا) فقد نشأت في القرن الثاني للهجرة (الثامن للميلاد) تحت تأثير الحديث الضعيف : « من حفظ على امتي اربعين حديثا من امر دينها بعثه الله في زمرة الفقهاء والعلماء » ؛ فكانت سببا في تصنيف مآت الرسائل في الآداب الاسلامية ، باللغات العربية والفارسية ، والتركية ، مدة اثنى عشر قرنا ، وعاملا في ايجاد هذا الفن الادبي الديني المشترك بين آداب اللغات الثلاث . وثمة عامل آخر اثر في تطور هذا الموضوع ، وهو الاهمية التي تعطيها الاقوام السامية والآرية والطورانية التي عاشت في الرقعة العربية الاسلامية للعدد (اربعون) . وليس يخفى على اهل العلم ما جاء في القرآن الكريم من آيات ذكر فيها العدد اربعون ، نمثل لها بالآيتين التاليتين ؛ ففي سورة البقرة الاية الحادية والخمسون : « واذ واعدنا موسى اربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون » ؛ وفي سورة الاعراف الاية المائة والثانية والاربعون : «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة واتممناها بعشر فتم ميقات ربه اربعين ليلة » .

اما الاحاديث النبوية التي ذكر فيها العدد (اربعون) فليست بقليلة منها : «اقرا القرآن في اربعين» ؛ و : « بعث رسول الله لاربعين سنة » ؛ و : « نتف الابط كل اربعين يوما مرة » ؛ و : « من احتكر طعاما اربعين ليلة فقد برىء » .

وقد اثرت عوامل اخرى في جمع (الاربعون حديثا) وتصنيفها نذكر منها ، العوامل المادية والمعنوية التالية:

الرغبة في نيل شفاعة الرسول (ص)، والنجاة من نار جهنم ؛ والرغبة في الدعاء الصالح والذكر الجميل ، وملء الوقت الذي يمضي دون فائدة ، والرغبة في خدمة المسلمين ، واظهار المقدرة في علم الحديث والادب ، ثم اتباع السلف ، وتحقيق رغبة الاصدقاء والتلامذة والاستشهاد في اثناء تقرير الدروس ، ونصرة مذهب او طريقة ما ، والتمكن من تفصيل الآراء في مسالة من مسائل العصر ... ويأتي اخيرا التحبب الى الخاصة ،

واثارة الاعجاب، والحصول على جائزة، والتوصل الى اكرام او انعام ...

جمـــع الاربعـــون :

ولقد جمعت هذه الاحاديث وشرحت، واتخذت فى بادىء الامر صورة كراسة او رسالة فى الحديث،قبل ان تصبح ضربا من ضروب الادب وانواعه .

ثم اخذت تكتسب مع الزمن وخاصة فى الفارسية والتركية مظهرا ادبيا،فشرعت تمازج فترة بعض النظم، ثم تطورت الى انماط منظومة فى الفارسية والتركية .

بدا موضوع (الاربعون حديثا) بعبد الله بن المبارك (القرن الثاني للهجرة ـ الثامن للميلاد) . ولم يمض زمن طويل حتى استاثر باهتمام الناس، وظل يتطور ويتكامل خلال العصور حتى بلغ الذروة فى القرن السابع للهجرة ـ الثالث عشر للميلاد . والاربعون حديثا التي جمعها محيي الدين النووي آخر المجتهدين فى ذلك العصر تعد اكبر رسالة فى هذا الموضوع، بالنسبة لقيمتهـــا ورواجها وكثرة الشروح التي تناولتها حتـى ايامنا الحاضرة . فثمة خمسون شرحا لهذا الكتاب باللغـــة العربية اكثرها لمشاهير العلماء، وهناك مائتان واثنتان وخمسون رسالة فى (الاربعين حديثا) وضعها مائتـــان وثمانية عشر مصنفا ! وهذان العددان اللذان نجزم انهما دون العددين الحقيقيين يكفيان وحدهما لابراز القيمة الكبرى التي اوليت لهذا الموضوع فى اللغة العربية . ثم ان وجـود علمـاء كبار من مثـل ابي بكـر الاجـري، والدارقطني وابن القاسم القشيري، وابن ودعان، وابن عساكر، وابي طاهر السلفي، ومحيي الدين بن العربي، وسعد الدين التفتازني، وابن حجر العسقلاني، وابن حجر الهيثمي وجلال الدين السيوطي، وعلي القارىء، وغيرهم، بين هؤلاء المصنفين، يبين بيانا واضحا هذه القيمة الكبرى التي اعطاها العالم الاسلامي ايضا لهـذا النوع من الادب الديني . وقد اتخذت هـذه المؤلفـات بفضل التفاعل الفكري بين العقلية العربية والفارسيـة والتركية صبغة دينية تعليمية ادبية صرفا منذ نشأتها .

ولا بأس فى هذا العدد بايراد قول النووي لايضاح هذه الفكرة وبيانها قال : ثم من العلماء من جمع الاربعين فى اصول الدين، وبعضهم فى الفروع، وبعضهم فى الجهاد، وبعضهم فى الزهد، وبعضهم فى الآداب، وبعضهـم في الخطـــب .

وجاء فى « كشف الظنون » : وقد صنف العلماء فى هذا الباب ما لا يحصـى من المصنفـات، واختلفـت مقاصدهم فى تأليفها وجمعها وترتيبها، فمنهم من اعتمد على ذكر احاديث التوحيد واثبات الصفات، ومنهم من قصد ذكر احاديث الاحكام، ومنهم من اقتصر على ما يتعلق بالعبادات، ومنهم من اختار احاديث المواعـظ، ومنهم من قصد اخراج ما صح سنده وسلم من الطعن، ومنهم من قصد ما علا اسناده، ومنهم من احب تخريج ما طال متنه وظهر لسامعه حتى يسمعه حسنـه، الى غير ذلك، ويسمى كل واحد منهم كتابه بكتاب الاربعين.

الاربعون فى اللغة الفارسية :

وقد ظهرت مصنفـات (الاربعـون حديثـا) اي «جهل حديث»فى اللغة الفارسية، بميزتيها الاساسيتين فى وقت واحد : اعني الطابع الديني، والطابع الادبـي، كما راج تاليف الرسائل التي تجمع الاحاديث فى مناقب الامام علي وامامته . ونتج عن ذلك كله انواع راقية من « جهل حديث » (الاربعون حديثا) على ايدي احمـد رومي، وايجي وغيرهما الى ان بلغ حد الكمال فى القرن التاسع الهجري على يد الصوفي الشاعر الكبير عبد الرحمن جامي، فى ميدان الترجمة المنظومـة « اربعيـن جاوي ترجمة اربعين حديث» . ومن الامثلة على ترجمة جامي قوله فى هذا الحديث : « لا يؤمن احدكـم حتـى يحب لاخيه ما يحب لنفسه » ما يلي بالفارسية :

هركسـي را لقب مكن مؤمن
برجه از معي جان وتن كاهد ؛
تا نخواهـــد براذر خود را
آنجه از بهر خويشتن خواهد .

وكان القرن السادس عشر للميلاد، فألف الكاتب الفارسي المشهور حسين واعظ كاشفي «الرسالة العلية فى الاحاديث النبوية »، فجاءت اجمل مثـال وارقـاه لرسائل « جهل حديث » التي تمزج بين النظم والنثر .

وقد داب كثيرون من ادباء الفرس على ترجمـة رسائل اصحاب (الاربعون حديثا) المشهورة باللغـة العربية، مثل « اربعون » النووي وبهاء الدين العاملي . وبهذا الصدد يقرر الدكتور عبد القادر قرة خان : وعلى هذا فاننا نعرف ستة واربعين شارحا ومترجما لرسائل « جهل حديث »، اربعة عشر منهم مجهولون، ومع ذلك فنحن نجزم ان كثيرا من الرسائل قد بقيت هنا وهناك مجهولة لا نعرفها .

الاربعون فى اللغة التركية :

يقول الدكتور قره خان فى كتابه باللغة التركيـــة (قرن حديث) : ان الاتراك هم الذين اهتموا اكثـر من غيرهم بالناحية الادبية فى ترجمات (الاربعون حديثـا) وشروحها وهم الذين انتجوا اكثر الامثلـة المنظومـة فى ذلك . فالكتاب العثمانيون وعلى الاخص طبقة العلمـاء منهم وجهوا عناية خاصة الى مصنفات (الاربعون حديثا) ذات الطابع الديني والتدريسي . وخير مثال على ذلك رسائل جمال الدين الاقسرايـي ، وابن كمـال باشـا ، ولطفي باشا، وطاش كوبري زاده ، والبركوي وغيرهم . وقد وضع بعض الكتاب الاتراك مثل ادريس التبليسـي وبروسه لي فردوسي ، واوزبك ولي الدين ، وسواهـم رسائل باللغة الفارسية فى هذا الموضوع ولكن لم يصل مؤلف من هذه المؤلفات من حيث القيمة الادبية التعليمية الى درجة ترجمان (الاربعون حديثا) وشروحها التـي كتبها الاتراك فى لغاتهم الاصلية ، ولم يرتفع ، الى طبقة آثار الصنـف الاول فى هـذا الميـدان بنسبة ارتفـاع المؤلفات الموضوعية باللغة التركية .

وقد ظهرت ترجمات (الاربعون حديثا) وشروحها فى الادب التركي منذ القرن الرابع عشر للميلاد، واعتبرت نوعا ادبيا دينيا شائقا فى القرن الخامس عشر والسـادس عشر والسـابع عشـر والنصف الاول من القرن الثامـن عشر ، كما اعتبر كل شاعر تركي كبير فى عصره ترتيب اربعين حديثا ضربا من اللذة والواجـب ، او ضـرورة يستدعيها العرف الشائع فى العصر الذي يعيش فيه . وعليه خلف الشعراء الاتراك الكبار مثل نوائي ، وفضولي، وخاقني ، ونابـي ، وثابـت ، ومنيـف ، مصنفـات فى (الاربعون حديثا) ، ناهيك عما تركه غيرهـم فى هـذا الموضوع من الكبار ايضا مثل حزيني ، واصولي ، ونوعي، وعاشق جلبي ، وعالي ، ورحلتي فى القـرن السـادس عشر ، وامثال كفه لي فيض ، وابن طاش كوبري زاده ، واوقجي زاده محمد ، وانقره لي اسماعيل ياسوخي ، فى القرن السابع عشر ، وامثال اسحاق خواجـه سـي احمد وبروسه لي اسماعيـل حقـي ، ومستقيم زاده محمد الدين ، فى القرن الثامن عشر وغيرهم وغيرهم .

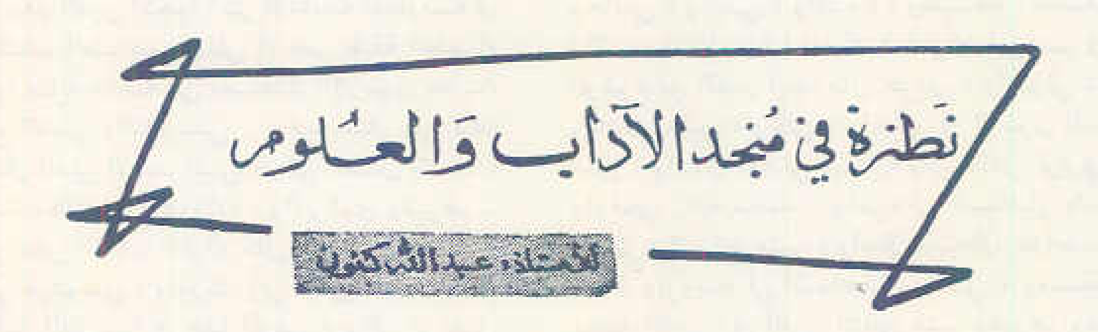
واستمرت هذه الحركة الى قرننا هذا، ووضعت فى الموضوع المذكور مؤلفات حرية بالاعتبار ، طبعـت وشاعت بين الناس .

هذا غيض من فيض موضوع (الاربعون حديثا) البالغ الاهمية ، وقد استمـر قرونا طويلـة واهتـدت بتعاليمه اجيال كثيرة — وانما العلم نور وهدى .

بيروت : الجامعة اللبنانية : الدكتور فيكتور الكك

صـلاة عروضيـة

نظر الحماز الشاعر الى رجـل يخفف الصلاة ! فقال : لو رآك العجاج لهزج بك . قال : كيف ؟ قال : لان صلاتك ارجوزة .



- 22 -

حرف الهاء :

620) فى ص 547 ، ع ل ترجمة للخليفة العباسي موسى الهادي ، قال فيها : ولى ابنه جعفرا على الرشيد فى وراثة العهد ، يعني خلع اخاه هرون الرشيد من ولاية العهد التي جعلها له أبوهما المهدي ، وجعلها هو لابنه جعفر ، ولكن كلامه لا يؤدي هذا المعنى . ثم قال : فقتل بعد سنة من ملكه .. بسعاية الخيزرانة ام الرشيد التي كانت تطمع بالملك لنفسها. وهذا ايضا كلام غامض وموهم ويحتاج الى تصحيح ، فان الخيزران هي ام للهادي والرشيد معا خلاف ما يوهمه كلامه من انها ام للرشيد فقط ، ثم هي الخيزران لا الخيزرانة . ولما خلع الهادي اخاه لم ترض الخيزران بذلك ونهته فلم ينته واستطال عليها فأوعزت الى جواريه بقتله فقتلته خنقا وتولى الرشيد الخلافة، وبذلك يعلم ما فى قوله انها كانت تطمع بالملك لنفسها من التزيد .

621) فى ص 550 ، ع ل كلمة عن ناحية الهبط من بلاد المغرب ، قال فيها : بلدة فى المغرب فى مقاطعة القصر الصغير شمالي مراكش ، ولا تعرف بلدة في المغرب بهذا الاسم ، فلو قال ناحية فى المغرب الشمالي ينسب اليها كثير من اهل العلم لكان أقرب الى الصواب .

622) فى نفس العمود بعنوان الهجرة الاولى قال: (هي هجرة النبي مع الانصار من مكة ... الى بلاد الحبشة) ، والهجرة الاولى لم يكن فيها النبي (ص) ولم يذهب الى الحبشة قط لا فى الهجرة ولا فى غيرها. ثم قال : (والهجرة الثانية هي هجرة النبي الى يثرب ... وقد هاجر معه الانصار والمهاجرون) . والانصار هنا لا محل لها ، اذ الانصار فى عرف الاسلام والسيرة النبوية هم اهل المدينة الذين نصروا النبي (ص) وهاجر اليهم ، فلا معنى لكونهم هاجروا معه الى مدينتهم التي هي يثرب . وكذلك ذكره للانصار في الهجرة الاولى غير صواب ، فالذين هاجروا الى الحبشة كانوا من مسلمي مكة قريش وغيرهم ، الا ان يحمل على النصرة العامة .

623) فى ص 551 ، ع ل كلمة هرم بن سنان الجواد العربي المشهور ضبط اسمه فيها بفتح الراء ، وهو بكسرها ، ولعله لما وقع فى سياق ذكر الهرم واجه الاهرام ضبط فى الطبع بالفتح خطأ .

624) فى ص 552 ، ع ل ترجمة لابن الهذيل العلاف المشهور من ائمة المعتزلة ، جعله فيها بالزاى بدل الذال المعجمة وهو خطأ .

625) فى ع ن من الصفحة نفسها ترجمة لابراهيم بن هلال الفقيه المغربي المعروف ، وصفه بالفلالي وهو الفيلالي بالفاء منسوبا الى اقليم تافيلالت

626) فى ص 553 ، ع ن ذكر سورة الهمزة وضبطها بفتح الهاء وسكون الميم على اسم الحرف

المعلوم ، وهي بضم ففتح فعلة من الهمز بمعنى الطعن كاللمزة المذكورة بعدها في أول السورة (ويل لكل همزة لمـــزة) .

627) وفى نفس العمود ترجمة للكمال ابن الهمام ضبط اسمه فيها بفتح الهاء وتشديد الميم ، هو بضم الهاء وتخفيف الميم على وزن غلام .

628) فى ص 556 ، ع ل تعريف بالشيخ سعيد الحنصالي سماه فيه الهنسلي ، وسمى طريقته تبعا لذكره الهنسلية ، وذلك من خطأ الترجمة عن الفرنسية التي لا يوجد بها حرف الحاء ولا حرف الصاد ، وهذا زيادة على ما فى تلك الترجمة من التحريف .

629) فى ع ى من هذه الصفحة تعريف بقبيلة هوارة المغربية ، ضبط اسمها فيه بضم الهاء وهو بفتحها ، والتعريف مع ذلك غير مستوف ، فلينظر ما كتبه عنها الشيخ مرتضى الزبيدي فى تاج العروس .

630) فى ص 559 ، ع ل بعنوان هيبـــون قال : (مدينة فى الجزائر تسمى فى يومنا بونه) ، والواقع ان بونه هو اسمها القديم ، والفرنسيون كانوا يسمونهـا ايام الاحتلال بون . اما اسمها العربي فلا هذا ولا ذاك وانما هو عنابة او مدينة العناب لكثرته فيها .

631) فى ع ى من الصفحة نفسها ترجمة للحافظ نور الدين الهيثمي صاحب مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، قال فى كتابه هذا : (جمع فيه زوائد الكتب الستة) ، وكلامه يوهم انها الكتب الستة المعروفة ، ويبقى بيان هذه الزوائد وعلى ماذا زيدت ؟ مع ان المراد بالكتب الستة مسندا لامام احمد ، والمعاجـــم الثلاثة للطبراني ، ومسند البزار ، ومسند ابي يعلى ، وبالزوائد الاحاديث التي جاءت فيها زائدة على ما في الكتب الستة المعروفة الى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابي داود وابي ماجة .. فكيف يفهم هذا المعنى من اطلاقه القول بانه جمع فى كتابه المشار اليه زوائد الكتب الستة ؟ .

طنجة : عبد الله كنون

تقويم اللسان مستقيم

للدكتور تقي الدين الهلالي

(6)

30 — قولهم : تنبأ بكذا وكذا

يريدون انه علم بصدق الفراسة وقوة الحدس ما سيكون فى المستقبل كما قال الشاعر :

الالمعي الذي يظن بك الظـــــن
كأن قد رأى وقـــد سمعـــــا

وفى الخبر : اتقوا فراسة المؤمن ، فانه ينظـر بنور الله ، رواه البخاري فى التاريخ والترمذي عن ابي سعيد . وبعضهم يقول : تكهن بكذا وكذا ، وهذا شيء لا يمكن التكهن به ، وسنرى معنى تنبأ الحقيقي .

قال فى اللسان : قال سيبويه : ليس أحد مـن العرب الا ويقول : تنبأ مسيلمة ، بالهمز ، غير أنهم تركوا الهمز فى النبي كما تركوه فى الذرية والبريـــة والخابية . ثم قال : ويقال :تنبى الكذاب اذا ادعـــى النبوة ، وتنبى كما تنبى مسيلمة الكذاب وغيـره من الدجالين المتنبين . ثم قال : وتنبأ الرجل : ادعـــى النبوة . اه .

وقال شاعر اندلسي فى ابي الطيب احمد بـن الحسين المتنبي يخاطب احد امـــراء الاندلـس حين رآه ينشد شعر المتنبـــي :

تنبأ عجبا بالقريض ولـــو درى
بانك تروي شعـــره لتالهـــا

وقد عرفت أن معنى (تنبأ) ادعى النبوة ، وهي الانباء عن الله تعالى . وقصص المتنبئين مذكـورة فى العقد الفريد وغيره من كتب الادب ، والمتنبؤون هـم الذين ادعوا النبوة . واستعمال تنبأ بمعنى أخبر بشيء يقع فى المستقبل استعمال استعماري ، من استعباد اللغات الاوربية للغة العربية ، فان جهال المترجمـين يترجمون الفعل الانكليزي (Propfesy) بقولهـم : تنبأ وانبأ ، ويترجمون (Prophecy) بالنبوة يريدون بذلك الاخبار بالشيء قبل وقوعه ، والصواب ان يقال: توقع وتفرس ، وحدس انه يقع كذا وكذا .

وقال فى معجم اوكسفورد فى معنى (بروفيساي) Prophesy يتكلم كنبي . وقال فى معنى (بروفيت Prophet) هو الموحى اليه المخبر عن الله ، فظهر لك أن الاوربيين يستعملون (تنبأ) بمعنى يتكلم كما يتكلم النبي ، والنبي كثيرا ما يخبر بالمغيبات ، فهذا الاستعمال فى لغتهم سائغ . وقد توهم المترجمون أن كل ما ساغ فى لغتهم يسوغ فى لغتنا ، خصوصا ولغتهم لغة القوى القاهر ، ولغتنا لغة الضعيف المغلوب على أمره.

ومعنى (بروفيت) فى اللغة الانكليزية لا يختلف عن معناه فى اللغة العربية ، فهو الموحى اليه المخبر عن الله تعالى ، وحق لغتنا علينا ان ننظفها من كـل استعمال دخيل ، محافظين على جمالها ونضارتهـا وبهجتها . ويقال فى الكلام الفصيح : صدق حدسه ، وتحقق ظنه ، والمخطئون يقولون : صدقت نبوته .

31 — ينبغي عليـه

ومن الاخطاء الشائعة فى هذا الزمان فى الاذاعات والصحف قولهم : ينبغي عليه ان يفعل كذا وكــذا ،

فيعدون ينبغي بعلى ، وهذا دليل اهمال اللغة ، وطرح العناية بها جانبا ، وذلك شأن الامم المخذولة المنحطة، السائرة الى الاضمحلال . وقد رأينا أسلافنا كيف اعتنوا بلغة القرآن ، وخدموها احسن خدمة ، فضبطوا مخارج حروفها وصفاتها ، وتجويد النطق بها ، وحققوا معاني كلماتها ، وتركيب جملها ، وجودة اسلوبها وبلاغتها ، وتركوها لنا في غاية الكمال والجمال ، فلم تكن خير خلف لخير سلف .

ومن المعلوم أن القرآن هو أول كتاب ينطق بلغة العرب الخالصة ، ولا يستطيع احد معرفة اللغة العربية وفصاحتها وبلاغتها ، واسرارها الا بدراسة القرآن ، واتخاذه اماما ومنارا يهتدى به في علومها ، هذا بالنسبة الى غير المسلمين الذين لا يهمهم من القرآن الا ما فيه من فصاحة وبلاغة ، وانه حجة في اللغة العربية، فكيف بالمسلمين الذين يجب عليهم — ان كانوا مسلمين حقا — ان يتخذوا القرآن اماما وسراجا منيرا، يتبعونه ويهتدون به في دينهم ، يحلون حلاله ، ويحرمون حرامه ، ويتخذونه حكما ، فيه شريعتهم ، ومنهاج اخلاقهم ، وهدايتهم ، وشفاء صدورهم وروح ارواحهم كما قال تعالى في سورة الكهف (1 — 3 الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا حسنا. ماكثين فيه أبدا .)

قال ابن كثير : قد تقدم في أول التفسير انه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الامور وخواتمها ، فانه المحمود على كل حال ، وله الحمد في الاولى والآخرة ، ولهذا حمد نفسه على انزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فانه اعظم نعمة انعمها على اهل الارض ، اذ اخرجهم به من الظلمات الى النور ، حيث جعله كتابا مستقيما لا اعوجاج فيه ، ولا زيغ ، بل يهدي الى صراط مستقيم ، واضحا بينا جليا ، نذيرا للكافرين ، بشيرا للمؤمنين .

ولهذا قال (ولم يجعل له عوجا) أي لم يجعل فيه اعوجاجا ، ولا زيغا ولا ميلا ، بل جعله معتدلا مستقيما ، ولهذا قال (قيما) اي مستقيما (لينذر بأسا شديدا من لدنه) اي لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به ، ينذر بأسا شديدا ، عقوبة عاجلة في الدنيا ، وآجلة في الاخرى (من لدنه) اي من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد (ويبشر المؤمنين) اي بهذا القرآن الذين صدقوا ايمانهم بالعمل الصالح (أن لهم اجرا حسنا) اي مثوبة عند الله جميلة (ماكثين فيه) في ثوابهم عند الله ، وهو الجنة خالدين فيه أبدا دائما ، لا زوال له ولا انقضاء . اهـ .

قوله : (وهو الجنة) الذي اراه ان الاجر الحسن الذي يمكث فيه المؤمن ابدا لا يختص بنعيم الجنة ، بل ينتظم سعادة الدنيا والآخرة ، لان الله وعد بذلك في غير ما آية من كتابه العزيز لقوله تعالى في سورة النحل (97 من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وحكمة الله تعالى وعدله يقتضيان ثواب الدارين لكل امة صالحة ، وعقاب الدارين لكل امة فاسقة ، وادلة هذا في القرآن كثيرة .

فسبب ما يقاسيه المسلمون في هذا الزمن من الشقاء هو اهمال القرآن ، وجعله وراء ظهورهم . والخطأ الذي نحن الآن بصدد اصلاحه لا يقع ويشيع الا في امة اهملت القرآن ، لان هذا الفعل تكرر استعماله في القرآن ، فجاء في ستة مواضع أحدها قوله تعالى في سورة الفرقان (17 — 18 ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول : أأنتم اضللتم عبادي هؤلاء ام هم ضلوا السبيل . قالوا : سبحانك ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا) .

معنى هاتين الآيتين ان الله تعالى يسأل المشركين يوم القيامة الذين كانوا يعبدون الملائكة والانبياء والصالحين ، كعيسى وأمه ، وسائر من عبد من الصالحين ، فيقول لهم : أأنتم امرتم هؤلاء ان يعبدوكم ، فيتبرؤن منهم منزهين الله تعالى عن الشريك قائلين : سبحانك ، ما كان ينبغي لنا ان نتخذ من دونك من اولياء ، اي لا يليق بنا ان نتخذ المشركين أولياء ، او نرضى بعملهم ، ولكن متعتهم وآباءهم بالنعم ، ولم تعجل لهم العذاب ، فتركوا كتابك ، واتبعوا اهواءهم ، وكانوا في علمك هالكين ، فحق عليهم العذاب .

ففعل (ينبغي) لا ينبغي أن يتعدى بعلى ، وانما ينبغي أن يتعدى باللام .

32 — منع انباء وآراء وما اشبههما من الصرف

كل من يستمع الى الاذاعات يعلم أن بعض المذيعين يمنعون صرف كل جمع من جموع التكسير جاء على افعال ، كانباء وآراء ، وأحزاب ، والذي ورطهم

فى ذلك انهم راوا (اشياء) جمع شيء ممنوعة من الصرف فقاسوا عليها ما يشابهها فى اللفظ لجهلهم . وقد اتفق النحاة على منع صرف (أشياء) ، واختلفوا فى تعليله اختلافا كثيرا ، لو ذكرته هنا لشوش على كثير من القراء ، وآيأسهم من فهم المقصود ، فأقتصر على ذكر القول الراجح ، وهو قول الخليل وسيبويه .

قال صاحب اللسان : واشياء : لفعاء عند الخليل وسيبويه . اه . وبيان ذلك ان لام الكلمة تقدمت على فائها وعينها فصارت (لفع) اتصلت بها الف التأنيث الممدودة ، فصارت (لفعاء) وهو وزن أشياء ، باعتبار الهمزة الاولى آخر الكلمة فى الاصل تقدم على أولها وثانيها ، فلم يبق الا المد والهمزة ، وذلك ما يسمى بألف التأنيث الممدودة كما فى اصدقاء واغنياء وغيرهما من الجموع، وكما فى خضراء وحمراء وصحراء وغيرهن من الاسماء المفردة .

والذي حملهم على هذا التأويل انها جاءت ممنوعة من الصرف فى القرآن ، قال تعالى فى سورة المائدة (101 يا ايها الذين آمنوا لا تسالوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم)

وقال ابن حمدون على الازهري : اشياء ، جمع شيء ، واصله : شياء ، فكرهوا اجتماع همزتين بينهما حاجز غير حصين ، وهو الالف فقدموا الهمزة الاولى لام الكلمة على الفاء والعين ، فصار اشياء ، فهو ممنوع من الصرف لالف التأنيث الممدودة . اه .

اقول : علة منعه من الصرف غير معلومة يقينا ، وتعليلات النحويين حدس وتخيل قل ما يثبت امام النقد، والمقصود بها ترسيخ القواعد فى ذهن الطالب . اما انباء وآراء وما اشبههما فلا معنى لمنعها من الصرف ، وقد اصبح الانشاء عند المتكلمين باللغة العربية لا يستفاد من المدرسة وقراءة كلام البلغاء ، وحفظ اشعارهم ، وانما يؤخذ من الاذاعات والصحف ، وذلك دليل على ان علم العرب اليوم بلغتهم ضحل ، وذلك دليل على التخلف ، وهم يرون الشعوب المتقدمة كبريطانيا وجرمانية وفرنسا تبذل الجهود والاموال فى رفع مستوى لغاتها ونشرها فى الدنيا كلها ، فاين التقدم الذي يتبجح به بعضهم ؟ .

33 ــ التعبير عن افتتاح المدرسة ونحوها بالتدشين

يقولون : دشن المدرسة ، او المصرف ، يعنون افتتحها باحتفال ، وهذا الفعل لم اجده فى شيء من معاجم اللغة التي عندي الا فى المنجد ، ولا عبرة به ، لانه يخلط الدخيل بالاصيل ، وفى القاموس دشن : اعطى ، وتدشن اخذ ، وداشان : بلد ، والداشن معرب الدشن ، يعنون به الثوب الجديد لم يلبس ، والدار الجديدة لم تسكن . اه .

وفى اللسان : داشن معرب من الدشن ، وهوكلام عراقي ، وليس من كلام اهل البادية ، كأنهم يعنون به الثوب الجديد الذي لم يلبس ، او الدار الجديدة التي لم تسكن ولا استعملت . اه .

وقول صاحب اللسان : كلام عراقي ، وليس من كلام أهل البادية ، يؤيده ما قراته فى معجم لعالم عراقي موصلي نسيت اسمه الآن ، ضمنه الكلمات السريانية التي دخلت فى اللغة العراقية ، فذكر منها (دشن) الدار الجديدة ، اي سكنها لاول مرة . ومن سوء الحظ انه ليس عندي فى هذا الوقت معجم سرياني ، ولو كان عندي ما قدرت أن استفيد منه لضعف بصري ، وعدم وجود من يعرف اللغة السريانية هنا .

وكيفما كان الامر فاستعمال الفعل (دشن) وما يشاركه فى الاشتقاق بمعنى افتتاح المعرض او المدرسة ليس من كلام العرب، ولا حاجة اليه، والذوق السليم يكرهه .

34 ــ جمع النية على نوايا

ومما يحزن ويسوء كل من له غيرة على لغة القرآن ان اكثر الخطباء والكتاب يجمعون (النية) على (نوايا) وذلك دليل على افلاسهم وجهلهم بقواعد اللغة العربية ، لان النية فعلة بكسر فسكون ــ وعينها واو بدليل نوى ينوي ، فأصلها (نوية) حكمت عليها القاعدة الصرفية الشهيرة بقلب الواو ياء وادغامها فى مثلها .

والقاعدة هي قولهم : اجتمعت الياء والواو ، وسبقت احداهما بالسكون ، فقلبت الواو ياء وأدغمت فى الياء ، وقد شبه علماء الصرف هذين الحرفين عند اجتماعهما وسبق احدهما بالسكون بالحجر والصحفة من الخزف ، او الصيني والحجر ، فالصحفة هي الواو، والحجر هو الياء ، فمتى وقعت الصحفة على الحجر ، وهي الواو الساكنة انكسرت الصحفة ، كما فى نية ، ومتى وقع الحجر على الصحفة ، اي سبقت الياء الواو ، وهى ساكنة انكسرت الصحفة، وهى الواو ، فالانكسار خاص بالواو ، سواء تقدمت ام تأخرت .

ومثال تقدم الياء على الواو (سيد) فان اصله (سيود) بدليل الفعل : يسود ، حكمت عليه القاعدة المذكورة بابدال الواو ياء وادغام الياء فيها . وفعلة بكسر فسكون ، كحكمة ، وقربة ، وهي السقاء ، انما تجمع جمع تصحيح على فعلات كما في الحديث المتفق عليه (انما الاعمال بالنيات) وتجمع جمع تكسير على فعل — بكسر ففتح — كحكمة وحكم ، وقربة وقرب ، وشيمة وشيم ، وذلك كثير ، ولا تجمع البتة على فعائل ، لانها لفظ ثلاثي ، والذي يجمع على فعائل هي الكلمات الرباعية ، كبرية وبرايا ، وضحية وضحايا ، وفضيلة وفضائل .

وقد جمعت النية على (ني) بكسر النون وتشديد الياء ، كسدرة وسدر ، وهو نادر ، قال النابغة الجعدي :

انك انت المحزون في اثر الـــ
ــحي فــان تنــو نيهــم تقــم

قال صاحب اللسان : قيل في تفسيره : ني جمع نية ، وهذا نادر . قال ابن الاعرابي : قلت للمفضل : ما تقول في هذا البيت ؟ قال : فيه معنيان : احدهما يقول : قد نووا فراقك ، فان تنو كما نووا تقم فلا تطلبهم . والثاني قد نووا السفر ، فان تنو كما نووا تقم صدور الابل في طلبهم انتهى .

اقول : والمعنى الاول هو الظاهر ، وهذا البيت من بحر المنسرح .

35 — هذا العمل له ما يبرره

ومن اخطائهم قولهم : لهذا العمل ما يبرره ، وكأنهم يريدون بالتبرير أن يجعل من البر وهوالاحسان. وقد بحثت فلم اجد في لسان العرب، وهو اكبر معجم عند العرب اليوم ، برر على وزن فعل ، كعلم ، وانما وجدت بر وابر ، وهذا من اخطاء المترجمين للفظ الانكليزي Jastify والصواب أن يقال : لهذا العمل ما يسوغه، اي يجعله سائغا ، فلا يعاقب فاعله ولا يلام .

36 — قولهم : يعشق الصحافة ويعشق العلم

قال في القاموس : العشق والمعشق كمقعد ، عجب المحب بمحبوبه ، أو افراط الحب ، ويكون في عفاف وفي دعارة ، أو عمى الحس عن ادراك عيوبه ، او مرض وسواسي يجلبه الى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور . اهـ .

قال الحافظ ابن الجوزي في كتابه تلبيس ابليس في اثناء انتقاده على بعض الصوفية استعمالهم لفظ العشق في حب الله تعالى قال : لا يعشق الا ما ينكح . وكلام صاحب القاموس يؤيده ، فان قوله : يكون في عفاف وفي دعارة ، يدل على أن العشق لا يستعمل استعمالا صحيحا الا في حب يتعلق بمن تمكن مباشرته، والشخص الذي تمكن مباشرته ، وهو المعشوق ، يكون ممتنع الوصول ، فيزيد ذلك الامتناع في اذكاء نار العشق في قلب العاشق ، فان كان تقيا عفيفا صبر وامتنع عن طلب الوصال ، ايثارا لما يبقى على ما يفنى ، أو تجنبا للعار ، وان كان غير عفيف اندفع في طلب الوصال بدون مبالاة ، وهذا هو الذي عبر عنه اللغويون بالدعارة . وكلتا الحالين لا تتفق الا مع المعشوق الذي تمكن مباشرته .

اما الصحافة والعلم والمعرفة والرياضة وما اشبه ذلك ، فالصواب أن يعبر فيها بالحب ، وكذلك حب الله سبحانه وتعالى ، وحب رسوله والمؤمنين ، لا ينبغي ان يعبر عنه بالعشق . ويدل على ذلك ايضا قول صاحب القاموس (او مرض وسواسي يجلبه الى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصور) فان من احب الله ورسوله والعلم واهله لا يجلب لنفسه مرضا وسواسيا ابدا ، بل يزداد عقله قوة وصحة .

وكذلك القول بأن العشق عمى الحس عن ادراك عيوب المعشوق ، لا يتناسب الا مع من تمكن مباشرته. ويروى حديث في العشق ذكره داود الانطاكي في كتابه (تزيين الاسواق بتفصيل أشواق العشاق) ص 6 هذا نصه :

عن ابن عباس عن النبي (ص) قال : من عشق فعف ، فمات دخل الجنة . زاد الخطيب عنه : فظفر ، ثم ابدل قوله : (دخل الجنة) بقوله (مات شهيدا) ، وفي أخرى (فكتم) . والحديث بسائر ما ذكر صححه مغلطاي ، واعله البيهقي والجرجاني والحاكم في التاريخ بضعف سويد وتفرده به . ورواه ابن الجوزي مرفوعا وابو محمد بن الحسين موقوفا ، واخرج الخطيب عن عائشة رفعه ايضا .

وحاصل الامر اما صحته أو حسنه . والجواب عن تفرد سويد المنع بوروده عن غيره وحكايته تحديثا وكونه قبل عماه ، فلا تدليس . اهـ .

والعجب من هذا الرجل الذي قضى عمره في علم الطب والفلسفة كيف تكلم على هذا الحديث كأنه من علماء الحديث ، ولا غرابة في ذلك ، فان المسلمين في زمان عزهم وارتقائهم كانت لهم ثقافة جامعة عالية لا تشبهها اي ثقافة من ثقافات العصر الحاضر . واذا أردت ان تزداد علما بذلك فعليك بمطالعة كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء ، لابن ابي اصيبعة ، فانك ترى اولئك الاطباء الذين ترجم لهم متبحرين متفننين في علوم كثيرة ، اذا رايت اطلاعهم في كل علم منها تقول: انهم لا يحسنون غيره ، وهذه مزية خاصة بعلماء الاسلام .

اما المثقفون في هذا العصر ، فاغلبهم لا يحسن من العلوم الا ما اختص به ، ومن عجائب ما رايت في ذلك اني كنت اتحدث في مستشفى العيون التابع لجامعة بون بالمانيا مع رئيس المستشفى ، وهو احد العلماء العشرة الذين يتألف منهم مجلس الجامعة الاعلى ، وهو الدكتور البروفيسور (شميت Schmit) وكان ذلك سنة 1954 فوجدته يعتقد وجود الدولة العثمانية واستمرار سلاطينها ، مع انه بلغ الغاية في علم الطب، حتى انه يدعى من الولايات المتحدة ليسافر الى هناك لاجراء الاعمال الجراحية والقاء المحاضرات ، وقد بلغ جهله بالتاريخ الى ما رايت .

وهذا الحديث ايضا يدل على ان العشق لا يكون الا لمن تمكن مباشرته . ثم راجعت الجامع الصغير فوجدته ذكر حديثين في هذا الباب ، احدهما عن عائشة ، ونصه : من عشق فعف ، ثم مات ، مات شهيدا . رواه الخطيب ، وأشار اليه السيوطي بعلامة الضعف .

والثاني : عن ابن عباس : من عشق فكتم وعف فمات ، فهو شهيد . رواه الخطيب ، واشار اليه السيوطي بعلامة الضعف ايضا .

وان صدق الانطاكي في نقله صحة الحديث عن الامام الحافظ علاء الدين مغلطاي ، فانه حجة في علم الحديث . ويؤيد ما ذكرناه ان حب الله ذكر في القرآن في مواضع عديدة ، ولم يعبر عنه بالعشق . وحب الرسول صلى الله عليه وسلم جاء في الحديث .

اخرج البخاري من حديث انس بن مالك ان النبي (ص) قال : لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من والده وولده والناس اجمعين .

والاحاديث التي جاء فيها حب الله ورسوله ، وحب المؤمنين بعضهم بعضا كثيرة ، ولم يرد في شيء منها التعبير بالعشق . هذا وموعدنا المقال التالي بحول الله .

مكناس : تقي الدين الهلالي

تأملات انسانية :

السياسة والحضارة من منظور أخلاقي

للأستاذ : المهدي البرجالي

الى اي حد تلتزم السياسة بالاخلاق القومية في عصرنا الحاضر ؟ سؤال يتطارحه الناس باستمرار ، ولا يملكون حين النظر في هذا الامر ـ الا ان يحملوا الخلق السياسي المعاصر أوزارا غير محدودة ، انطلاقا مما يستنتجونه من ملاحظة السلوك الدولي العام ، وما ينطبع به هذا السلوك من ظواهر غير مقبولة في كثير من الاحيان !

بيد ان هذا لا يعني ان القضية ، هي قضية عصرنا على وجه الخصوص ، لكنها اتخذت ـ حقا ـ في هذا العصر ، طابعا شديد الالحاح ، أكثر من اي وقت مضى ، فما هي عوامل ذلك ؟ والى أين تتجه آفاق السياسة والاخلاق في مضمار الحياة الحضارية الحديثة ؟

السياسة ظاهرة اساسية من ظواهر سلوك الانسان ، بل ينظر اليها باعتبارها من أخص خصائصه، ولهذا نرى لها مكانا بارزا بين الاوصاف والمميزات التي تطلق على الانسان ، يراد منها تعريفه تعريفا يميزه عن غيره من المخلوقات ، فيقال في مضمون ذلك ـ انه حيوان سياسي ، كما يقال عنه ، انه مخلوق عاقل ، او متكلم او ضاحك ، او غير هذا من الصفات ، التي يعتقد ان الانسان ـ من بين الحيوانات الاخرى ـ يتسم بها ؛ تخصه دون غيره .

واذا كانت السياسة تدخل ـ هكذا ـ في باب الخصائص المميزة للانسان ، على نحو ما تعرفه به السياسة عند الانسان ـ فذلك لان لها اتصالا بفكره واخلاقه ونوازعه التي ترتبط كلها بمجتمعيته ،القائمة عليها حضارته .

ان السياسة بارتباطاتها الفكرية والاخلاقية هذه، تبرز للمتأمل اذن كظاهرة من ظواهر الحضارة بقدر ما هنالك من ظواهر اخرى تتشكل منها حالة حضارية ما في القديم والحديث ! والحضارة كما نعلم ـ لها جوانبها المعنوية ـ ثقافية واخلاقية ـ مثل ما لها من جوانب مادية ، تتمثل في توسع اقتصادي او عمراني او غيره من هذا الباب ، باب الصلة بين الحضارة والاخلاق ، نتطرق الى موضوع السياسة ، وما تنطوي عليه من ملابسات اخلاقية ، وذلك على اعتبار ان السياسة ـ كما اسلفنا ـ مقوم اساسي من مقومات الحضارة ، في اي مجتمع ذي حضارة !

فماذا يبدو من ظواهر في هذا المجال ؟

وماذا تعنيه هذه الظواهر ؟

الموضوع مما تعددت فيه الآراء منذ قديم ! وقد ذهب تعدد الآراء ــ بهذا الشأن ــ الى حد التناقض الكامل بين من يأخذ بمبدأ اخضاع السياسة للمثاليات الخلقية ، وبين من يذهب الى القول باتخاذ المصلحة ــ مهما كان السبيل اليها منافيا للمثل الاخلاقي ــ اتخاذ المصلحة ــ على هذا النحو ــ كمقياس للعمل السياسي ، يسار عليه في تحقيق هذا العمل وتكييفه والاخذ بنتائجه .

سبيلان في الراي ذهب اليهما الفكر السياسي ــ الاخلاقي في عصور مختلفة ، وقامت على أساسهما ايضا احوال واوضاع سياسية من شتى الانواع .

وفي عصرنا هذا ، تتخذ القضية طابعا ملحا جدا ، بل تبدو اشد الحاحا من اي وقت مضى ، ولا يرجع هذا الى ان عصرنا هو اكثر اخلاقية من غيره ، او ان حاله استقامت من ناحية النظرة الاخلاقية ، اكثر مما استقامت النظرة الاخلاقية عند المجتمع الانساني في غير هذا العصر ، انما مرجع هذا الالحاح الذي تفرضه القضية الان ، هو بالاخص ، ما توجبه حالة التوسع العام الذي تعرفه الحياة الانسانية المعاصرة ، وهو توسع يتسم بسمة فيها كثير من الشمول ، يرمي الى استيعاب حياة الناس كلها في نطاق واحد ، وصهر مصالحهم ونوازعهم في مصهر واحد ، ويربط بينهم برباط وثيق ؛ لكن المشكلة هي : ان هذا الارتباط والانصهار هل يتم بانسجام مع ما نعتبره مثلا اخلاقية ، ومبادىء انسانية ؛ أم ان هناك عوامل اخرى ، اكثر قوة واشد مفعولا ، تفرض حالة الترابط والتلاحم الانساني داخل اطار التوسع الهائل الذي يطبع صفة عصرنا الحاضر ، وتجعل من هذا التوسع ، وما يفرضه من مقتضيات ، عبارة عن تيار مجترف يتجاوز المثل النظرية ، ولا يبقي منها الا على ما جرى مع عنف جريانه ؟ ثم يفرض السؤال نفسه ايضا : اذا كان الفرض الثاني هو الفرض الراجح ، فما هي اذن مظاهر هذا التوسع الذي نشير اليه ؛ وصورة الارتباط بين هذه المظاهر والقضية السياسية ــ الاخلاقية ، التي يقوم عليها موضوعنا ؟

ونجتزىء هنا بايراد بعض آفاق هذا التوسع ، والمراد منها بطبيعة الحال هو مجرد التمثيل، لا الحصر، لان الحصر ، ليس له من ضرورة تفرضه من اجل تصور القضية التي نعالجها هنا ، ثم ان هذا الحصر ــ ولو في نطاق مجمل ــ مما لا يتيسر في بحث محدود جدا كهذا .

نجتزىء اذن بثلاثة نماذج من حالة التوسع القائمة وهي :

1) التوسع العلمي ؛ وبطبيعة الحال ، فاننا لا ننظر الى توسع العلوم نظرة ترتبط بالموضوع من الناحية العلمية ، بل نبقى ملتزمين بالقضية من جانب اتصالها بالسياسة والاخلاق ! ونحن ندرك سلفا ، اي ارتباط موجود اليوم بين التطور العلمي من جهة ، وبين مشاكل السياسة في عصرنا هذا ، من جهة ، وقضايا الاخلاق ايضا في عصرنا من جهة اخرى ؛ والموضوع هذا ــ في حد ذاته ــ موضوع العلم والاخلاق ، ما فتىء يثير الكثير من الاهتمام لدى المفكرين وذوي النظر في هذا العصر ، والامر في هذا ، كالامر ايضا في قضية العلاقة بين الفن والاخلاق ، والاقتصاد والاخلاق ، او غير ذلك من المواطن التي تتداخل فيها الملابسات الاخلاقية بصورة او بأخرى ؛ الا ان العلم ــ بالنظر لصلته الوثقى بالحياة ، وارتباطه بمشاكل المجتمعات اليومية ــ العلم يبدو ــ لذلك ــ اكثر اثارة لموضوع الاخلاق ، وادعى الى خلق اهتمامات فكرية من هذا القبيل ؛ اهتمامات ناشئة في عمومها عن حالة الاحتكاك بين الواقع الذي يخدمه العلم ، وبين القيم المثالية القائمة في الذهن ؛ ويزيد من اهمية هذا الاحتكاك حدوثه في كثير من الاحيان على شكل تصادم شديد الوقع على الفكر ، يضطر معه الانسان الى مراجعة كثير من اقتناعاته ، واعادة تحسس مواطىء قدميه في دنيا المسلمات التي لديه في الذهن ؛ فاذا اضفنا الى هذا ، ارتباط العلم بالسياسة ارتباطا لم يعرف مثيله تاريخ العلم ، ولا تاريخ السياسة من قبل ، ادركنا عمق القضية التي يخلقها التطور العلمي المعاصر في هذا الموضوع ، وهي قضية تتشعب هكذا شعبا تتصل بالسياسة ، بقدر ما تتصل بالاخلاق ، وتلمس عالم المثل والقيم ، على نحو ما تمس عالم الواقع الماثل ؛ وهكذا يذهب التشعب بعيدا في هذا المضمار ؛ فالعلم اليوم اداة انسانية بالمفهوم الايجابي التقدمي للانسانية ، ومن اجل ذلك ، فهو موضوع في متناول الانسان يستخدم تطبيقاته في شتى الافاق التي يستغل فيها التطبيق التقنولوجي للعلوم ؛ ووجود العلم هكذا ذا قابلية غير محدودة لاستخدام العملي من قبل الانسان ؛ قد جعل منه اداة عمل سياسي ، مثل ما جعل منه اداة اقتصادية واجتماعية وغيرها ، بل ان المداخلة بين التقنولوجيا الحديثة والسياسة ، يتسع لها اليوم اكثر من مجال ، فاذا بثمرات هذا التدخل ، تبدو على اشد ما تكون وضوحا في التكتيك الحربي مثلا ، او في الحياة

السياسية المدنية ، كالوسائل التقنية المستخدمة في تاطير القوى الاجتماعية جهويا ، او الوسائل المستعملة في الاتصالات الدولية عالميا ، وهكذا ؛ وليس للتوسع السياسي – عن طريق العلم – على نحو ما اشرنا اليه – ليس له أي حد ينتهي اليه ، فطالما ان التطور العلمي يتدخل في صياغة الحياة الانسانية وتقرير سيرها على نحو معين ، فان نصيب السياسة من التاثر من ذلك نصيب متزايد الاهمية ، اذ ان الحياة السياسية تتداخل – كما اسلفنا – ومفهوم الحضارة تداخلا لا حد له ، وهذا التداخل بين السياسة والحضارة ، لم يزده العصر الحاضر ، الا تأكيدا من ناحية نظرية او عملية ، متى انه في الامكان ان يزعم المرء ان التنظيم السياسي في عالمنا الحاضر ، وما يرتبط به من أحوال اجتماعية وادارية واقتصادية وثقافية ونحوها ، يعكس – بمجموع ذلك – الصورة المعنوية للحضارة ، اذا كان العمران وما من نوعه يمثل الصورة المادية الصرف للحياة الحضارية ، ومن هنا يزداد تأكدنا عن سعة المدخل الذي للعلم الحديث في ميدان السياسة ، وذلك كتنمية لمدخل العلم في مجال الحضارة والحياة الحضارية .

واذا كانت السياسة هكذا جزءا من نظام الحضارة ، وكانت الحضارة الحديثة ، سريعة التحول بتأثير التطور العلمي الذي يرفدها ، فان الملابسات الاخلاقية ، الناشئة عن ذلك ، لابد ان تكون موضوع اهتمام الفكر الحضاري ، اهتمام هذا الفكر في محاولته تأصيل الحضارة انسانيا ، بقدر ما هي متاصلة على الصعيد المادي ، وذلك في الواقع خلاصة القضية الانسانية في هذا العصر ، ومشكلة عصرنا ، انه يسير – في مضمار حلها – خطوات غير ناجحة دائما .

2) التوسع في مضمار العلاقات الانسانية ، وهذه الحالة من التوسع ، تبرز مظاهرها في شتى آفاق الحياة اليوم ، سواء في النطاق الاقليمي المحدود ، او في المجال العالمي الواسع ، ولا ريب ان تطور العلم ، كان عاملا اساسيا في توسيع نطاق الصلات الانسانية ، وتنويع آفاقها على نحو ما هي عليه من سعة وشمول ، ويرجع الامر في هذا ، بطبيعة الحال ، الى تطور اساليب المواصلات ووسائلها ، وذلك باب من ابواب التطور العلمي ، ونتيجة من نتائجه ، ولكن قضية العلاقات الانسانية ، لا تدخل فقط في مضمار المواصلات التي اختزلت المسافة ، وادنت الامم من بعضها البعض ، فهناك ملابسات ذهنية وسيكولوجية وسياسية وغيرها ، انبثقت عن روح العصر ومؤثراته ، وكان لها الاثر الجوهري في زيادة ربط الامم بعضها ببعض ، ومضاعفة حالة التشابك بين الافكار والمصالح بين المجتمعات في شتى القارات والجزر ؛ ان وسائل المواصلات الحديثة عامل مهم في تكييف صورة الارتباطات الانسانية كما هي واقعة فعلا ، ولكن هناك ما هو أقوى من كل عامل آخر ، وهو عامل التحفز الذهني ، والفضول الفكري والتفتح النفسي الذي صاحب ثورة العلم والفكر في العصر الحديث ، وجعل الناس في شتى بقاع العالم ، يحنون الى الاتصال بعضهم البعض وتفاعل بعضهم مع بعض ، على اية صورة ممكنة ، ومما يشير الى هذا المعنى ، أي ان تاثير الارادة الانسانية في التواصل ، هو اقوى من كل عامل آخر مما يشير الى ذلك ، ما نلحظه من نزوع متزايد الى الاستغناء عن مركبات النقل السريعة ، واستعمال بعض الوسائل التي تبدو بدائية اليوم ، كالدراجات والزوارق او غير هذا ، للتحول فيما بين القارات ، وربما للطواف حول العالم او جزء كبير من العالم ؛ ان هذه الارادة الانسانية المصرة على مبدأ توسيع التواصل ، والذاهبة في هذا الخط الى اقصى مداه ، هذه الارادة ، هي من بين القوى الفاعلة في هذا العصر ولها مضاعفات شتى في مختلف اوجه نشاط الحياة الانسانية الحديثة ، الا انها – ككل شيء يتعلق بالانسان – لها ملابسات اخلاقية واسعة ، ولها اتصال من جانب آخر ، بالحياة السياسية في العالم ، وبالاخلاقية السياسية ضمن ذلك ، ان سعة التواصل بين الناس ، قد نشأت عنها بالضرورة ، سعة مماثلة في المصالح القائمة فيما بينهم ؛ وقد تشعبت هذه المصالح وتعقدت بقدر كبير ، فكان من اللازم ان ينشأ عن ذلك ما يمكن ان ندعوه بـ « الحساسية المصلحية عند الامم ، حساسية قوية التأثير في تكوين النظرة الى الامور ، عند مجتمع او آخر وتكييف العلاقات بين المجتمعات بعضها مع بعض ؛ ان الاساسية المصلحية ، تقوم في كل عصر ومصر كصورة مألوفة من صور الحياة عند الناس ، سواء في نطاق خاص ، او على مستوى اعم لكن لا احد يستطيع ان يثبت ان هذه الحساسية كان لها مجال عالمي معقد مثل ما لها من مجال عالمي في عصرنا هذا .

وتتبلور في محيط الحساسية المصلحية ، نزعات مختلفة ، وربما تكون متناقضة في بعض الاحيان ، تناقضا يقوم في العادة كعامل من عوامل التصادم الحتمي بين الامم ؛ وقد تذهب هذه النزعات المصلحية

في التناقض الى درجة انها تجعل مجتمعا ما ، يكره ان تمس مصالحه « الذاتية » أو « القومية » بتأثير من نزعة التوسع عند الاخرين ، بينما تجد نفس هذا المجتمع تحذوه اتجاهات الى تحقيق توسعات مصلحية لحسابه هو ، وعلى حساب الاخرين في ذات الوقت ؛

وتستوعب الحياة السياسية العالمية كثيرا من صور النزوع المتناقض من هذا القبيل ؛ ومن هذا نجد ان السياسة العالمية ، تنوء بحمل من الشوائب، ثقيلة جدا ، اذا نظرنا الى هذه السياسة من جانبها المثالي الاخلاقي ؛ وقد كان العهد الاستعماري الذي بلغ أوجه اوائل القرن الحالي ، كان ذلك العهد مظهرا من مظاهر الازمة الاخلاقية التي تعاني منها العلائق بين الامم ، الا ان الاستعمار الحديث ليس مظهرا جديدا من مظاهر هذه الازمة ، التي تعود في الواقع الى فجر التاريخ ، فقد كان هناك في الازمنة القديمة الاستعمار الروماني مثلا ، وهو مجرد حالة من حالات تاريخية كثيرة مثله؛ فليس هناك جديد في حالة اللا اخلاقية التي يمثلها التسلط الاستعماري لحساب قوم ضد آخرين ؛ لكن الجديد في حالة الاستعمار الحديث هو ضخامة حجمه، وضخامة القضايا المادية والانسانية ، التي ينطوي عليها ، وهذا الفارق في ضخامة حجم الاستعمار بين القديم والحديث ، وبالتالي ، ضخامة القضايا السياسية والاخلاقية التي يضعها باستمرار ، هذا الفارق يرجع كما اسلفنا — الى التطور الذي حدث في ظروف ووسائل الاتصال بين الامم ، ومن ثم هذا الترابط بين هذه الزوايا الثلاث : الاخلاق ، والسياسة، وتأثرهما بالتغيرات الحادثة في مضمار العلاقات الانسانيـــة .

3) التوسع الفكري والقانوني ؛ وهذا باب آخر ، أو عامل آخر من عوامل شدة الالحاح الذي تفرضه قضية الارتباط بين الاخلاق والسياسة في هذا العصر ، فعصرنا الذي يتميز بتغيرات علمية وتقنية متلاحقة ، لها تأثيرها في تكييف معالم السياسة والاخلاق في المحيط الانساني الحاضر ، هذا العصر ، ينطبع ايضا بطابع فكري طامح ، يقوم على محاولة تقنين كل شيء ، وتقييم أي شيء ، ضمن معايير دقيقة ، وكاملة الاستيعاب للمسائل والتفرعات ، التوسع الفكري هذا ، تبدو آثاره بينة في مختلف فروع المعرفة الانسانية ؛ وفي ضمنها المعرفة القانونية، سواء في النطاق القانوني الخاص ، او في نطاق القانون العام ؛ وفضلا عن القانون ، فان هنالك الكثير من تفرعات العلوم الانسانية ، قد اصابها من التطور في خلال هذا القرن والذي قبله ، ما جعل كل فرع منها بمثابة علم قائم بذاته ؛ بل ان الفرع الواحد من المعارف الانسانية قد تشابكت مسائله وتشعبت الى حد ان يصبح هو الاخر اصلا تتفرع عنه ، شعب مختلفة آخذة في التمايز بعضها عن بعض ، وعلى الرغم من ان العصر الحاضر هو عصر « تقنولوجي » بدرجة اولى ، حيث تطغى فيه الروح التقنية ، والمنهجية التقنية على كل ما عداها ، فان الفلسفة ما زالت تسعى لان تحتفظ بمكانة لها في محيطه ، مكانة ترقى الى درجة محاولة تعديل آثار السيطرةالتقنية على روح الانسان وعقله، وشد الانسان هكذا الى جملة من التحليلات النظرية، المتسمة في الكثير منها بصبغة مثالية متسامية ؛ وتعرف اشكال الادب والوانه المختلفة ، من قصة ومسرحية ومقالة ودراسة وغيرها ، تعرف توسعا كبيرا في عصرنا الحاضر ، وفي توسعها هذا تنزع الى البحث عن مختلف قضايا الانسان ، واستطلاع آفاق الحياة الانسانية ، بما تزخر به من تعقيدات تبدو مظاهرها في اشكال لا حد لها .

وفي نطاق كل هذه الاحوال من التوسع التي يسجلها الفكر المعاصر ، تثار قضايا جديدة او مجددة ، تتعلق بالانسان والقيم والمثل التي ياخذ بها، والمصير الذي يفضي اليه ، والمواقف الاخلاقية التي يتخذها ، وانعكاسات هذه المواقف ، وماذا تنطوي عليه من دلائل مقبولة عند بعض ، ومرفوضة عند آخرين وهكذا .

وكل هذه الاحوال من الاخذ والرد الفكري من شأنها — كما هو واقع فعلا — ان تتناول موضوع السياسة والاخلاق في ضمن ما تتناوله من اغراض فلسفية مختلفة ؛ والواقع ان ما تتناوله الحياة الفكرية العالمية على هذا النحو ، وان كان يساهم في اغناء الفكر العالمي بصفحات جديدة ، الا ان ذلك كله لم يغن في تقويم الاصول الاخلاقية العلمية التي تقوم عليها حياة السياسة في عالمنا الراهن وان لم يكن في مقدورنا ان ننكر ان لحركة الفكر على نحو ما ذكر ، انعكاسات ايجابية غير مباشرة في الكثير من الاحيان، لا يستطاع تبين حقيقتها الا عند تحليل عوامل التيارات السياسية في العالم ، واستجلاء خيوط الاثر الادبي — الفلسفي ، الكامن وراء هذه العوامل .

ونعود بعد هذا الى موضوع القانون الدولي ، باعتباره مظهرا ايجابيا ، حقيقي الاجابة ، لهذا التوسع الفكري العالمي الذي ذكرنا ؛ ان القانون

يمثل الخيط الامتن الذي يصل الحياة السياسية في العالم بمثاليات اخلاقية ، لكن وجه التعارض بين النزعة المثالية في القانون الدولي وبين الواقع الدولي، مثل هذا التعارض ، يوسع ــ باستمرار ــ من دائرة المناقشات الاخلاقية التي تتصل بموضوع السياسة، ويبقى على القضية ــ قضية السياسة والاخلاق ، لا كمشكلة موجودة فحسب ، بل كمعضلة آخذة في التوسع كذلك ؛ وستبقى القضية مطروحة على الضمير الحضاري الانساني ، الى ان يبلغ هذا الضمير مداه في استيعاب القضية ، وهضمها ، والخروج منها مخرجا يتفق مع منطق انسانية واعية متبصرة.

* * *

ويبدر بعد هذا ، سؤال لازم وروده في هذا المساق وهو : هل من حل اخلاقي لمشكلة السياسة في هذا العصر ؛ وما هي آفاق هذا الحل اذا كان ممكنا؟ انه من السذاجة بمكان ، التفكير في هذا الامر ، على نحو ينتهي الى « اتخاذ جملة تدابير » تقوم كـ « حل» لقضية شاملة ومعقدة كقضية العلاقات الانسانية ؛ وما يجب ان تتكيف به لتنطبق عليها مقومات اخلاقية سليمة ، من السذاجة حقا محاولة شيء من ذلك ، على اساس ان يكون له تأثير « معجزي » في تقويم الامور من هذا القبيل ، وعلة العلل في هذا التعقيد ان الامر ، امر العلاقات الانسانية ــ وان كانت صورته البسيطة هي صورة تعايش وتعامل بين الناس ــ ، غير ان هذه الصورة البسيطة ، تكمن وراءها عوامل ومواضعات عقلية ومادية جد معقدة ، لا يسهل من الناحية العملية السيطرة عليها ، وان كان ذلك قد يبدو ميسورا من وجهة نظرية ؛ والعوامل والمواضعات هذه هي متأتية من طبيعة المناخ الحضاري الذي يشكل صورة الاشياء في العالم الحضاري ؛ ويشكل في نطاق ذلك صورة الحياة السياسية العالمية التي تؤطر أحوال العلاقة بين المجتمعات ، وتكيف صبغتها على نحو ما هي عليه ؛ ومن هنا كان التفكير في تكييف السياسة في عصرنا الحاضر ، على نحو اخلاقي معين هو تفكير ــ بالنتيجة ــ في تكييف الحضارة على منحى اخلاقي معين كذلك ؛ ويبقى السؤال بعد كل هذا قائما ينتظر الاجابة : هل من الممكن توجيه الحضارة القائمة توجيها اخلاقيا معدلا ، بالنسبة الى الجو الاخلاقي الذي يسيطر عليها الان فعليا ؟ ولكي نستطيع تصور القضية هذه في ابعادها الموضوعية ، يجب ان نضع في اعتبارنا ــ قبل اي شيء ــ حقيقة الحضارة المعاصرة ، وهي كما نعلم ــ حضارة اوربية، في الشكل ، وفي الجوهر الى حد ما ، وان كانت العوامل البعيدة ، التي اسهمت في تكوين بذور هذه الحضارة ، وتنميتها ، هي عوامل متعددة الانتساب، الى اطراف مختلفة من العالم ، وهذا الطابع الغربي الذي تنطبع به الحضارة الحديثة ، له ــ كما في كل حالة حضارية قديما او حديثا ــ وجهان ، مادي ومعنوي حسبما ذكرنا من قبل ، ولا يعنينا هنا الوجه المادي لهذه الحضارة ، بقدر ما يعنينا منها وجهها المعنوي ، المتمثل في القيم الادبية والفنية والاجتماعية التي تسودها ، والمتمثل ايضا في جملة القيم والمفاهيم الاخلاقية ، التي تتحدد بها نظرات الناس ، وتقوم مسالكهم في الحياة ضمن هذه البيئة الحضارية القائمة ؛ فماذا نرى من خلال هذه القيم والمفاهيم التي تفرض وجودها اليوم كلازمة حميمة من لوازم المنطق الحضاري المعاصر ؟ ليس لنا ان نذهب بعيدا في انتقاد هذه الظاهرة او الاخرى من ظواهر الاخلاق المتبلورة في ظل المجتمع الانساني المتحضر في عالم اليوم ؛ فالواقع ان حضارات كثيرة اخرى ، لم يتحقق في محيطها جو « مدينة فاضلة » مثل ما يتصور المفكرون المثاليون حالة « المدن الفاضلة » الا ان القضية التي يصطدم بها ، التفكير في امكانيات حل اخلاقي لمشكلة السياسة وبالتالي مشكلة الحضارة في هذا العصر ، القضية التي يصطدم بها التفكير في هذا المضمار هي كون الحضارة الحديثة متكيفة في كثير من مناحيها بعقلية وروح قارة واحدة من بين قارات العالم كلها ، وبالنتيجة لذلك ، فهي ــ اي الحضارة ــ منطبعة بطابع فكري وسيكولوجي اي الطابع الغربي ، وهو بطبيعة الحال ، محدود المدى الانساني جدا ، لان المجتمع الغربي ــ على الرغم من امكانياته العبقرية ــ فانه ليس هو المجتمع الانساني بكامله ، ومن هنا ، فان الحضارة الحديثة ، اذا كانت تشوبها نقائص كثيرة ــ فان من اهم هذه النقائص ، هو طغيان صفة اقليمية عليها ، وهي الصفة الغربية وعدم وجود توازن في الاصل بين الروافد العالمية التي تمدها ؛ فاذا ذكر عن المدنية الحديثة ، انها مدنية عالمية ، فذلك على اساس النظر الى ما حققته مظاهر هذه المدنية من توسع في العالم ، مس تأثيره مجتمعات انسانية مختلفة ، سواء في ادغال افريقيا او اوعار آسيا ، او العوالم النائية في المحيط الهادىء، على الوجه الآخر من الكرة الارضية ؛ لكن هل يكفي هذا لاعطاء المدنية الحاضرة ، طابعا عالميا عميق الجذور ؛ اننا اذا وضعنا هنا تعبير « عميق الجذور»

كوصف لهذا الطابع العالمي المفترض ، فذلك لاننا نقصد من « عالمية » الحضارة الحديثة ، ان تكون هذه العالمية ناشئة عن مساهمة مختلف المجتمعات الانسانية فيها ، مساهمة ايجابية وفعالة ومستمرة ؛ وبذلك تتبلور لهذه الحضارة صورة تتعكس منها شتى اذواق الشعوب وأمزجتها ومفاهيمها منصهر بعضها فى بعض ، ومتكامل بعضها مع بعض ؛ وفى هذه الحالة ، يمكن « وصف الطابع العالمي للمدنية »بعمق الجذور ، لان هذه الجذور تستمد رفدها الحيوي من موارد متكاملة آتية من هنا وهناك من مختلف الارجاء فى العالم ، ومثل هذه الحالة غير موجودة بالصورة اللازمة ، التي تبيح الانطلاق منها الى تكوين استنتاجات أو اطلاق أحكام بالاعتماد على صفة عالمية محتملة نعزوها لحالة المدنية الحاضرة ؛ فاذا تقرر هذا ، نستطيع ان ننفذ منه الى موضوع السياسة وصلتها بالاخلاق فى عالمنا الراهن ، وهو الموضوع الذي يرتكز عليه اصل النظر فيما نحن بصدده ؛ وقد عرض لنا السؤال فيما سلف عن امكانية وجود حل اخلاقي لقضية السياسة فى نطاق المدنية المعاصرة وهنا نستطيع ان نجيب انطلاقا مما تقدم ، ان الحل الاخلاقي هذا ، يتوقف قبل كل شيء ، على مقدار ما تحققه هذه المدنية ، من تطور جذري ، يؤدي بها فى الاخير الى ما يجب لها من صفة عالمية حقيقية ، اي الصفة التي تكتسبها اياها قدرة المجتمعات الانسانية كلها على المساهمة فيها مساهمة « ايجابية وفعالة ومستمرة » ؛ فالمواضعات والقيم السياسية السائدة اليوم ، هي نسيج فكر غربي ، سداه ولحمته البيئة والظروف الغربية ، وقد فرضت هذه المواضعات والقيم وجودها على الصعيد العالمي تبعا لسيادة المدنية الحديثة ذات الطابع الاوربي الغالب ، فاذا ما كان من تطور فى الفكر السياسي والقيم السياسية سيحصل فى العالم المتحضر ، فيعني ذلك ان تطورا يعتبر اصلا لذلك ، لابد ان يحصل فى مضمار الاسس التي تقوم عليها الحضارة بحيث تصير اسسا عالمية حقيقية ، تمثل الذكر السياسي والحضاري للانسانية كلها فى نطاق مساهمة مشتركة من جميع المجتمعات ؛ وهذا ما نحاول ان نتبينه فى الفصل القادم بحول الله .

سلا : المهدي البرجالي

أعزنا الله بالاسلام ...

عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سار الى بيت المقدس كان معه عبده وناقته ، فكانا يتناوبان الركوب على الناقة وهو خليفة المسلمين ، ولما وصلا الى بيت المقدس كان غلامه الراكب ، وهو ساع خلفه ، وكان الامير على بيت المقدس أبو عبيدة بن الجراح ، رأى أبو عبيدة ذلك فخشي ان يحقره الناس ، وهو فى بلد من بقايا حكم الرومان ، فقال ابو عبيدة : يا أمير المومنين : اراك تصنع امرا لا يليق ، فان الانظار متجهة اليك ، فقال عمر : لم يقل احد ذلك قبلك ، وقد كنا اذل الناس، واحقرهم ، فاعزنا الله بالاسلام . ومهما طلبنا العز بغيره اذلنا الله . !



هناك اشياء كثيرة نعرف بدقة اين نضعها من حياتنا ، بل نعرف احيانا اين نضعها من الزمان والمكان. فانا اعرف مثلا – وكذلك الاخرون – ان مكان الساعة اليدوية ، هو معصم يدي اليسرى ، كما اعرف ان موضع الكتاب بعد الفراغ منه ، هو احد رفوف المكتبة، وكما تعرف انت ان وقت ذهابك صباحا الى مركز العمل ، هو الثامنة ، بنفس الدقة التي نعرف بها جميعا المكان المناسب لباقة اشتريناها من الورد ، او تحفة فنية اقتنيناها من متجر ، او حصلنا عليها بالمزاد العلني . والامر كذلك بالنسبة لكثير من الامور المعنوية فقد نعرف المناسبات التي علينا فيها ان نظهر مغتبطين مسرورين ، والمناسبات التي علينا فيها ان نظهر متألمين بادي الكآبة والانقباض . فنحن اذ نجد انفسنا في حفل زفاف – مثلا – نشعر ان علينا ان نضع ابتسامة على وجوهنا ، كما اننا اذا احتوانا مأتم، نشعر بأن لا موضع للابتسامة فيه ، ولا بد من تقطيبة او تكشيرة اذا لزم الامر .. ! ويلاحظ ذلك ايضا في بعض مواقفنا الاخرى . فالقصص العائلي انسب وقت له الليل لا النهار ، ومعلم الفصل يدرك جيدا ان اليق عقاب بدني للتلميذ ، هو عرك الاذنين ، او الانهيال على اليدين الصغيرتين بالمسطرة ... ولو ابى ذلك القانون المدرسي ...

نعم كثيرة هي الاشياء التي لا نجد ادنى صعوبة في وضعها من حياتنا موضعها الملائم ، ولكن قد نصادف اشياء اخرى تجعلنا في حيرة شديدة ، اذا نحن حاولنا ان نفعل معها نفس الشيء . فنحن نحار – مثلا – ازاء بعض من نعرفهم من الناس ، هل نضعهم في صف اصدقائنا المخلصين ، او نضعهم في صف اعدائنا الالداء . ونفس الحيرة تقع فيها عندما يعرض علينا احدهم صداقته ، ونحن شاعرون بعدم الرغبة فيها ، هل نضع حدا لذلك ، او نجاريه ولو بكثير من التكلف والنفاق . وقد يقع لك مرة او مرات ، ان تتعرض لأزمة ضمير ، فتعاف القيم المادية ، وتود ان لو كانت الحياة كلها شرفا وفضيلة ونفحات روحية ، اذا بفرصة مادية تسنح لك ، على حين غفلة ، فتحار اين تضع نفسك بين الاتجاهين المتعارضين .

وهذا ما يحدث لنا بالنسبة للشعر بالضبط . والحق ان الناس في مواقفهم من الشعر ينقسمون الى ثلاثة اقسام : هناك قوم لا مشكلة عندهم بالنسبة الى هذه القضية . فالشعر عندهم هو الحياة وهو العيش ، وهو الهدف الاول والاخير . وهناك قوم آخرون عادوه على طول الخط ، ونفضوا ايديهم منه ، وهؤلاء ايضا لا مشكلة عندهم . ولكن هناك طائفة ثالثة ، ولعلها هي التي تكون الاغلبية من المثقفين ، تحار اين تضع الشعر من حياتها ، هل تعده ترفا زائدا ، تشعر بالحاجة اليه وقت فراغها وانسها واستغراقها لذاتها ، او تعده جدا كل الجد ، وشيئا يرتفع الى مقام الضرورات ؟ وسواء اتخذت الموقف الاول او الثاني ، فهي دائما تجد من الحجج ما تبرر به موقفها . فاذا هي اعتبرته ترفا زائدا ، فذلك لانها

تعطي الاسبقية للطعام واللباس والدواء والسكن . واذا هي اعتبرته شيئا ضروريا ، عادت به الى متطلبات الفطرة ، واصل التكوين الانساني ، الذي يحتوي على جانب روحي ، يحتاج الى نوع خاص من الغذاء المتمثل في الفن والشعر .

وانا لا اريد من وراء هذا الحديث ، ان اتعرض لاختلاف الناس في الزوايا التي ينظرون منها الى الشعر ، بقدر ما اريد البحث عن المكان الذي يضع فيه الشعر نفسه من حياة الانسان عامة . فانا اعرف ان هناك من يضع القصيدة الشعرية موضع العطور الغالية ، والتحف النادرة ، والزهريات الجميلة ، والمناديل الحريرية المطرزة ، ومن يضعها موضع الهواء للرئتين ، والنور للعينين ، ومن يضعها موضع ادب اللياقة ، وفن المحادثة ، وقواعد السلوك الرفيعة ، فلابد من حفظ ابيات لابن زيدون ، واخرى لابي نواس مثلا ، كما لابد من معرفة شيء عن السياسة ، وشيء عن التعيينات الوزارية الاخيرة ، ولابد من حفظ عبارات منسقة بارعة ، لتلقى في آذان السيدات في محفل عام ، ومن الالمام باحدث الازياء ، واطرف اخبار نجوم السينما ... وهناك من يرى في الشعر رايا آخر ، وينظر اليه نظرة تختلف عن كل ما تقدم ، ولكن هذا لا يهمني اساسا في هذا الحديث ، لانه ليس من شانه ان يقدم في حقيقة الشعر ومكانه الطبيعي من الحياة ولا ان يؤخر . ومن المعلوم ان الشعر لا يتقدم من حيث يقدمه بعض الناس ، ولا يتاخر من حيث يؤخره آخرون ، وانما طبيعته هي التي تحدد لهموضعه الطبيعي من حياة الانسان . فاذا زحزحه انسان بعد ذلك عن موضعه الطبيعي ، لم يكن معنى ذلك انه تخلى عن موضعه الذي وضعته فيه طبيعته ، وانما معناه ان الانسان هو الذي غير موضعه منه ، اما الشعر فلا زال في موضعه . ولو كان الامر بالعكس ، لكان ذلك مخالفا لطبائع الاشياء ، فنحن نخالف قوانين الحياة ، حين نزعم — مثلا — ان العقيدة الدينية لا تهمنا في شيء معتقدين اننا بذلك قد غيرنا موضع الدين من حياة الانسان . فللعقيدة الدينية موضعها الذي لا يمكن ان يتغير ابدا ، بدليل ان الناس يكفرون بالدين او يومنون به ، والدين هو هو في موضعه المناسب ، آمن به من آمن ، وكفر به من كفر ، فلا ايمان المومنين يزيد الدين شيئا على حقيقته في ذاته ، ولا الكفر ينقص منه شيئا كان فيه ، بل الدين هو الدين ، في جوهره ، وفي موضعه ، ونفس الشيء يمكن ان نقوله بالنسبة الى الشعر ، مع وجود الفارق بينهما ، اذ الدين من صنع الله ، اما الشعر فمن صنع البشر .

فاين نضع الشعر من حياة الانسان ؟ .

قد اكون في نظر القارىء متهما ، وقد يكون من حقه ان يسائلني هكذا :

اما قلت ان طبيعة الشعر هى التي تحدد له مكانه من حياة الانسان ؟ فكيف تخالف ما قررته لتفرض له موضعا خاصا ؟ وهل من المفروض ان تكون وجهة نظرك نفس ما تقضي به الطبيعة ؟ لو بدا للقارىء ان يعترض على هذا الشكل ، لكان جوابي اني ادعوه الى ان يشاركني التفكير في هذه القضية ، فانا لم اكون فيها رايا بعد ،تاركا البحث يسير سيره الطبيعي، دون تعسف مني ، او بعبارة اشد وضوحا ، اترك طبيعة الشعر نفسها تحدثنا عما قررته للشعر من مكانة في حياة الناس . وعلينا حينئذ ان نلاحظ ونراقب ، ونتتبع خطواتها من غير تسرع لاعطاء فكرة ما ، الا بعد ما يكون البحث قد وصل الى نتائجه الطبيعية .

والان لنعد الى طبيعة الشعر ، وليكن الشعر نفسه دليلنا الى طبيعته حتى نكون واضحين قدر الامكان . خذ هذا المثال كنموذج صالح :

يا خليلي تيمتني وحيد
فؤادي بها معنى عميد
غادة زانها من الغصن قد
ومن الظبي مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخد
ين ذاك السواد والتوريد
فهي برد بخدها وسلام
وهي للعاشقين جهد جهيد

فهذا الشيء الذي ندعوه شعرا ليس شيئا مجسما قابلا للرؤية او اللمس ، انه ليس كتلك الزهرية او كتلك الباقة من الورد التي نعرف اين نضعها دون ان نحتاج الى تفكير ، لان العادة اغنتنا عن ذلك ، وانما هو شيء معنوي ، واظنك توافقني على ان (الشعر) في تلك الابيات ليس هو المسافة التي تشغله في صحيفة من الورق ، ولا في الحجم الذي تأخذه بوصفها مجموعة من الخطوط المتجاورة ، وهذا ما نريده بقولنا عن الشعر انه شيء معنوي . ثم هو ليس من قبيل الامور المعنوية المجردة عن اية صفة حسية ، اذا صح ان في حياتنا معنويات لا علاقة لها بالحس . وحسيته ومعنويته لا سبيل الى فصل احداهما عن الاخرى ، اذ هما يكونان جوهرا واحدا لا يفهم الا بمجموعه .

فاذا عرفنا هذا بقي علينا ان نعرف انه ليس من قبيل جميع الشؤون المعنوية والحسية ، فهو مقيد بقيود فردية ، على حين ان منها ما تغلب عليه صفة العموم ، من الافكار والمسافات والارقام والاحجام ومقاييس الزمان والمكان ، والالوان والروائح والقامات والقوانين ، كلها تغلب عليها صفة العموم ، على حين أن الشعر مقيد بالقيود الفردية ، وهذا لا يسلبه طابعه الانساني العام ، فكل عمل شعري اصيل ، لا يخلو من العناصر الانسانية العامة ، التي تضمن له الرواج بين الناس وتجاوبهم معه . فالشعر اذن معنوي ، حسي ، خاص ، عام . وهو ايضا خلق وابتكار ، بمعنى ان ما يتكون منه من كلمات قد رتب على نحو روعيت فيه الجدة والطرافة . ولعل هذا ان يعيننا على معرفة الموضع الملائم للشعر في حياة الناس .

فاذا كان الشعر امرا معنويا وحسيا ، اتصل بوجهي حياة الانسان ، الروحي والمادي ، بحيث يرضي مطالب كل منهما . فنحن اذا كنا شعراء ، نلتمس في الشعر تنفيسا عن شؤوننا التي امتلانا بها ، واخذنا بروعتها وغرقنا في جنتها او نارها ، كما اننا نركب كثيرا من الصور الحسية كما نودها ان تكون ، او نعمد الى الصور الواقعية فنخلع عليها من انفسنا ما يسمو بها الى مستوى الاشياء الخالدة في هذا العالم .

واذا كان الشعر خاصا وعاما ، فهو بخصوصيته يكون هو الذات نفسها مشعة في صور فنية ، وهو بعموميته يجعل تلك الذات الموضوعة في قالب الفن ، شيئا مشاعا بين جميع الناس ، من حقهم النظر الى محتوياتها دون ان يتهمهم احد بالفضول ، وذلك على حسب الجانب الذي كشفه الشاعر من ذاته .

ونخلص الى امر لعله ان يكون نتيجة منطقية لما سبق ، وهو ان موضع الشعر من حياة الانسان ، هو موضع الانسان نفسه من الكون الذي يعيش فيه . فاذا نحن عرفنا موضع الانسان من الكون ، عرفنا موضع الشعر من حياة الانسان . وسوف لا نتعب في معرفة القضية الاولى . فالكون هو مجال نشاط الانسان ، لم يترك منه زاوية ولا شبرا واحدا الا وكان له فيه موضع لقدم ، او مكان لآلة ، طافه جوا وبحرا وبرا ، وهو الان بسبيل استكشاف الحياة في الكواكب الاخرى ، وكذلك الشعر ، لم يترك عاطفة انسانية الا وعبر عنها ، فجميع هموم الانسان وقضاياه وغرائزه وخواطره ووساوسه ، قد صاغها اناشيد عذبة ، ترتل وترتل الى آخر الدهر . والانسان ياخذ مواد هذا الكون الطبيعية ، فيحولها بانواع من المهارات الخاصة الى ادوات وآلات ومخترعات ، ثم يردها على الحياة والكون ، لتكون ناطحات سحاب ، وبواخر تمخر عباب البحار ، وطائرات تجوب الفضاء ، وصواريخ تعبر القارات ، وكذلك الشعر بالنسبة لحياة الانسان ، ياخذ مادته الخام من عواطف الناس وخواطرهم وافكارهم ، فلا يلبث ان يحولها بمهارة من نوع خاص ، الى ملاحم تحكي الحروب ، وقصائد تصور صبوات النفوس ، واناشيد تشف عن صفحات القلوب ، ثم يردها على الحياة لتكون ثقافة للشعوب ، وعنصرا من كيان الحضارة ، وقوة دافعة للحياة الانسانية . والانسان يطور الكون ، او يطور هذا الكوكب الذي يسكنه على الاصح ، فطرق تفتح ، وقناطر تمد ، وسدود ترفع ، وموانيء تشاد ، ومدن تعج بالعمران ، والشعر ايضا يطور حياة الانسان ، او على الاقل هذه الناحية التي يملك عليها حق السيطرة ، وهي صلة الشخصية الانسانية بالعالم المحيط بها ، حيث يهبها مجموعة من القيم ، ويركز فيها عددا من المبادىء ، آخذا بيدها في معارج الرقي الروحي . وقد تدين حياة الانسان المادية نفسها في تطورها لعامل الشعر ، فكثيرا ما كان الشعر خلف الحركات التاريخية الهامة ، التي غيرت من مصائر الناس ، وبدلت وجهة حياتهم . والانسان كثيرا ما يتعرض لغضبة الكون ، فتغرقه الامطار الطوفانية ، وتهز الارض تحت اقدامه الزلازل العاتية ، وتهلك حرثه وماشيته الفيضانات الطاغية ، ولكنه لا يستسلم ، وانما يقاوم ، الى ان يخرج من الكارثة اوفر ما يكون ثقة بالنفس ، واملا في المستقبل . والشعر هو الاخر كثيرا ما يتعرض لهزات عنيفة ، تكاد تطوح به بعيدا ، لولا ان ذلك مخالف لطبيعة وجوده ، وصلته بحياة الانسان ، فهو قد يعرف الوانا من الكيد ، وفنونا من الحرب ، باسم العلم تارة ، وباسم الفلسفة حينا ، وباسم الاخلاق طورا ، وباسم الاصلاح الاجتماعي طورا آخر ، ولكن الشعر يخرج من هذه الازمة اخيرا وكله حياة وتوثب واستعداد للنضال .

وكل ما في الكون من عناصر الطبيعة ومظاهرها ، انما هو تعبير عن ارادة عليا ، هي المهيمنة عليه ، والباسطة ظلها فوقه ، لهذا أمرت الاديان السماوية باجالة النظر في ملكوت السماوات والارض ، قصد الاهتداء الى حقيقة الحقائق وجوهر الاشياء ، وقد جاء التعبير متنوعا ما بين اجرام سماوية تبهر بجلالها وعظمتها ، وبحار عظيمة تطوق العالم ، وجبال راسية تهزا بمرور الزمان وتعاقب الاحداث ، واصناف من الحيوان ، والوان من النبات ، هناك التعبير الذي

يروعك ويخيفك ، ويملأ نفسك من فزع واضطراب ، والتعبير الذي ياخذك بجلاله ، ويحيطك بعظمته ، في غير ما تخويف ولا ترويع ، والتعبير الذي يهمس لك ويناجيك ويملأ عليك دنياك بجميل الاطياف وروائع الخواطر وموثقات الاماني . وكذلك الامر بالنسبة الى الشعر في علاقته بحياة الانسان ، تعبير قوي بليغ عن الشخصية الانسانية في حياتها المضطربة المتقلبة ، في ياسها واملها ، في ضلالها واهتدائها ، في شكلها ويقينها، في ارتفاعها الى الآفاق المشرقة ، وفي انحطاطها الى المهاوي السحيقة ، وهو تعبير متنوع ايضا ، منه ما يروع ، وما يعجب ، وما يدغدغ ويداعب ، لان طبائع النفس الانسانية اكبر واوسع من ان تخضع للون او الوان محدودة من فنون التعبير .

ثم ان الانسان يشعر بنوع من التحدي لهذا الكون ، يغالبه ويصاوله ، ويعرف من جراء ذلك عددا من الانتصارات وعددا من الهزائم ، واثناء ذلك يزداد معرفة بنفسه ، وبامكانياته ، وطاقاته ، وما فيها من عناصر القوة ونقط الضعف ، لان الصراع يكشف عن معدنه ، ويظهر ما فيه من عنصر اصيل وعنصر زائف ، وكلما ازداد صراعه كلما ازداد قربا من هذا العالم في اسراره وغوامضه ، وينتج عن هذا ازدياد محبته له وتفانيه فيه ، لان الانسان صديق ما يعرف ، عدوما يجهل . ونفس الشيء يصدق على الشعر في علاقته بحياة الانسان . فهي تتحداه وهو يبادلها نفس التحدي ، تتحداه بأسرارها ومخبآتها ، ومجالاتها الواسعة ، وآفاقها الشاسعة ، ومعانيها اللانهائية ، وقضاياها اللامحدودة ، ويتحداها بفنه وبراعته وذكائه وبيانه . فهو صراع يزيد الشعر ادراكا لامكانياته وطاقاته ، وطبيعة الدور الذي خلق ليلعبه في هذه الحياة . وكلما تقدم الزمن على هذا الصراع ، كان ذلك فرصة الشعر ، ليغوص في اعماق الحياة الانسانية، ويبلور خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، فيزداد كلفا بها واقبالا عليها ، يصطفي منها الجواب التي تشوقه وتاخذ باعجابه ، دون أن يغفل النواحي الاخرى ، لان الحياة كلها هي مجاله الواسع ، ومسرحه الرحيب .

وهكذا نجد بين ايدينا امثلة عديدة لم نشأ الاسترسال معها ، وكلها صادقة الدلالة على ان موضع الشعر من حياة الانسان ، هو نفس موضع الانسان من هذا الكون .

ولا يمكن ان نجد اي شكل فني آخر يشارك الشعر هذه المكانة ، بهذه القوة فجميع الفنون الجميلة الاخرى مقصرة عن الشعر في هذا المضمار ، لانها لا تواجه الحياة الانسانية ولا تمتصها بنفس فعالية الشعر وتمثيله لشتى الملكات العقلية ، ووضوحه النسبي ، وتمثله لحقائق الافكار ، ودقائق الفلسفات ، وتاثيره في الاحداث ، وتصوره لانماط الحياة في المستقبل، وسرعة استجابته للوقائع ، وقابليته للتعبير عن امور معينة محددة ، قصد نقلها الى الاخرين ، لتؤدي غرضها المقصود .

ولا يمكن للعلم ان يحتل نفس المكانة التي يحتلها الشعر ، لسبب واضح ، وهو ان العلم شيء موضوعي، لا تربطه بالذات هذه الرابطة التي بين العمل الشعري، والذات الصادر عنها . فالانسان لا يندمج في العلم بمجموع كيانه ، بنفس القوة التي يندمج بها في العمل الشعري ، بنفس القوة التي يندمج بها الانسان في هذا الكون . دلني على اختراع علمي واحد ، بينه وبين صاحبه من الالتحام والاندماج ، ما بين القصيدة الشعرية ومبدعها ، فالسيارة ـ مثلا ـ قطع من الفولاذ والصلب ، تدل ولا شك ، على مهارة عقلية خاصة ، ولكن اين هي من (الشخصية الانسانية) في معناها الضيق او الواسع ؟ القصيدة بجرسها ونبضها واخيلتها وانطلاقاتها الاخاذة ، تجسيم لآمال ، وتشخيص لنفس، وتعبير عن كيان ، لذلك كان في وسع صانع السيارة انتاج عدد كبير من السيارات ذات النوع الواحد ، دون أن تجد بينها اختلافا يذكر ، ولكن هيهات أن تجد قصيدة تطابق اخرى ، ولو انصبتا على موضوع واحد.

مكانة الشعر من حياة الانسان ، هي نفس مكانة الانسان من هذا الكون ، حقيقة واضحة ولو خاصم الشعر كل اهل الارض ، وبقي الى جانبه انسان واحد، كحجة على صدق هذه الحقيقة واستحقاقها للبقاء . وهناك عدد كبير من الحقائق التي ما زالت مجهولة عند الناس ، وحتى العلماء منهم ، ولكن الجهل بها لا يعني انها غير موجودة على الاطلاق . ودليل وجودها ان عقل الانسان ما زال يهتدي كل يوم بل كل ساعة الى حقائق جديدة ، وربما كان كافرا بها من قبل . لو جاءنا عالم وقال لنا ان من الممكن زرع قلب انسان في صدر انسان آخر ، قبل سنوات قلائل لسخرنا منه واعتبرناه من المجانين ، ولكن ها هو الطب يثبت أن في الامكان ان يعيش انسان بقلب انسان آخر ، بل هو قد عاش به فعلا . واذن فلا ضير على الشعر ، اذا كان هناك عدد من الناس ، لا يضعونه ، حيث يضع نفسه من حياة الانسان .

وحقيقة الشعر هذه ، في علاقته بحياة الانسان، هي حقيقة نفسية اكثر من ان تكون اي شيء آخر ،

بحيث لو تألب كل اهل الارض على الشعر ، باعتباره قالبا من قوالب التعبير ، لما كانوا قادرين ، مجتمعين ومتفرقين على محوه بصفته حقيقة نفسية لها دخل كبير في تكوين الواقع النفسي للانسان . ومن المفروغ منه ان اشد الحقائق تأثيرا في الانسان ، تلك التي يتجاهلها ويفر منها، عوض ان يواجهها ويسلم بوجودها ويعمل على ارضائها بالطرق الطبيعية .

ولكي نزن مكانة الشعر من حياة الانسان ، يكفي ان نعرف انه — اي الانسان — كلما اقترب من شخصيته الانسانية ، كلما ازدهر الشعر ، متى وجدت العوامل المساعدة على ازدهاره ، وكلما ابتعد عنها ، كلما نضب معين الشعر ، حتى ولو وجدت الاسباب الداعية الى تألقه . يمكنك ملاحظة ذلك بمقارنة عصر الآلة والتقنية، بالعصور التي سبقته ، فهناك كانت الشخصية الانسانية تحتل مكان الصدارة ، وتطبع الحياة العامة بطابعها الخاص ، حيث كان الانسان يحارب بالعضلات ، ويعتمد في جميع الاعمال على يديه ، وينجز الاعمال الحرفية بذوقه ، ويختبر عناصر الطبيعة بحواسه ، فاستتبع ذلك تألق الشعر وتربعه على القمة ، لانه الصق بالشخصية الانسانية ، تابع لها، مشدود اليها ، يرقى برقيها وينحط بانحطاطها ، يقوى بقوتها ويضعف بضعفها . وفي عصر الآلية وجبروت الحديد والصلب، تقهقرت الشخصية الانسانية ، فاستغنى بالآلات عن الايدي ، وصار المصنع ينتج الملايين من الاحذية او الوان النسيج ، دون ان ترى فرقا بين اي حذاء وآخر من صنفه ، او قطعة ثوب واخرى من نوعها ، وفي الحروب اصبحت الكثرة العددية لا تغني فتيلا اذا واجهت اقلية مسلحة بأحدث الاسلحة ، ويمكنك ان تضيف الى ذلك طغيان السينما على المسرح ، واسطوانات الغناء على الحفلات الموسيقية الحية ، فتاخر الشعر ، نظرا لما اصاب الشخصية الانسانية من ضعف ، لا من حيث وضعه الطبيعي من حياة الانسان ، وانما من حيث نظرة الناس اليه . هذا مع العلم بان الحياة الانسانية لم تعرف عصرا كعصرنا ، في تجميل انماط العيش ، وتنميق واجهات الحياة ، وترفيه اذواق الناس .

ولست افهم أن يظل الانسان هكذا عبدا للآلة ، متنازلا لها عن شخصيته كانسان ، لان هذا مخالف لطبائع الاشياء . ذلك ان هذا الكائن الانساني اناني جدا ، وبالغ اقصى حدود الانانية ، وهو الآن مخدر ببريق الحضارة الحديثة ، مأخوذ ببهرجتها وانواع زينتها ، مبهور بلألائها واضوائها الزاهية الالوان ، وهو سيمل ، وسيعود اليه وعيه بنفسه وذاتيته ، ويحطم الآلة اذا راى انها ستحطمه ، عائدا الى قواعده . انه كمن تصدت له غانية فانسته نفسه ، وقد يكون نسي ايضا دينه وخلقه وكرامته وسمته ، فجرى وراءها ، ولكن ما ان ظفر بها وخبرها حتى هجرها ، راجعا الى ما كان له من دين وخلق وكرامة وسمت كرد فعل ضد دواعي الفتنة التي اخرجته عن طوره. واذن فالشخصية الانسانية لها غد مشرق حافل ، وبالتالي للشعر مستقبل زاهر وغد موعود .

وقد آن لنا ان نعرف ان كل تفريط منا في حق الشعر ، معناه : زيادة في عدد القصائد التي سيكون على الاجيال المقبلة ان تبدعها ، اي اننا سندفعها بذلك الى ان تكفر نيابة عنا ، كما يكفر كل جيل عن اخطاء الجيل السابق عليه . سيقول الشاعر الذي سيظهر بعد مرور خمسين سنة كلاما كهذا : (لست ادري ماذا صنع آباؤنا بفرص الشعر التي كانت بين ايديهم ، حسنا ، علينا ملء ما تركوه من فراغ ، الا ترون ان شعرنا قد ضاع من عمره عشرات السنين ، وانا ما كنا لنبدا من هنا لو ان الجيل الماضي ادى رسالته الشعرية ؟)

ونعود الى تلك الفكرة التي انتهينا اليها منذ قليل ، وهي ان موضع الشعر من حياة الانسان ، هو نفس موضع الانسان من هذا الكون ، محاولين ان نعرف وظيفة الشعر الاساسية ، المتلائمة مع المكانة التي يحتلها بحكم طبيعته . وما دمنا قد ربطنا بين موضع الانسان من الكون ، وموضع الشعر من حياة هذا الانسان ، فلا معدى لنا عن تبين طبيعة الصلة الكائنة بين الانسان وهذا الكون . وقد سبق لنا ان ذكرنا جوانب من هذه الصلة ، والان بودنا ان نتحدث عن الوظيفة التي تخولها للانسان طبيعة تلك الصلة . هل الانسان هو صانع هذا الكون ؟ ام هو مجرد كائن من كائناته العديدة يختلف عنها في اشياء ، ويتفق معها في اشياء ؟ اهو مجرد عبد للطبيعة ، تصنع به ما شاءت ولو خيل اليه وهمه انه ناصيتها واخضعها لسلطانه ؟ ام هو سيد لها حقيقة ينفذ فيها ارادته ويتصرف في شؤونها على هواه ؟ اهو صديق لها حتى لتشاركه احلامه واشواقه ، وتتخذ من الاشكال والالوان ما يتلاءم ومزاجه وحالاته النفسية ؟ ام هو عدو لها يراوغها وتراوغه ، ويطاولها وتطاوله ؟ انك اذا قرات ما ابتكره خيال الانسان وعقله من آيات الادب والعلم ، وقفت على جميع هذه الاتجاهات والمفاهيم ، التي فسر بها الافذاذ من نبغاء الانسانية طبيعة الصلة التي بين الانسان وهذا الكون . وعبثا

نحاول الاهتداء الى المفهوم الصحيح ، لتفضيلـه على غيره من المفاهيم نظـرا لكـون تلك المفاهيم خضعـت لعاملين اثنين : احدهما العصر الذي عاش فيه الاديب او المفكر ، والثاني اللون الثقافي الغالـب على فكره ، فعصور الدين والنزعات الروحية والقيـم المثاليـة ، انتشر فيها نوع خاص من فهم صلة الانسان بالطبيعة، فهي قائمة على المودة والصداقة والالفة والاعجـاب ، على حين انها في عصور العلم والبخار والكهرباء قائمة على التسلط والسيادة والارادة المطلقة . وهذا امـر طبيعي ، ذلك ان الانسان ما دام يشعر بالضعـف ازاء قوة اقوى منه ، فهو يلتمس صداقتها ويخطب ودها ، فاذا هو تعزز جانبه ، وتعددت اسلحته ، شعر بانه في مركز القوة ، وابطرته نعمة السلام ، ونعمـة المـال ، ونعمة العلم ، فصال وجال ، وزعم لنفسه السيـادة والغلبة . والامزجة الفردية لها ايضا دخل في الامر ، لذلك لا نعدم ان نجد من القدمـاء من ينادي بسيـادة الانسـان على الطبيعـة ، ومن المعاصريـن من ينـادي بصداقتها والتجاوب معها ، والاندماج فيها اندمـاج صحبة والفة .

ومهما يكن من امر ، ومهما تختلف وجهات نظر الفلاسفة والادباء والمفكرين الى طبيعـة صلة الانسان بالكون والطبيعة فلا شك في انهم جميعا لا يختلف منهم اثنان ، في كون الانسان يتجـه اليهمـا باحثـا متطلعا مشوقا الى هتك الحجب ، وحل الالغاز ، شاعرا بانه مسؤول ، بل هو المسؤول الوحيد عن هـذه الارض ، وفي كونه معينا بالوصول الى القوانين المتحكمة فيهما ، كلفا بان يضيف اليهما من جماله جمالا ، ويضفي عليهما من نور عقله وخياله حللا قشيبة . واذا كان هذا شان الانسان بالنسبة الى حياة الكون والطبيعة ، ثبت عندنا ان هذا شان الشعر بالنسبة لحياة الانسان . فهـو مقبل عليها بلهفة وشوق ، لاستخراج كنوزها الدفينة، وتجلية طبائعها المتنوعة ، والاهتداء الى أصولها البعيدة، وهو متنقل بها في درجات السمو والكمال ، غيور على سلامتها وجمالهـا وصلاحيتهـا لتبقـى دائما مصدر الانس والحبور والسعـادة ، يتحقـق فيها السـلام والاخوة والمحبة والصداقة . اقول هذا غيـر ناس ان هناك من الشعراء من دعا الى الحروب ومجد القتال ، واعتبره من اسمى الفضائـل والمفاخـر ، ولكن هؤلاء قليل ، اذا قيسوا الى دعاة السلام والوئام والاخـوة الانسانيـــة .

ارايت الى هذا التطابق بين موضع الانسـان من الكون ، وموضع الشعر من الانسان ؟ تطابق في طبيعة الصلة ، تطابق في الوظائـف الناتجـة عنها . وكـل الصدمات والنكسات التي لقيها الشعر في هذه الحقبة من تاريخه ، ليس من شأنها ان تزحزحه عن موضعـه قيد انملة ، ذلك ان محاربة الحقائق لا يقدم فيهـا ولا يؤخر ، كحقائق يقوم الف دليل ودليل على وجودها . قد تختفي الحقيقة زمنا ، وقد يجهلها الناس ، وقـد تتعرض للاضطهاد ، ولكن ذلك كله لا ينفي انها حقيقة، اذا اختفت في زمن ، ظهرت في زمن آخر ، واذا تنكـر لها قوم ، اعترف بها آخرون ، لانها حقيقة ، وحقيقـة فقط . ومن ثم فهي لا يمكـن ان تمـوت ، والشعـر حقيقة ، حقيقة كبرى خالدة ، تعيش معنـا ، وبيـن اضلعنا ، وفي مسـارح أحلامنا ، وتحت وسائدنا ، وعلى وجنات حبيباتنا ، وفي سماء بلادنا وارضها ، وخمائلها. وهل هناك حقيقة وصلت الى هذا الحد من الامتزاج بكياننا كحقيقة الشعـر ؟ وقـد كان جهل كثيـر من الناس بالحقيقة : ماهيتها وطبيعتها وأصولها علة ظلم الناس للشعر ، حيث راوا ان ما يكون حقيقة لا يكون خيالا ، وما يكـون خيالا لا يكـون حقيقـة . طرفـان متناقضان لا سبيل الى التقائهما . وهم ينسون شيئا هاما وبسيطا في نفس الوقت ، وهو ان الخيال حقيقة ، لانه احدى قوى الانسـان العقلية ، ورائده في حياته ، وعمدته في تصور مستقبله ، وتمثل قيمه ومثله ، فهل من اللائق ان يعتبر الخيال باطل الاباطيل وهذه قيمته الانسانية الخالدة ؟ .

لا احب ان اذهب بعيـدا وراء الخواطـر التـي يثيرها عندي هذا الامر ، وانما احب العودة الى حقيقة الشعر تلك ، في علاقتها بخيـال الانسـان ، وعلاقـة الانسان بهذا الكون ، ولحـد الان لم نعرف بالضبط ، الموضع الذي يحتله الشعر بحكم طبيعته ورسالته في حياة الانسان ، وانما عرفنا ذلك دون تحديد ، ولكـي نصل الى هذا التحديد ينبغي ان نميز بين الحقيقـة باعتبارها حقيقة ، والواقع الحالي او المنتظر ، فلا نحكم على الحقيقة على ضوء ايمان الناس بها ، او عملهـم بمقتضاها ، وانما ننظر اليها من حيث هي ، فالحياة مملوءة بالاشياء التافهـة ، والخرافـات والاضاليـل الواهية ، ومع ذلك لم يكن سلطانها على الناس كافيـا لعدها من الحقائق ، كما ان هناك عددا من الامور الهامة التي قل ان يفطن لها احد،دون ان يعني ذلك انها عديمة الاهمية . بعد هذا نستطيع ان نقول كلمة عن تحديـد موضع الشعر من حياة الانسان .

لا ينبغي ان نذهب مع القائلين بأن الشعر يمثل من الانسـان جانبـه الروحـي ، ولا شـأن له بالمادة ،

فلست اعرف خطا كهذا بين اخطاء النقاد والادباء ، اذ لا سبيل الى فصل الروح عن المادة ، وليس هناك حاجز بينهما ، ولا يمكن تصور وجود احدهما دون الآخر ، بل لا يستقيم للذهن معنى الحياة الا بانسجام ذينك العنصرين وائتلافهما وتعاونهما . الحياة الانسانية بجميع مظاهرها وحدة واحدة ، وكل جامع ، وكل الوان النشاط الانساني متأثرة بالمادة والروح معا ، حتى ذلك النشاط العلمي الجاف القاتم ، الذي يخيل الينا انه لا يقيم للروح وزنا ، نجده احيانا كثيرة فى أعلى درجات الروح ، كما انه فى أرقى مستويات المادة . فذلك العالم التجريبي الذي يقضي جل اوقاته فى مراكز الاختبارات العلمية ، معرضا عن كثير من مباهج الحياة الحديثة الراقية ، فقل ان يحضر ملاعب كرة القدم ، او يغشى قاعات السينما ، او يساهم فى الحفلات الساهرة الراقصة ، هو فى قمة الوهج الروحي ، لانه يضحي فى سبيل العلم ، وكل تضحية فى سبيل العلم او فى سبيل اي غرض نبيل ، تعبر عن روح عالي جدير بالتعظيم والاعجاب . وذلك الجندي الذي يتطوع بوضع نفسه وحياته فى خدمة العلم ، فيرسل فى صاروخ جهنمي الى اجواز الفضاء ، غير متاكد من انه سيعود سالما ، هو ايضا فى عنفوان الروح العالي الممتاز ، وفى رايي انه لا يقل صوفية عن اي صوفي آخر ، بالمعنى الذي نضعه لهذه الكلمة .

واذن ، فالقول بان موضع الشعر من الانسان هو الروح فقط ، خطأ فادح ، تجب التوبة منه كما يقول فقهاؤنا . ولست أدري كيف يكون الشعر مقصورا على الروح ، وهو نفسه مكون من مادة هي الالفاظ . ! وما هذا (الروح) الذي نكثر من الحديث عنه ؟ ما عساه ان يكون ؟ ما خصائصه ككائن حي ؟ ما الفرق بينه وبين (المادة) ؟ اسئلة وقف العلماء وما زالوا امامها حائرين، الامر الذي يجعلنا نتحدث عن شيء غامض جدا ، عندما نتحدث عن (الروح) فهل الروح هو النفس او هو شيء آخر ؟ هل هو مجرد الاثر الناشيء عن قيام الاعضاء بوظائفها الطبيعية ؟ فكيف نصر على ان الشعر من شأن الروح وحده ، والحال اننا لا نحقق معنى هذه الكلمة ، ولا نستطيع ان نضع لها اطارا خاصا ؟ .

تناولت هذه القضية ليفهم اني عندما اتحدث عن موضع الشعر من حياة الانسان ، لا افرق بين ما هو مادة وما هو روح ، وانما اطلق كلمة (حياة الانسان) لاقصد بها حياته فى وحدتها وتماسكها وتفاعل عناصرها، دونما تفرقة بين جانب وآخر ، لسبب بسيط ، وهو ان الانسان لا يكون (انسانا) الا بمجموع العناصر التي تشترك فى تكوينه العام .

ولا يفوتني التنبيه الى خطأ آخر ، من الاخطاء الشائعة التي خضعت لها انا شخصيا زمنا ليس بالقصير ، وهو الاعتقاد بان الشعر لا يتصل الا بالجانب المثالي من الانسان . كلا ان ذلك ليس بصحيح ، فالشعر كما عبر عن الجانب المثالي ، عبر عن الجانب المنحط كذلك ، ولو انا قلنا ان موضعه من الانسان هو الجانب المثالي فقط ، لكنا مضطرين الى الغاء جزء كبير وهام من الشعر الانساني ، وهو الذي يصور الجانب السافل من الانسان ، او الذي يصطلح على تسميته (سافلا) بلغة الاخلاق . وذلك كشعر الحقد ممثلا في فن الهجاء ، فى لون من الوانه المتنوعة ، وشعر السخرية والاستهزاء ، وشعر الغريزة الجنسية غير المتسامية ، وكلها اشعار لها كل مقومات فن الشعر ، ولا سبيل الى طرحها جانبا ، لكونها تمثل جانبا من حياة الانسان ، وتعبر عن شعور حاصل فى لحظات نفسية معينة .

مرة اخرى اكرر اني افهم (حياة الانسان) وحدة ، لا فرق بين مادة وروح ، بين مثالي ووضيع ، ولا بين ناحية واخرى ، فكل نواحي الحياة الانسانية يتصل الشعر بها عن طريق مباشرة وغير مباشرة ، ويتخذ منها مجالا لنشاطه .

وبعد ، فما موضع الشعر من الانسان على وجه التحديد ؟

قبل التصدي للاجابة عن هذا السؤال ، لابد من ازالة ما قد يعترض سبيل هذه القضية من التباس ، مصدره ما يلاحظ من ان هناك كثيرين من الناس ، لا نرى شكليا للشعر موضعا فى حياتهم ، الامر الذي ربما يبعث على الشك فى مضمون هذا الحديث . فالحقيقة اني لا اقصد الحالات الفردية ، بقدر ما اقصد الحالات العامة ، فانت اذا وجدت جماعة من الناس لا تهتم بالعلم ، لا تتردد فى اقرار العلم فى موضعه من حياة الانسان ، وكذلك الامر بالنسبة الى الشعر ، فاهمال بعض الناس له ، وخلو حياتهم منه ، لا يطعن فى صحة النظرية التي نود شرحها بعد قليل . على اننا لو توسعنا فى مدلول الشعر ، لم يكن فى استطاعتنا تصور خلو حياة انسان منه ، حسب ما هو مشار اليه فى موضع آخر من هذا الحديث ، وفى احاديث سابقة بشيء من التفصيل .

موضع الشعر من الانسان على وجه التحديد ، هو ميله الفطري لان (يعيش) حياته بكل ابعادها

وطعومها والوان لذائذها ، بحيث يمتصها الى آخر قطرة ، ولا يترك منها معنى ولا مغزى ولا شكلا الا وتشربه ، واستنفذ معطياته . فلا شيء في هذه الحياة الذ ولا امتع ولا احب عند الانسان من ان (يعيش) وجوده على هذه الارض ، بكل ما تحمل كلمة عيش من معاني تعشق الذات ، والرغبة في اعطاء الحياة معنى ما ، والهيام بفتون الحياة المادية والمعنوية، واستغلال العمر في التقلب بين اعطافها ، والكلف بفتنة الحواس ، وما تنقله الى النفس من صور واصداء عن هذا الكون ، وتوسيع دائرة المجال الذي يشغله الانسان من عالمه ، وذلك قصد اثراء الحياة ، وانتهاز فرص العيش ، للثأر من الموت الذي يقف للانسان بالمرصاد .

وكل انسان مهما كان مستواه الحضاري ، الا ويجب ان (يعيش) على نحو ما يهديه اليه ما تهيأ له من تربية ، وما قدر له من تهذيب ، غير قانع من حياته بلقمة العيش ، ومستراح الجسد ، لذلك نجد الجياع تغنوا عاطفة الحب ، والعراة ارسلوا اناشيد الحماسة ، وحتى اذا لم يجدوا اللغة المعبرة الموحية ، ارسلوها صيحات تثير المشاعر ، وبثوها نفثات تهيج الخواطر ، كيفما اتفق ، وبأية وسيلة من الوسائل .

وعلى قدر ما يحب كل قوم (العيش) بالمعاني المتقدمة ، يكون شغفهم بالشعر وكلفهم به ، فلا غرو اذا كانت للشعر صولة في العصور الماضية ، اذ ان الناس كانوا يتفننون في العيش ، اكثر مما يفعلون في ايامنا هذه . كانت حياتهم تتميز بالبطء ، ومع البطء تكون الدعة ، ومع الدعة تكون الاناة في تناول الاشياء ، ومع الاناة يكون التذوق المتمهل ، والشرب من كأس الحياة شيئا فشيئا وعلى مهل ، وهذا هو العيش في معناه الصادق . وابن ذلك مما نشهده في عالم اليوم ، من سرعة جنونية تصيب الراس بالدوار ، حتى لكأن الانسان جن جنونه ، فهو يتغذى في قارة ويتعشى في اخرى ، وتسيطر الآلة على جميع مرافق حياته ، يتخطف عيشه تخطفا وينهبه نهبا ، تقوم صلاته بالناس على اساس المصالح والمعاملات المبنية على حساب صارم لا يرحم ، مقام الثقة والمودة والمصافاة التي كان لها موضع بين الناس قبل اليوم . لهذا ولغيره من الاسباب انحسرت موجة الشعر ، وتخلى عما كان له من سلطان . ويوم يعود الناس الى تذوق العيش ، يعود للشعر سلطانه العتيد ، وعزه القديم .

الرغبة في العيش والانغماس فيه من فرع الراس الى اخمص القدم ، هي موضع الشعر من الانسان على وجه التحديد ، وكل ما نظمه الشعراء ليس الا تعبيرا عن تلك الرغبة ، حتى بالنسبة لاولئك الشعراء الذين اظلمت الدنيا في عيونهم ، وفاتتهم نواحيها المشرقة المضيئة ، فعزفوا عن طيبات الحياة ومباهجها ، وفرضوا على انفسهم التبتل والشظف ، لا نستثنيهم من ذلك ، فهم يتذوقون العيش ويأخذون به على شاكلتهم ، واذا فاتتهم الطيبات المتاحة لغيرهم ، استعاضوا عنها بالاستغراق في متاهات الظنون واودية الخيال ، بحيث تحول فن العيش عندهم من واقع حي معاش ، الى مطارحات الفكر ، وتهاويل الاحلام ، ومذاهب العاطفة .

وداب الانسان ان يتذوق عيشه على هذه الارض، بكل ما فيه من سامي وساقط ، من كبير وصغير ، من مادي وروحي ، من خاص وعام ، بكل نفس من انفاسه، وكل اختلاجة جارية من جوارحه ، وكل حركة من انامله ، وكل نظرة من نظراته ، وكل خطوة من خطواته. (يعيش) عند ما ياكل ، وعندما ينام ، وعند ما يلبس ، وعند ما يسافر ، وعند ما يسير ، وعند ما يتحدث ، وعند ما يتعبد ، وعند ما يهوى الجنس الآخر ، وعندما يتأمل ، وعند ما يصادق ، وعند ما يخاصم ، وهكذا في كل صور حياته وانماط نشاطه وسلوكه . وما علاقة الشعر بكل هذا ؟ انه هو الذي يعمقه ، ويثريه ، ويوسعه ، حتى لتنقلب اللحظة الى حقبة ، واللمحة الى جولة ، والومضة الى شلال من نور ، والعمر القصير الى سلسلة اعمار ، لا حصر لمآتيها وآفاقها الواسعة .

ارايت الى أن الشعر لا يختص بالروح دون المادة ، وانما يشمل الحياة الانسانية بمختلف نواحيها، وينطلق في جميع اتجاهاتها صاعدا معها اذا صعدت ، نازلا معها اذا نزلت ، دائرا معها اذا دارت حول نفسها. وهذا سر هذا التنوع الكبير الذي نجده بين الشعراء، باضافة ذلك الى اختلاف طبائعهم وميولهم . فمن شاعر آخذ من الحياة بمزاج معتدل ، الى شاعر مفرق في الحس كاف بفتنة الحواس ، الى شاعر يأخذ المحسوس ليرقى به الى مستوى الاشياء المجردة ، الى غير هؤلاء ممن لا يحصى عددا .

لقد كان ابن الرومي بارعا جدا عندما شبه صاحبته (وحيد) بالعيش حيث قال :

اهي شيء لا تسأم العين منه
أم لها كل ساعة تجديد ؟

بل هى(العيش)لا يزال ـ متى استعـ
ـــرض ـ يملي غرائبا وبغيـــد
منظر ، مسمع ، معان من اللهـــ
ـــو ، عتاد لما يحب عتيـــد

نعم ، هو العيش الذي لا تنتهي غرائبه ، فكلما استعرضته تكشف لـك عن مزيـد من الاعاجيـب والغرائب ، وما أقوى الشبه بينه وبين تلك الحسناء التي كلما جدد الشاعر النظر اليها ، كلما فاضت عليه بروائع المعاني وبدائع الصفات . بيت القصيد عنـدي ها هنا ، ان الشاعر بعد ان ابدع فى وصف (وحيد) المغنية ، ففتننا بوصفه بقـدر ما فتنتـه صاحبتـه ، بشعر وكأنه ما زال لم يقل فى وصفها شيئا ذا بـال ، فياتي بهذه الاداة الدالة على الاضراب (بل) ليثبت لها انها (العيش) وكأن هذه الصفة تتفوق على كـل مـا قدمه من وصف رائع لوحيد ، وتجمل مفاتنها وروائعها وقدرتها دائما على الايحـاء بالجديـد من الخواطـر والمعاني ، كالشأن فى (العيش) تماما . ومن اجدر من ابن الرومي فتنة بلذائـذ العيش ، وهـو الانـسـان المفتون بحواسه ، الغارق فى لذائذ حسه ، العاشـق للحياة بكل عصب فيه ؟ .

وساكتفي بهذا المثال مستغنيا به عن غيره ، لانه يقوم ـ لصدقه وعمقه ـ مقام عشرات الامثلـة ، في الدلالة على ما نحن بصدده من ايضاح ان موضع الشعر من الانسـان بالتحديد ، هو رغبته فى العيش بأدق مـا تحمله هذه الكلمة من معنى ، لانه مثال لا يصدق على الحالة الفردية فقط ، وانما يصدق ايضا على احـساس كل شاعر ، بل كـل انسان ازاء ما يثيـر عواطفـه من مجالات الحياة ومظاهرها .

هذا الموضع الذي يضع الشعر فيه نفسه بحكم طبيعته ، تشاركه اياه الفنون الجميلة الاخرى ، فكلها وسـائل تحقق للانسان ان يعيش عمره على هذه الارض بكل ابعاده ، ويتذوقـه بكل دوافـع الحيـاة فيـه ، ويتشربه الى آخر قطرة ، ويتنفسه الى آخر نسمة . ولكن لا احد بقادر على الزعم بأن هناك فنا يضاهـي الشعر ، فى قدرته على تلبية رغبات الانسـان كلهـا ، عقلية وروحية ، مثالية وعادية ، واضحة وغامضـة ، خاصـة وعامة ، مثلما يفعل الشعر . وما ذلك الا انـه علاوة على طبيعته الخاصة ، يمتص مزايا الفنـون الاخرى ، مكونا من الجميع مزاجا فريدا يجعله أقـدر من غيره على تلبيـة حاجـات الانسـان الشعوريـة والعقليـــة .

فاس : عبد العلي الوزاني

ذكريات جامعية

للدكتور زكي المحاسني

ليت الذكريات الحلوة لا تجاورها الذكريات المريرة ، وما كان بطوق الانسان ان يفصل بعض ذكرياته عن بعض ، ولو استطاع ذلك لحبس مكدراته واطلق مسراته مثل طيور بيض ترفرف عليه .

حين جئت مصر عام 1943 لاحصل على الدكتوراه فى الآداب من جامعة فؤاد الاول ، اعترضني باب الماجستير دون الدكتوراه وهو مجاز لابد منه للعابرين مثلي . ولم اكن صنعت من كتبي المطبوعة سوى (النواسي شاعر من عبقر) ومعي مخطوطة عملتها في تاريخ الادب منذ امرىء القيس الى شوقي اسميتها « عباقرة الادب » وطائفة كبيرة من البحوث والمقالات فى المجلات الادبية والصحف العربية .

كنت احس بانقباض النفس اذ تعلق امري على مجلس الجامعة ، وما يكون من عقده ، حين ينعقد ، ومعي اطفالي الثلاثة وزوجي ، ولم يكن مالي مسجحا ، فلبثت منطويا على احزان لا تزول ، فاذا اخذت نفسي ببعض السلوى فرحت تحت العشيات الى ضفاف النيل، رايت الناس يمرحون ولم اجدني فرحا ، فكنت سادرا فى ظنون الخيبة ، وقد ضربت مستقبلي بوجه القدر ، اما لهذا واما لذا — كما يقول ابو الطيب المتنبي — فى فورات امله الخائب . وكان لابد من ان احصل على مبررات الاقامة شأن الاجنبي الدامر على البلد العربي العريق ، وتعليق امري بكلية الآداب لارجاء فى انفراجه عما قريب ، فقال لي قائل من بلدي :

— عليك بكلية الحقوق ، فقسم الدكتوراه فيها مباح لمثلك ممن حصلوا على اجازة الحقوق ، وحين وجدت اجازة الآداب التي معي لم تضمن لي ما ابتغي ، وجدتني بعد يومين ممتعا باقامة أشهر ستة فى بلهنية وراحة وأمن مقيم . وقد اشتريت الكتب التي للدكتوراه فى الحقوق وعكفت على الحضور ، وليست بغيتي فيه ، وما اوفدتني الحكومة السورية الا لاحصل على الدكتوراه فى الادب ، وقد ثابرت على دراسة القانون وحضرت محاضرات الاستاذ العظيم « بيير جوغيه » فى الحقوق الفرعونية العتيقة بالفرنسية ، ولقيت ذلك المواطن الذي دلني على مبررات الاقامة فقال لي :

— مالك جادا فى الحضور بكلية الحقوق وانا مثلك ، لكني لا احضر .

— وكيف تصنع ؟ . .

— ادبر نفسي .

فلم آبه لنصحه ، وطفقت مثابرا على الحضور حتى انفرجت ازمتي فى مجلس الجامعة فقرر قبولي للدكتوراه على ان اقدم بحثا ينوب مناب درجة الماجستير ، فوهبت من شدة الفرح كتبي لطالب من بلدي حضر لتلك الدراسة الحقوقية وخرجت منها لا علي ولا لي .

وكان للدكتور طه حسين — مد الله بعمره المجيد — يد كبرى فى مساعدتي وتذليل صعابي .

ولم اكد احصل على تلك النعمة الالهية ، واجد بين يدي بطاقة التسجيل بقسم الدكتوراه فى الجامعة المصرية حتى جن حساد نسوا اني من ابناء جلدتهم ومن بلدهم ، وكانوا حضروا لمثل ما حضرت ، غير ان أعمالهم فى الفكر والادب كانت ادنى ولم يبلغوا شاوي، فلقيت من كيدهم ما يلقى البريء من الدنيء وحكمت منذ ذلك اليوم على النشء العربي بانه اذا لم يتجرد من الحسد والضغائن فانه لا محالة هالك ولن يكون به نفع للامة العربية .

وكانت قمة الكيد لي ان تجرا واحد من الآثمين فارسل رسالة الى ضابط الجوازات بأنني دخيل على البلد ولست موفدا وقد عبرت الحدود بغير جواز .

وفيما انا بفندقي ومعي اطفالي وقد هاجمهم حر مصر وهو المسمى (حمو النيل) وعليهم حرارة الاجسام ودبيب المرض ، اذ بشرطي يطلبني :

— ماذا تريد أيها السيد ؟ ..

— ان ترافقني الى المخفر ..

فهالني ما كنت اجد وصحبني الى ضابط يرقص الغضب على وجهه فابتدرني ؟ ..

— كيف كان معك الجراة فى دخول بلادنا بغير جواز ؟ ..

— كلا يا سيدي ان معي جوزا .

— واين هو ؟

— انه فى كلية الآداب عند المسجل .

وادركت للحال ان الجامعة قد حل منذ ايام موعد اجازتها النصفية ، فغلى الدم بالراس واسقط بيدي فرجوت الضابط امهالي الى الغد واحضر له وثائقي وجوازي فامهلني بعسر . وطرت الى منزل المسجل الاستاذ عباس فوجدته متاهبا للسفر الى الريف فرجوته الذهاب الى الكلية لاعطائي اوراقي التي عنده وفيها جواز السفر وكتاب وزارة الخارجية السورية بايفادي ، فاحضرت له سيارة وعدت ببغيتي التي ستجيء فى الغد عند ضابط الشرطة .

وغدوت ظافرا ، فبكرت على الضابط الذي لقيني بتجهم ولم يلبث وجهه ان انفرج حين اطلع على وثائقي وايقن اني موفد الحكومة للدراسة العالية الجامعية ، وان معي زوجي واولادي بجواز سفر رسمي خاص وما راعني الا ان جمع فى فمه ريقه ثم بصق بجانبه ، وهو يقول :

— على الرجل الذي وشى بك الينا بكتاب ارسله بالبريد ، فلا تؤاخذنا يا استاذ .

واقبل علي مبردا لوقد احزاني واعاد الي اوراقي ونهض يمشي معي مودعا حتى الباب !

ويا هول ما رايت عند الباب الخارجي لوزارة الداخلية .. لقد رايت ذلك الرجل الذي شككت به فى الاقدام على هذه الاساءة فابتدرني :

— ما ذا تصنع هنا ؟ ..

فاجبته جوابا جافا وعبرت طريقي منصرفا فرحا وعائدا الى اولادي ومعي الدواء لهم مما كانوا فيه ، فقصصت على زوجتي ما جرى لي واشتركنا معا بصب اللعنات على الحاسدين .

ثم صرت ابصر جمال شفاف النيل وارتاد بالاصباح حديقة « الاورمان » العجيبة فى تنسيق اشجارها وتهدل ازهارها ، اقتعد غاربا عاليا على شجرة وتحتي ازاهير اللوتوس والنيلوفر وكنت اسمع اصوات العنادلمفردة على الصفصاف والنخيل ، وما كنت من قبل احس بوجودها فى طول ما كنت اجلس سادرا باحزاني فى حديقة الاورمان .

وصار رفاق من بلدي ممن يؤثرونني يحضرون لتهنئتي بالقبول فى قسم الدكتوراه للادب العربي بالجامعة المصرية فكنا نجلس فى حديقة « الاورمان » فمرت اوانس وجلسن بقربنا وهن يلبسن القمصان الحمر والصفر فعزم علي استاذ منهم ان اقول فيما اشاهد فقلنا نبدل الابيات التي يقول قائلها :

بالله يا ذات الازار الاسود
ماذا صنعت بعاشق متعبد

قد جاء للمحراب يقضي نسكه
حتى وقفت له بباب المسجد

فقلنا :

بالله يا ذات القميص الاحمر
ماذا صنعت بطالب متحير

قد جاء «للاورمان » يتلو درسه
حتى برزت له بأبهى منظر

واخذنا بضحك وسلوى انسينا الاغتراب ومتاعب التحصيل ، وقد جازت بنا السنون فوق الثائرين .

دمشق : الدكتور زكي المحاسني

تحليل نقدي لنظرية الفيض عند الفارابي وابن سينا

للأستاذ : عبدالله الحجامي

تمهيـــــد :

يحتل الفارابي (259 هـ 339 هـ) وابن سينـــا (370 – 428 هـ) مكانة ممتازة في الفكر الانسانـي ولا يختلف اثنان في تقدير عبقريتهما او الاشادة بسعـــة علمهما وعميق نظرهما فالاجماع من الخصوم والاصدقاء على ذلك وانما يقع الاختـــلاف حولهمـــا حين يوزن انتاجهما الفلسفي بمقياس الاسلام عند جماعة وبالابتكار والاستقلال الفكري عند جماعة اخرى ، ولاجل هـــذا اعتبرا في حساب البعض من الصوفية المخلصين ونشازا في الفكر الاسلامي بل وكفرة مارقين في حساب البعـض الآخر أو تلامذة مخلصين لليونان على احسن الفروض.

ولكل من هؤلاء واولئك وغيرهم سند من حياتهما وآرائهما ، غير انهما ، ورغما عن كـل شيء ، ستمكث عبقريتهما واصالتهما في جل ما كتباه فوق الشبهـات، ولعل من ابرز الآراء التي اخذ عليهما بسببها واثيرت حولهما الظنون والشبهات وقيل فيهما اكثر ما قيل ، هي محاولتهما لتفسير نوع الاتصال بين الله والعالـم وهي المحاولة التي عرفت في الفكر الفلسفي بنظريـــة الفيض الالاهي ، وارتبطت باسمهما ، وكانا يهدفان من ورائها الى التوفيق بين الفلسفة اليونانية والاسلامية في قضية من اهم واعوص قضايا الفلسفة ، الا انهمـا رغم ما بذلاه من جهد جهيد في هذا السبيل لم يوفقـا لهدفيهما وتخلى عنهما النجاح كلية وأثارت نظريتهمـــا من الشكوك والتساؤلات أكثر مما بعثته من الاطمئنـان ان كان هناك من اطمأن بهـا ورضيها لنفسه شرعـــة ومنهاجـــا ...

بيــن يــدى النظريــة

يستحسن ان نمهد لعرض النظرية بكلمة توضح الاساس التي انطلقت منه الفكـــرة ، مقتصرين على الاساس المباشر دون استقراء للتفصيلات واسبابهـا ، لهذا سنترك جانبا قضية الالوهية وما دار حولها مـن جدل طويل ومتشعب ، لنتعرض لجوهر موضوعنـــا الذي هو محاولة تفسير الصلة التي تربط بيـن الالاه والعالم ، وهي محاولة اختلفت فيها الآراء وتخاصمت فيما بينها ، وادلت كل فرقة بدلوها في الموضوع سواء كانت فلسفية او فرقة صوفية او كلامية ، والنظريـــة التي نحاول عرضها الآن تعتبر رايا في الموضوع لجماعة من الفلاسفة المسلمين بهرهم الفكر اليوناني ووقعـوا تحت تأثيره ، فكـــان لذلك – كما سنرى – رايهـم تجسيدا لهذا التاثير القوي الخارق .

ويلاحظ ان الحلول التي قدمت في هذا المضمار تتخذ اتجاهيـن :

1) الاتجـــاه الاول :

وهو يرتضي صلة السببية اي ان الارتباط بين الله والعالم هو ارتباط المسبب بسببه والمعلول بعلته ، ويقرر ايضا بوضوح ان العالم حـــادث ومخلوق لله تعالى بارادته وعلمه وانه تعالى ما فعل ذلك عبثا وان

خلقه للعالم كان من العدم مع تفسير العدم بالنفي المطلق الذي لا تشوبه اية شائبة من انواع الوجود ، وعلى هذا الاتجاه علماء الاسلام متكلمين وفقهاء وصوفية صادقين مع ملاحظة انه يؤخذ من آراء بعض المعتزلة رحمهم الله ، انهم يرون ان العدم الذي توجد منه الاشياء لايعني الفراغ المطلق ، وانما هو ذات يحتوي جواهر الاشياء قبل ان توجد وهو منهم تاثر بالفلسفة اليونانية لايقدح في سلامة معتمد مذهبهم مذهب المسلمين جميعا .

2) الاتجاه الثاني :

وهو لايرتضي كالاول صلة المعلولية ويرى بدلها ان الارتباط متصل بين الله والعالم ، ويضعون بين الوجودين وسائط عقلية يفترضونها وفق شكل معين كما سنرى — وهذا الاتجاه نصادفه عند فلاسفة اليونان الذين لم يقولوا بحدوث العالم بما فيهم افلاطون المعروف بين المتكلمين انه قال بحدوثه وهو امر — كما يقول علي سامي النشار — لم يقل به افلاطون ابدا ، ولكنهم هكذا شاءوا فهمه كما شاؤوا فهم أرسطو في صورة افلاطون »

وقد تبنى هذا الاتجاه مع اختلاف بسيط الفارابي وابن سينا في نظريتهما التي هوجمت من طرف علماء الاسلام على اختلاف مشاربهم وبينوا تهافتها ومصادمتها للاسلام في كثير من عناصرها .

نتيجة الاختيار

ان الفارابي وقد اختار الاتجاه الاخير وجد نفسه في موقف حرج ، وانه مطالب بتبرير اختياره تبريرا مقبولا من طرف الاسلام ، فقام بجراة كبيرة واعلن باديء ذي بدء ان الحكمة اليونانية — التي وصلته مشوهة — وكذلك درسها — لاتصادم الدين الاسلامي ، ومن ذلك فانه يمكن الجمع بينهما اذا ما فسرت الآيات القرآنية تفسيرا فلسفيا وفهمت اشاراته ورموزه ! ذلك ان النظر حق والدين حق ومحال ان يتضاد الحق مع حق آخر ، لان الحق واحد لايتعدد وليس بعد الحق الا الضلال .

وانطلاقا من استنتاجه هذا الغير المسلم — لانه نفسه لا يستطيع البرهنة على دلالة الافكار التي اعتمدها على الحق دلالة قطعية حتى يلزم الغير — نقول انطلاقا من استنتاجه المتقدم يقوم بمحاولات كبيرة للتوفيق بين الدين الاسلامي والحكمة اليونانية ، وفي سبيل ذلك سعى اولا للتوفيق بين الفلسفة اليونانية وازالة ما فيها من تناقض ، فجمع بين آراء الحكيم افلاطون وأرسطو ...

لقد كان الفارابي شغوفا بعمليات التوفيق بين الآراء ، وما نظريته في الفيض الالاهي الا من هذا القبيل ، فهي ترمي الى ايجاد تفسير مشترك بين الحكمة اليونانية والاسلام لصلة الله بالعالم ، ونكرر ان محاولته لم تلق اي نجاح يذكر في حظيرة الفكر الاسلامي الذي اوصد ابوابه دونها فتساقطت من تلقاء نفسها وما عاشت الا كفكرة مجردة عن كل تطبيق وما كانت لتثير ما اثارته لولا ان اصحابها وحفنة من المغرضين ارادوا اقحامها في دنيا الاسلام وجعلوها منه ، وبسبب ذلك هوجمت وانتقدت حتى من طرف ابن رشد اكبر المدافعين عن الفلسفة ورجالها .

الفيض عند الفارابي

سنحاول عرض النظرية مشيرين اثناء ذلك الى ارتباطها بالفلسفة اليونانية وخاصة الافلاطونية المحدثة مع التنبيه لبعض مآخذ الفكر الاسلامي على النظرية قدر المستطاع ومعتذرين عن عدم الاشارة لمصادر البحث لغيابها عنا اثناء الكتابة وبالله التوفيق .

يومن الفارابي بصدق وكباقي المسلمين بالاله وبوحدانيته ويشرح مفهومه للوحدانية بان الله « واحد لافرق بين ذاته وعقله ... فهو العقل والعاقل والمعقول وهو العلم والعالم والمعلوم .. ولا يدخل تحت تحديد من التحديدات التي تنطبق على الممكنات » وهو نفس المفهوم الذي نجده عند ابن سينا الذي يرى انه تعالى « هو الوجود المحض والخير المحض والعلم المحض .. من غير ان يدل بكل واحد من هذه الالفاظ على معنى مفرد على حدة لان المعنى والذات شيء واحد ... » وهذا مفهوم يخالف مخالفة محمودة ارسطو الذي قرر وجود واجبي الوجود هما الله والمادة الا انه يخالف ايضا علماء الكلام في اثباتهم للصفات معتزلة وغيرهم مع فرق في درجة الخلاف ، ويظهر اصحابه بمظهر من يسلم بقدم العالم لانهم — فيما سنرى — يقولون بان الموجودات صادرة عن الله بسبب علمه لذاته وحيث ان علمه هو نفس ذاته فعلمه قديم قدم ذاته وبالتالي قدم ما يصدر عن علمه بطريق الفيض وهي الموجودات او على الاقل الموجود الاول بعد الله !

ويظهر الفارابي بسبب تفسيره السالف للوحدانية — ما دام يرفض صلة العلية — الى تكلف الاجابة على التناقض الذي يسوقه اليه ايمانه بمسلمات فلسفية مثل ايمانه بان الكثرة لا توجد من الواحد ،

والشيء لايوجد من غير جنسه ، والمتغير (العالم) لا يصدر عن غير المتغير (الله) ... الخ فكيف اذا يفسر الفارابي صدور العالم عن الله وهو واحد والعالم كثرة متغيرة والله واحد لا يتغير والعالم من غير جنسه ؟ ، ان فيلسوفنا الكبير لا ينكر حقائق هذه الاشياء ولكنه لا يسلم بما يبدو بينها من تناقض بل يؤكد ان مصدر الكل هو الله لكن بطريق غير مباشر ، الا ان شرحه لطريقة صدور الاشياء عن الله بواسطة يضطره لرفض الاتجاه الاسلامي القائم على تفسير السببية اي ان صلة الله بالعالم هي صلة الصانع بمصنوعه ، وبدلا من ذلك وانسجاما مع مسلماته يقدم كجواب للتساؤلات اعلاه – وكبديل لنظرية علماء الكلام نظرية « الفيض » المتناسقة ، وهي ترتكز على انه اذا كان الواحد لا تصدر عنه الكثرة فالواحد قد يصدر عن الواحد ، وبعدها يعلن الفارابي ان الذي صدر عن الله مباشرة هو واحد اسماه بالعقل الاول او المبدع الاول ، وعنه صدر العقل الثاني وصدر عن الثاني عقل ثالث وهكذا الى العقل العاشر واهب الصور والذي صدر عنه العالم السفلي عالمنا الارضي

ان الفارابي بهذا التخيل ملأ الفراغ او العدم الذي سبق الكون بهذه العقول العشرة التي جعلها واسطة بين الله والعالم ولم يتصور ان بينهما فراغا مطلقا وعدما محضا قد وجد تمنه الكائنات ، ومنحاه هذا – كما هو واضح – يخالف الفريق الذي يصرح بحدوث العالم من العدم المحض بعلم الله وارادته .

اما كيفية صدور هذه العقول عن الله فانه يذهب الى ان الاشياء تصدر عنه تعالى بمجرد علمه لذاته لا بارادة او قصد او غرض .. الخ وقد اختار هذا لينفي عن الله – فيما يعتقد – ان تكون له مصلحة او غرض من وراء افعاله او يكون علمه متغيرا .. تعالى عن ذلك علوا كبيرا – ويعبر عن ذلك بقوله « ان وجود الاشياء عنه لا من جهة قصد يشبه قصودنا ولا يكون له قصد الاشياء ولا صدرت الاشياء عنه على سبيل الطبع من دون أن يكون له معرفة ورضا بصدورها وحصولها وانما ظهرت الاشياء عنه لكونه عالما بذاتهوانه مبدا الخير في الوجود على ما يجب ان يكون عليه فاذا علمه علة لوجود الشيء الذي يعلمه » فبعلمه لذاته فاض عنه العقل الاول الذي يشتمل على نوعين من الكثرة هما :

ا – ثنائية : وهي آتية من تفرقته بين الماهية والوجود .

ب – ثلاثية : وهي آتية من الادراكات الثلاثة المتخيلة للعقل ، فهو :

1) يدرك المبدا الذي فاض عنه وهنا يفيض عنه بدوره عقل ثان خاص به

2) يدرك ذاته وانها واجبة الوجود لعلة وهنا تفيض نفس الفلك الاول

3) يدرك ذاته وانها ممكنة الوجود ، فيفيض عنه جسم الفلك الاول .

وعن العقل الثاني وبنفس التصور يفيض عقل ثالث وفلك ثاني ونفس هذا الفلك وعن العقل الثالث يفيض عقل رابع وفلك ثالث ونفس للفلك الثالث

وهكذا تتسلسل عملية فيض العقول والافلاك والنفوس الى ان تصل الى العقل العاشر او العقل الفعال وهو يدرك العقل الاول فتفيض عنه النفوس البشرية ، ويدرك كل العقول قبله فتفيض صور الاشياء وعند ادراكه لذاته تفيض عنه العناصر التي تنشأ عنها الاشياء .

والعقل العاشر هو الذي يتحكم في عالم الارض عالم العناصر الاربعة ، وعن طريقه تتصل العقول البشرية بعالم الغيب حيث تتكشف امامها اسرار الكون وتطلع على الغيب وتتم سعادتها ، وهي منزلة لاتصل اليها الا العقول البشرية المستفادة ، ويتم حصول العقل المستفاد اما :

ا – بطريق الحكمة والبحث والنظر وهو طريق الحكماء كما يعتبر احسن الطرق ، وربما اخذ عليه البعض بسبب هذا انه ينكر النبوة ...

ب – الطريق الثاني للحصول على العقل المستفاد من العقل العاشر هو طريق النبوة بواسطة المخيلة القوية او الالهام ...

والعقول المستفادة التي تستطيع الوصول الى هذه المنزلة التي لا مطمح بعدها.. تأتي في طليعةالعقول البشرية التي صنفها تصنيفا ، تصاعديا على خلاف ترتيب العقول السماوية مبتدئا بالعقل بالقوة عند الطفل منذ ولادته ثم العقل بالفعل ويحصل بالتعلم والاحساس ثم العقل المستفاد ويحصل بالتعمق في البحث والتفكير والممارسة ، عند الحكماء وبالمخيلة القوية عند الانبياء ، فالعقل الانساني يمر اذا بالمراحل الثلاثة ليتصل بالعقول السماوية ويعلم اسرار الكون ويطلع على صور الاشياء قبل ان توجد

تلك باجمال نظرية الفيض الالاهي عند الفارابي الذي اعتقد انه بفضلها يستطيع دون كبير مشقة وضع العمامة على راس افلاطون وارسطو وجعلنا نعتقد انهما من شيوخ الموحدين وفي سبيل ذلك لا نراه يتردد في استخدام كلمات قاسية مثل القبح والاستنكار في حق من فهم عن افلاطون انه يقول بقدم العالم مع انه في واقع الامر ما قال الا بقدمه لو تحقق الفارابي كما فعل بعده ابن رشد .

وهذا التعصب الشديد لفلاسفة اليونان وتنزيههم حتى عن اقوالهم نلحظه لدى كثير من الفلاسفة المسلمين واكرر عبارة الفلاسفة المسلمين ، فهذا مثلا راس المذهب الاشراقي السهراوردي يجعلهم من جملة الاصفياء والانبياء والاولياء كاغاديمون وسقراط وافلاطون وامثالهم ... وذلك .. لتخلقهم باخلاق الباري بتجردهم عن المادة من جميع الوجوه ... » ! !
ولئن استطاع الفارابي ان يحل مشكلة المادة عند ارسطو ويظهر الفكر اليوناني في شكل اكثر تناسقا عما كان ، فانه في صميم هدفه لم ينجح مطلقا ولم يستطع التوفيق بين الفكر اليوناني والاسلامي وعاد بعد جهد جهيد الى النقطة التي انطلق منها وحاول نكرانها وهي نقطة تعارض الفكرين .

سبب الفشل :

ان سبب فشل الفارابي في محاولته التوفيقية يعود الى الاختلاف ـ الذي لا يمكن تفاديه بين طبيعة الفكر الاسلامي واليوناني ـ فطبيعة الميتافيزيقيا الاسلامية مؤمنة وهادفة ، كما رسما القرآن الكريم وسنة النبي الامين ، ولا تسمح بفسح المجال للتلاعب بالافكار او الخوض في تصورات فوق طاقة العقل الانساني ... اما الميتافيزيقيا اليونانية فملحدة بطبيعتها تعتقد بفناء الفرد وخلود النوع ولا تدري من امر البعث شيئا او ما يستتبعه ، ولا تتصور قوة تعلو على الوجود العقلي ، ومن ثم لم تدرك فكرة الالاه الذي يبدع الاشياء من العدم المحض وصرحت بقدم المادة ، وهو تناقض حاول الفارابي تجنبه بالعقول المتخيلة فلم يفلح في مسعاه وضل الاسلام اسلاما والفلسفة اليونانية يونانية ، ولن يكون الامر على خلاف ذلك .

النظرية عند ابن سينا :

ان النظرية عند الفارابي هي نفسها عند ابن سينا وما بينهما من اختلاف لايمس الجوهر انما يعود لطبيعة دور كل منهما ، الاول استلهمها واعطاها الحياة ، والثاني ابرز هذا الوجود في شكل اكثر تناسبا . فابن سينا كالفارابي يعتقد باستحالة صدور المتعدد عن الواحد ... لهذا نجده يتقبل منه فكرة الفيض لتفادي التناقض الذي تسوقه اليه مسلماته ، كذلك استغل التفرقة بين الماهية والوجود التي قال بها الفارابي ونسبت اليه خطأ فجعل لكل العقول المارقة للمادة ماهية ووجود ، وبهذه التفرقة امكن تعليل الكثرة المشاهدة في الكون مع الاعتراف بوحدة المبدأ الاول مبدع الكل ، وذلك لان الكثرة صادرة فعلا عن الواحد لكن بطريق غير مباشر ، فالالاه علم ذاته ففاض عنه بسبب ذلك العقل الاول أو العقل المبدع وهو رغم وحدته يشتمل على نوعين من الكثرة هي :

ا ـ العقل الصادر اما ممكن الوجود قبل وجوده «ماهيته »

ب ـ واما واجب الوجود لعلة « وجوده » .

وهذه الثنائية التي توصل اليها بسبب التفرقة بين الماهية والوجود تؤدي الى كثرة اخرى ثلاثية يحتوي عليها العقل الصادر عن طريق ادراكاته فهو :

ا ـ اما ان يدرك الموجود الذي فاض عنه هو

ب ـ واما ان يدرك ذاته وانها واجبة الوجود لعلة

ج ـ واما ان يدرك ذاته على انها ممكنة الوجود .

وكل ادراك يؤدي الى صدور شيء عن طريق الفيض ، فعن الادراك الاول يفيض عقل ثان ، وعن الادراك الثاني تفيض نفس الفلك الاول ، وعن الادراك الثالث يفيض جسم الفلك الاول ، وبنفس الافتراض تفيض عن العقل الثاني الامور الثلاثة (عقل ثالث ـ نفس للفلك الثاني ـ جسم للفلك الثاني) وهكذا تتوالى عملية الفيض في ترتيب تنازلي الى ان تنتهي عند العقل العاشر والعقل الفعال الذي يشرف على عالم الارض ، وبتآزره مع طبائع الافلاك تفيض عنه المادة .

ويلاحظ ان عملية الفيض التي تتابعت بنفس الافتراض عند العقول التسعة الاولى اتخذ شكلا مغايرا عند العقل العاشر من حيث الادراك ومن حيث ما يفيض عنه ، فالعقل الفعال (العاشر) يدرك العقل الاول فتفيض عنه بسبب ذلك النفوس البشرية وتفيض عنه صور الاشياء بسبب ادراكه للعقول المتوسطة ، وتفيض عنه العناصر الاولية لنشاة الكائنات بسبب ادراكه لذاته وعلى انها ممكنة الوجود ، ولا ندري لماذا حرموه من ادراك ذاته على انها واجبة الوجود لعلة ، وميزوه بادراكه لكل العقول ... الخ

ان تسلسل الفيض عند ابن سيناء يخضع للترتيب العقلي المتناسق كما تفطن لذلك الامام الغزالي عند عرضه الامين للنظرية قبل نقدها ، وذلك ان كل عقل تفيض عنه الاشياء الثلاثة باستثناء العقل العاشر (عقل ــ نفس فلك ــ جسم فلك) وهذه الثلاثة متفاوتة في السمو لان العقل اشرف من النفس والنفس اشرف من الجسم ، وهذا التدرج في الاعتبار يتناسب مع ادراكات العقل المتفاضلة فيما بينها ايضا في السمو

فادراك العقل للعقل الذي فاض منه اشرف من ادراكه لذاته وانها واجبة الوجود لعلة ، وهذا الادراك بدوره اشرف من ادراك العقل لذاته على أنها ممكنة الوجود ، وبهذا تاسب أن يفيض العقل عن الادراك الاول وتفيض النفس عن الادراك الثاني والجسم عن الادراك الثالث ، وعلى هذا الافتراض يتم التناسق بين مستوى الادراك وما يفيض عنه ويسهل تعليل التفاضل بين العقل والنفس والجسم ، وبين ادراك المبدا الاول وادراك الوجود وادراك الماهية ، وهذا البناء نجد الشيخ ابن سينا ، ومن قبله الفارابي ، يستلهم بعضه على الاقل من الفكر اليوناني وبشيء من التحديد من « الشيخ اليوناني » افلوطين الذي تصور للعقل دائرة استدارت على مركزها الذي هو الخير المطلق وحركتها حول مركزها هي حركة اشتياق ، وتصور للنفس دائرة لابعد لها ومركزها العقل وحركتها حول مركزها استكمالية خلاف حركة العقل السالفة ، كما تصور للعالم السفلي دائرة مركزها النفس ، وهي دائرة تخضع لترتيب تفاضلي ، حيث نجد حركة العالم حول النفس تطلبها تشبه حركة النفس حول العقل تطلبه وهي بدورها تشبه حركة العقل للخير المحض .

ان حركات العشق هذه في الافلاطونية المحدثة تتجه صوب المعشوق الاول الذي يفيض على جميع عشاقه بنوره اللامتناهي وان كان يقل أثره كلما ابتعدت عنه الموجودات .. كذلك نجد العقول العشرة التي حلت مشكلة صدور الاشياء عن الله في الافلاطونية المحدثة التي ترى ان المعشوق الاول ابدع عشاقه بتوسط العقل وتصفه بانه « ليس منه شيئا مما ابدعه ولا يشبه شيئا منه ولو كان كذلك لما كان علة الاشياء كلها ... » ولعل تحديد علم الفلك اليوناني للافلاك بعشرة هو الذي جعل الفارابي ثم ابن سيناء يحدد العقول المفارقة بعشرة لكي يشرف على كل فلك عقل .. الخ

خاتمة ودعاء :

ان الانصاف يجعل النظرية يونانية الاصل ومحاولة نسبتها للفلسفة الاسلامية ــ وهي منها براء ــ انما هو ادعاء تجن على الحقيقة ، واما ارتباطها بالفلسفة اليونانية فهو ارتباط وثيق ، ونحسب ان في اللمحات المقتضبة التي قدمناها ما يكفي لتلمس بعض من ذلك بيسر .. ورغما عن ذلك فالنظرية في بنائها النهائي تحمل بين طياتها الكثير من التساؤلات التي بقيت بدون جواب ... ونذكر ان ابن رشد رفض الفيض من اساسه حين خطأ ابن سيناء في مقابلته تفرقة الفارابي بين الماهية والوجود بتفرقة ارسطو بين الصورة والمادة . وقبل ابن رشد وبعده رفضت النظرية من حظيرة الفكر الاسلامي وبين الزمان تساقطها .

وبالرغم عن هذا التهافت الذي انجرف اليه الفارابي وابن سيناء في الفيض الالاهي ، فانهما بفضل ما امتازا به من عبقرية واصالة في كثير من اعمالهما العظيمة التي حفظ لنا التاريخ بعضها ، سيستمران على مر العصور كأكبر معالم الحضارة الانسانية .

فرحمة الله عليهما واجزل لهما الثواب والرحمة فما كانا في حياتهما يريدان به تعالى بديلا ، وما قصدا بعملهما الا توحيده وتقديسه ، فان زلت بهما الاقدام في عمل ارادا به الخير فأجرهما ثابت للاثر الوارد ، فيمن اجتهد واخطأ وحسبهما فضلا أن تعد هفواتهما .

لشبونة ــ عبد الله الحجامي



التنويم المغناطيسي بين العلم والشعوذة

للأستاذ ابن طالب زيان

يرتبط تاريخ التنويم المغناطيسي بتاريخ علم الاضطرابات النفسية على يد « مسمر » عام ثمانين وسبعمائة بعد الالف ، وان كان لا يختلف فى كنهه وحالته عما هو عليه فى الوقت الحاضر .

كان التنويم المغناطيسي منذ ذلك التاريخ مورد رزق ككل شيء جديد ناشيء ، الا ان الدجل كان يحوطه ، مما حدا بالدوائر العلمية ان ترفض استعماله ، او الاشتغال به فى محيط العلم ، او دنيا التجارب الطبية .

والواقع ان التنويم ، نشا نتيجة الوهم الذي يسيطر على كثير من الناس ، ولا يمكن التغلب عليه الا بهذا الايحاء . اذ كثيرا ما يشكو البعض مما يقاسونه من آلام وامراض ، فاذا ما نبهوا وتبين لهم ، ان هذا مجرد وهم ، ثم شجعناهم على السمو على هذه الآلام ، وقهر هذا الذي يشكون منه ، بان نجعلهم يعتقدون فى أعماق نفوسهم ، انهم أصحاء ، وان ليس عندهم ما يسبب وجود هذه الامراض فيهم ، فانهم لا يلبثون ان يشفوا مما يشكون منه ...

وهكذا كانت تعالج هذه الحالات بهذه الطرق الايحائية . فالتاثير فى المريض واستهواؤه بخلوه من الامراض ، وبفساد اعتقاده مما يشكو منه ، كانت الطرق المثلى التي يعمد اليها بعض الاطباء الاخصائيين فى العلاج النفسي مع مرضاهم الذي ليس لمرضهم اي سبب عضوي أو غير عضوي ، مما يكون ظاهر الملمس او يحتاج الى علاج بالعقار او المبضع ...

وتحت هذا العلاج الايحائي ، يدخل التنويم المغناطيسي ، كحالة متطرفة من حالات الاستهواء ، وان كان يكثر استعماله مع المرضى الذين يصعب التاثير فيهم ، وهم فى حالة اليقظة ، او لا يرتضون ان يكونوا كذلك على أي فرض من الفروض ...

وقد اشترط المنومون المغناطيسيون لكي يتم هذا التنويم ، ويأتي بنتائج طيبة ثلاث شروط او هي ثلاث حالات :

اولا — ان يقتنع الشخص انه سينام ، لان مقاومة المريض للمنوم ، تؤدي عادة الى نتائج سيئة ، او هي وخيمة العواقب ، ونجاحه اذا كان المنوم قوي العزيمة مصمما على النجاح فى تنويم مريضه .

ثانيا — ان يوضع الشخص النائم فى غرفة هادئة قليلة الاثاث ، ويستحسن الا يكون هناك اشخاص آخرون مع الطبيب .

ثالثا — يطلب من المريض ان يستريح على كرسي ، أو يستلقى على ظهره فى استرخاء تام ، ثم ياخذ المنوم فى عمله ، حتى يتم نوم المريض .

وليس عجيبا ان يستمر هذا الحال الى وقت الناس هذا ، وان كانت قد تكونت بعد نحو قرن على مما رسته على هذه الصورة ، مدرستان فى فرنسا ، احداهما فى « باريس » والاخرى فى « نانسي » تنافستا تنافسا شديدا فى استخدام التنويم ، واختلفت وجهتا نظريهما اختلافا كبيرا ، مما كاد يؤدي الى الفشل ، او

الى اغلاق المدرستين بغية الرياسة ، او السبق في الاكتشافات !!

كان العالم : « شاركوه » على راس مدرسة باريس ، وهو اخصائي في الاضطرابات العصبية ، ينادي بان « كل شخص يمكن تنويمه مغناطسيا يكون مصابا بنوع من « الهستريا » .

اما مدرسة « نانسي » فكان رايها انه يمكن ان تجري عملية التنويم المغناطيسي ، على كل فرد عادي بدرجة معتدلة .. اذ انهم كانوا في هذه المدرسة ، يعتبرون ان التنويم المغناطيسي ، مجرد حالة استسلام وقبول للافكار الموحى بها ، حتى انهم قد استعملوا هذا الراي في علاج الحالات العصبية ، وان كان « تشاركوه » عميد مدرسة باريس ، قد استعمل كذلك حقيقته ، او ما اهتدى اليه في فهم اصل « الهستريا » وعلاجها ، والبحث عن طبيعة التنويم وماهيته .

ولقد ساعد « شاركوه » على انتشار رايه ، وذيوع تعاليمه ، قدرته الفذة ، وتفوقه العجيب في ابحاثه ، فضلا عن اشتهار تلاميذه بالابحاث والتجارب، وحملهم رسالة استاذهم ، والسير بها قدما في سبيل انجاحها وريادتها وسيادتها .

والواقع ، أنه برز من بين هؤلاء التلاميذ : « بيير جانيه » وتفوق على اقرانه بدراسة الاضطرابات العصبية ، كما فعل استاذه ، واضاف اليها عام تسعين وثمانمائة بعد الالف ، أنه يمكن تحت تاثير المغناطيس ، أن يتذكر المريض حوادث لم يكن بمقدرته ان يتذكرها في اثناء اليقظة .

واستمر « بيير جانيه » يدرس انواعا متعددة غير « الهستريا » من الامراض العصبية كانواع الخوف من الاماكن المغلقة ، او الاماكن الخالية ، وحالات الخجل الشديد ، او قصور النفس ، حتى اكتشف ان هذه الاضطرابات تزول باكتشاف سببها الاصلي وملابساتها التي احاطت بها ، او كانت سببا في حدوثها .

وقد ظهر بعد « جانيه » علامة آخر ، هو « فرويد » الذي عاش ودرس في « فيينا » وذاع صيته من هذه العاصمة ، التي اصبحت تعرف به ، او احتضنت هي علمه وتبنت نظرياته التي ضرب بها المثل ، وهي عنوان الاصالة ، ومرتقب الانظار .

كان « فرويد » يشتغل بالطب ، ويهتم بالجزء العلمي منه ، فلما سمع بمدرسة باريس ، سافر اليها ، واعجب ايما اعجاب بابحاثها في التنويم المغناطيسي كعلاج للهستريا .

وفي اثناء استماعه دروس « شاركوه » واتصاله لنظرياته ، علقت بذهنه كلمة قالها هذا العالم، او هي نظرية من النظريات الكثيرة التي تناولها « شاركوه » في بحوثه واستنباطاته وتعريفاته : « ان اساس الاضطرابات العصبية « الهستريا » اضطراب في حياة الشخص الجنسية في الماضي » .

وما من شك ، في ان هذه الفكرة ، او هذه النظرية ، كانت موضع ابحاث « فرويد » المستقبلة التي قلبت علم النفس راسا على عقب ، فحين عاد « فرويد » الى « فيينا » بعد سنة قضاها في باريس، وبدا علاج الحالات العصبية ، وبخاصة الهستريا ، مستعملا التنويم المغناطيسي كطريقة اساسية ، وجد بعض الصعوبات في تنويم بعض الاشخاص ، ثم وجد كذلك : انه اذا نجح في تنويم بعضهم ، فان البعض الآخر ، لم يشف في كثير من الحالات ، فدفعه هذا الى ان يذهب الى « نانسي » ، ويتحمل المشاق في سبيل انتظامه في مدرستها ، وتلقى كثيرا من دروسها .. وجد « فرويد » مذهب هذه المدرسة : انه لا يمكن تنويم اي شخص عادي ، تنويما مغناطيسيا ، وانه يمكن ان تزول الامراض العصبية الى درجة كبيرة بالايحاء ، تحت تاثير التنويم المغناطيسي .

ولكن « فرويد » علم سر نجاح هذه المدرسة في نظرياتها من الاطباء انفسهم الذين يقومون بهذه العلاجات ـ علم : ان هذا النجاح يرجع الى معالجة الطبقات الفقيرة غير المتعلمة ، وهي القابلة دائما للايحاء بسرعة كبيرة ، على حين كانت عيادة « فرويد » في « فيينا » لا يؤمها غير جماعة الاغنياء من المتعلمين ، ذوي الدرجات العالية من الكفاية العلمية ، والذكاء النادر ، وهم بالضرورة ، غير قابلين لهذا الايحاء النفسي بنفس الدرجة التي عليها اهل الطبقة الاولى ...

وعندما عاد « فرويد » الى « فيينا » ، كان عليه ان يمضي في احد طريقين : اما ان يأخذ بتعاليم مدرسة « باريس » واما ان يسلك نفسه في تعاليم مدرسة « نانسي » ، حتى ينجح او تكتب لنظرياته البقاء ، غير انه اخذ يتارجح بين النجاح والفشل ، او الوصول الى القمة ، او الهبوط الى القاع ، حتى تعاون معه صديقه الطبيب « بروبر » وبعد جهد في دراسة كثير من هذه النظريات ، توصلا الى طريقة اوحت بها

اليهما احدى السيدات المعالجات هي : انه عندما يتركونها لتتكلم تحت تأثير التنويم المغناطيسي عن اضطراباتها النفسية بكلام مطلق صريح ، فانها تشعر بهدوء وتحسن في حالتها الطبيعية بعد التنويم ، ويمكنها كذلك ، أن تتذكر اشياء كانت منسية عن الاضطرابات النفسية ، فاذا تكلمت عنها مع الطبيب ، شعرت بالارتياح ، وعادت الى حالتها العادية .

وقد اجرى هذان العالمان بضع جلسات على هذه المراة ،حتى شفيت تماما من مرضها الذي لازمها زمنا طويلا ، مما كادت معه ان تفقد الامل في الشفاء . . .

على ان « بروبر » و « فرويد » ، قد شجعهما هذا النجاح على السير في علاجاتهما للمرضى ، فاتبعا التنويم المغناطيسي أولا ، ثم الكلام المطلق ، وهو المسمى « بالتنفيس العقلي » ـ ويظهر ان الحوادث التي تسبب الاضطرابات ويخزنها صاحبها لا شعوريا في داخل عقله ، تنبعث من رقادها مرة ثانية تحت تأثير التنويم المغناطيسي .

لكن لم يلبث « فرويد » و «بروبر » ، أن اوقفا استعمال هذه التجربة الناجحة وعدلا عنها ، الى طريقة أخرى ، اجريا تجاربها وثبت جدواها ، وهي طريقة التنويم دون الكلام المطلق الذي كان يأتي عقب استسلام المريض ، وافضائه بما ينطوي عليه صدره او يختلج داخل نفسه .

ولعل سائلا يسأل عن سر عدول هذين العالمين عن نظريتهما الناجحة ، أهو التحول من نظرية الى أخرى ، او اثبات علمهما بأكثر من نظرية ، او عدم التقيد بنظرية سابقة ، ليس لهما فضل ابتداعها او استنباطها . . ؟ ؟

يجيب « بروبر » عن سبب هذا العدول عن هذه النظرية ، بأن السيدة المريضة بعد ان شفيت ، أخبرته بأنها لا يمكنها ان تفارقه ، ولا يمكنها كذلك ان تبتعد عنه ، لحبها له وتعلقها به ! !

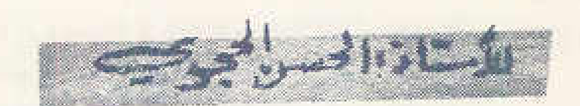
ومن العجيب أن هذه الحادثة عاشها « فرويد » أيضا مع احدى السيدات المريضات ، وشعر بحبها له ، وسيطرتها عليه ، وان كان « فرويد » لم يمكنها من ان تشغله عن ما هو بسبيله من البحث والدرس والاجتهاد والاستنباط . . .

وليس يخفى ، أن التنويم المغناطيسي ، قد لعب دورا هاما في تاريخ البشرية على يد علماء متخصصين، وان كان قد دخله كثير من الدجل ، اخل به ، واخرجه عن رسالته ، وباعد بينه وبين نفعه كعلم ، خطا خطوات واسعة ناجحة في علاج كثير من الامراض النفسية المستعصية التي حار فيها الطب ، وتعثر فيها كثير من الاطباء ! !

على انه أتى بعد « فرويد » علماء واطباء ، حملوا الرسالة ، وساروا بها واستحدثوا كثيرا من النظريات ، الا انه أخرجها عن وضعها الذي استحدثت من اجله ، الجهلة المشعوذون الذين يمشون في الاسواق ، ويأتون « بالبهلوانية » امام السذج من الناس ! !

القاهرة : أبو طالب زيان

التحكيم في الفقه والقانون



- 3 -

اصول التحكيــم وتطوراتــه :

رأينا في البحثين المتقدمين ان التحكيم كمؤسسة للتقاضي كاد ان يصبح على جانب من الخطورة لولا ان القانون قيده بعدة قيود وان فقهاء التشريع حصروه في نطاقات معينة خشية ان يطغى اثره على القضاء الذي هو المؤسسة العامة لاقامة العدل . كما اشرنا الى ان التحكيم يتوفر على عدة مزايا متجسمة في سرعة قراراته وفي قدرته على حل المشاكل ذات الصبغة التقنيــة .

لقد عرف الانسان التحكيم قبل ان يعرف القضاء، وبالرغم من ان المجتمعات المنظمة نصبت القضاة واحدثت المحاكم لاقامة العدل بين الناس ، فقد ظل التحكيم ملجئا نافعا لفض اصناف النزاعات على طريقة تخفف من مشقة الترافع وتضمن الوصول الى حلول عملية يرضاها الخصوم ، ذلك أن التحكيم نابع من الحاجة والضرورة ولم يكن قط وليد فكرة او فلسفة. والمتتبع لتطور التحكيم في الفقه والقانون يرى ان التحكيم نشأ وتطور مع التطورات الاجتماعية والاقتصادية وسائر المتطلبات والتقلبات البشرية ، فكان بذلك محط انظار الفقهاء عبر العصور سواء في الشرق او في الغرب ، واستهدف الى حركة مد وجزر غيرت وجهه ونقحت مواده في سلسلة من المجلدات المذهبية والمدونات القانونية .

والدليل على ذلك مدى الخلاف القائم بين ائمة المذاهب الفقهية حول صفة المحكمين وقوة الاحكام التحكيمية ، فقد راينا ان المالكية ينزلون المحكمين منزلة القضاة ويعطون لاحكامهم قوة الشيء المقضى به بينما المذاهب الاخرى ـ من شافعية وحنفية ـ تعتبر حكم المحكمين على وجه الشهادة او الوكالة ، كما ان هذه المذاهب على اختلافها غير متفقة في الراي حول لزوم حكم التحكيم ، فابو حنيفة ومالك متفقان في اللزوم ، والشافعي لا يجيزه ، وبذلك يمكن القول بان فقهاء الاسلام نظروا الى التحكيم نظرة حذر واتجهوا في تطبيقه اتجاهات لم يكن الغرض منها فحسب هو التخفيف عن القاضي وعن الناس من مشقة الترافع او الرغبة في ايجاد الحلول الناجعة لشتى النوازل ذات الصبغة الخاصة المتسمة بنوع من التعقيد ، بل اجتهدوا ايضا لحصره في نطاقات معينة وقيدوه بشتى القيود خشية طغيانه على سلطة القضاء لان الاسترسال على التحكيم في نظرهم « خرق لقاعدة الولاية ومؤدي الى تهارج الناس » .

وقد شرحنا في البحث المتقدم كيف ان القانون المغربي تاثر في مدونة الاحوال الشخصية بمختلف آراء الفقهاء في مجال التحكيم فاخذ حديثا براي الشافعية حول المهمة المسندة للحكمين في النزاعات الزوجية بينما كانت هذه المادة خاضعة فيما سلف لمذهب المالكية . وكان الهدف من هذا الاتجاه الجديد هو تجريد الحكمين من سلطة الحكم بالتفريق بين الزوجين .

واستنتجنا من دراسة الواقع الزوجي بالمغرب ضرورة اعادة هذه السلطة للحكمين على مذهب مالك ، كما راينا كيف ان القانون المصري – على نقيض القانون المغربي – اخذ براي المالكية فى هذه المسالة بعد ما كان العمل فيها بمحاكم مصر الشرعية على مذهب أبي حنيفة . وهذا كله دليل على ان التحكيم كان ولا يزال موضع مد وجزر بين نظريات فقهاء الاسلام وان هذه التقلبات مردها الى ما تمليه الحاجة وتفرضه الضرورة تمشيا مع التطورات الاجتماعية ومع التعقيدات الطارئة على العلاقات البشرية .

ونفس التقلبات نلاحظها فى تطور التحكيم في القانون الفربي ، فلم يستقر راي المشرع الفرنسي والمحاكم الفرنسية على الاخذ بالتحكيم الارادي وبقاعدة الشرط التحكيمي (1) فى عدة مواد الا بعد فترة طويلة من التردد والتزام الحذر ، وكان الباعث على ذلك هو اهتمام فقهاء القانون بمسالة استفحال امر التحكيم واتجاههم للحد من استعماله خشية طغيانه على سلطة القضاء ، الا انه لم يكن بد من اللجوء اليه لمسايرة التطورات البشرية فى شتى المجالات الخاصة والمبادلات التجارية وفى عدة مواد تتسم بطابع التقنية .

وظل المشرع الفرنسي اثناء هذه التجربة الطويلة ياخذ بالاحوط فى مجال التحكيم فلم يجعل له مكانا ثابتا فى مدونات القانون الخاص الا بعد التصويت على قانون 18 ابريل سنة 1946 حيث افرغت نصوص التحكيم فى قوالب جديدة .

وبعد ، فما هي اصول التحكيم وما هي المراحل التي قطعها ؟ .

اصل التحكيم ومشروعيته فى الفقه الاسلامي

اذا نحن بحثنا عن اصول التحكيم فى الشرع الاسلامي نجد ان الفقهاء استخرجوها من عدة آيات كريمة سنتناول منها على الخصوص ما ورد فى سورة المائدة فى شان تحكيم الاساقفة اليهود للنبي (ص) في امر زانيين يهوديين ، وقد يصعب على الباحث ان يعثر على حديث فى التحكيم الا ملجأ فى شأن القاضي شريح العراقي وابيه هانىء فيروى أن النبي عليه السلام لما وفد لى هانىء هذا مع قومه سمعهم وهم يكنونه « ابا الحكم » فدعاه رسول الله وقال : ان الله هو الحكم واليه الحكم فلم تكنى – ابا الحكم – ؟ فقال ان قومي كلما اختلفوا فى شيء أتوني فحكمت بينهم فارض كلا الفريقين .... فقال عليه السلام : ما احسن هذا . فمالك من الولد ؟ قال : لي شريح وعبد الله ومسلم ، فقال : فمن اكبرهم ؟ قال : شريح . فقال له عليه السلام : فانت اذن ابو شريح (عوض ابو الحكم) ودعا لـه ولولـده .

فكان اصل التحكيم ومشروعيته فى الفقه الاسلامي قوله تعالى مخاطبا رسوله عليه السلام فى سورة المائدة: « فان جاؤوك فاحكم بينهم او اعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين ، وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك؟ وما اولئك بالمومنين الآية .. »

روى مالك ومسلم والترمذي ان هذه الآية نزلت اليهود لما جاؤوا الى رسول الله (صلعم) وحكموه في شان رجل وامراة منهم زنيا . فقال لهم عليه السلام ما تجدون فى التوراة فى شأن الزانيين ؟ قالوا نفضحهم ويجلدون ، فقال عبد الله بن سلام : كذبتم ، ان فيها آية الرجم فائتوا التوراة . فاتوا بها فوضع احدهم يده على آية الرجم وقرا ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده فاذا آية الرجم تلوح .. فقالوا : صدق يا محمد ، ان فيها آية الرجم ، فامر رسول الله برجم الزانيين .

وفى رواية ابي داود عن جابر بن عبد الله انالنبي صلى الله عليه وسلم قال لهم : ائتوني بأعلم رجلين فيكم ، فجاءوا بابني صوريا ، فنشدهما الله كيف تجد ان امر هذين فى التوراة ؟ فقالا : نجد فى التوراة اذا شهد اربعة انهم راوا ذكره فى فرجها كالمورد فى المكحلة رجما . فقال : فما يمنعكما ان ترجموهما ؟ قالا : ذهب سلطانا فكرهنا القتل فدعا النبي (صلعم) بالشهود فجاؤوا فشهدوا ..... فامر برجمهما .

وقد تركت الآية الكريمة الخيار للامام ان شاء حكم بين اليهود وان شاء اعرض ، ولذلك انفذ عليه السلام الحكم بينهم ليحقق تحريفهم وتبديلهم وتكذيبهم ما فى التوراة : « يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . »

---

1) Clause compromissoire

وبالرغم من ان انفاذ الحكم بين اليهود كان حق الاساقفة فان الامام اذا حكمه اهل الكتاب جاز انفاذه للحكم ولا يلتفت الى الاساقفة ، فيكون من باب الاحروية انه ان حكم مسلمان بينهما رجلا نفذ حكمه من دون ان يعتبر رضا الحاكم ، اذ الحكم ليس بحق للحاكم على الناس وانما هو حق للناس عليه وهكذا لما حكم الكتابيون النبي (صلعم) نفذ عليهم الحكم ولم يكن لهم الرجوع فيه ، وكل من حكم رجلا فاصله هذه الآيـــــة . (1)

ولما كان سند المالكية في حكمة مشروعية التحكيم هو المبدا الذي يقضي بان الحكم بين الناس انما هو حقهم لا حق الحاكم وكان الاسترسال على التحكيم خرقا لقاعدة الولاية ومؤديا الى تهارج الناس امر الشرع بنصب فاصل وهو القاضي لحسم قاعدة الهرج وفي نفس الوقت اذن في التحكيم تخفيفا عن القاضي وعن الناس في مشقة الترافع لتتم المصلحتان وتعم الفائدة فكان هذا المبدا اساسا لقول مالك : « اذا حكم رجلا فحكمه ماض ، وان رفع الى قاض (اي في حالة الامتناع) امضاه الا ان يكون جورا بينا . ومنه قاعدة سحنون « بمضيه ان رآه » « اي ان كان موافقا للشرع » ، وفسره ابن العربي « وذلك في الاموال والحقوق التي تختص بالطالب فاما الحدود فلا يحكم فيها الا السلطان والضابط » .. فيؤخذ من ذلك ان كل حق اختص الخصمان به جاز التحكيم فيه ونفذ تحكيم المحكم به ، وهو نفس المعنى الذي ورد في الفصل 527 من قانون المسطرة المدنية الذي ينص صراحة على ان لكل الاشخاص ان يتفقوا على التحكيم في الحقوق التي يملكون التصرف فيها ، ولا يجوز التحكيم في .... المسائل التي تتعلق بالنظام العام الخ ... وفي المجلة التونسية : « في الامور المتعلقة بالنظام العام ... وفي كل النزاعات الاخرى الواجب عرضها على النيابة العموميـــة » .

ويتفق ابو حنيفة مع مالك في لزوم حكم التحكيم « بشرط ان يوافق حكم قاضي البلد » . اما الشافعي وان كان يجيز التحكيم فهو لا يقول بلزوم الحكم التحكيمي ، فهذا في نظره انما فتوى لانه « لا يقدم آحاد الناس على الولاة والحكام ولا ياخذون الولاية من ايديهم » . فيتضح من مقارنة المذاهب الثلاثة ان المشرع المغربي اتخذ موقفا وسطا بان قنن مادة التحكيم تقنينا ضيقا واخضعها لمراقبة القضاء وقرر بان حكم التحكيم لا يلزم الخصوم الا بعد اضفاء الصيغة التنفيذية عليه من طرف رئيس المحكمة ، وقد تقدم شرح ذلك في الجزء الاول من هذا البحث (2) .

هذه لمحة عن اصل التحكيم ومشروعيته في الفقه الاسلامي :

اما في القانون الفرنسي ، فالبرغم من ان التحكيم كان متداولا بين الناس لفض اصناف النزاعات وان اللجوء اليه كان امرا طبيعيا عايش الضرورة والحاجة، فانه لم يصبح مؤسسة ذات اهمية ولم يعتبره المشرع الفرنسي وسيلة مشرعة من وسائل التقاضي ولم يعره فقهاء القانون عنايتهم الا بعد ان قضى به مرسوم 16 غشت سنة 1790 فكانت اول بادرة لتقنين التحكيم الارادي .

وبعد ذلك قضى مرسوم 10 يونيه 1793 بالتحكيم الاجباري في عدة مواد وبالاخص في المنازعات المتعلقة بعقارات الدولة والممتلكات الجماعية . وادى ذلك الى ادراج عدة نصوص جديدة بمجلة المرافعات المدنيـــة لتقنين التحكيم الارادي ؛ ولئن كان قانون المسطرة لم يفرض قط اللجوء الى التحكيم ، فان بعض ابواب المجلة التجارية نقحت بكيفية اصبحت معها عدة مواد خاضعة للتحكيم الجبري ، وهكذا قضت الفصول 51 الى 63 باللجوء اجباريا الى طريقة التحكيم في جميع المنازعات الناشئة بين الشركاء بشان الشركة، الا ان هذا الاجراء اثار عدة انتقادات ومعارضة شديدة ادت الى الغائه بمقتضى قانون 17 — 23 يوليوز 1856 ؛ ومع ذلك فقد اكدت المادة 332 من نفس المجلة مقتضى اشتراط التحكيم فيما قد ينشأ من نزاعات حول تطبيق العقود الخاصة بالتامين البحري ، اي التنصيص بتلك العقود على لزوم اتفاق المتعاقدين لعرض اية منازعة تثار بشأن تنفيذها على محكمين ... وبالرغم من ذلك فقد كان منهج اجتهاد المحاكم الفرنسية يميل الى رفض الشرط التحكيمي في مي عقد من العقود الى حد ان

---

1) راجـع تفسيـر ابن العربي صفحة 257 .

2) انظره تحت عنوان : « المعنى الشرعي والقانوني للتحكيم » دعوة الحق ، العدد 6 ؛ السنة 10 ، صفحة 55 — راجع ايضا كيف تذيل صكوك التحكيم من طرف قضاة الاحوال الشخصية لاعطائها الصيغة التنفيذية ؛ « الحمد لله بعد عرض صك التحكيم على سيادة من يجب واطلاعه عليه ظهر له انه جار على السند الشرعي فامر بامضائه والعمل بمقتضاه »

اصبح العمل باشتراط التحكيم لاغيا بحكم المحاكم على اثر قرار الغرفة المدنية الصادر بتاريخ 10 يوليوز 1843

منذ ذلك لحين عاش التحكيم بفرنسا فترة كاد ان يختفي فيها اثره ، الا ان متطلبات الانقلاب الصناعي والحركة التجارية والبحرية التي عرفتها بعض دول لعالم فى نهاية القرن التاسع عشر الفتت من جديد انظار المشرع الفرنسي الى اهمية التحكيم ، ومع ذلك فلم يستقررأي المحاكم بفرنسا على الاخذ باشتراط التحكيم فى العقود التجارية الا بعد انصرام فترة طويلة من التردد والمد والجزر وكان ذلك باعثا للبرلمان الفرنسي على التصويت بتاريخ 31 دجنبر سنة 1925 على قانون اضيفت بمقتضاه فقرة جديدة للمادة 631 من المجلة التجارية بجواز اشتراط التحكيم فيما قد ينشأ من نزعات بشأن تنفيذ العقود التجارية .

ومنذ ذلك العهد اتخذ المشرع الفرنسي التحكيم الارادي او الجبري وسيلة لفض عدة نزاعات (1) ، الا ان اجتهاد المحاكم الفرنسية لم يقر لشرط التحكيمي فيما عدى العقود الخاصة بالتامين البحري ، وبالالتزامات والمبادلات التجارية والاتفاقيات الجماعية للشغل ، والنزاعات الناشئة بين الشركاء الشاعين فى العقارات (2) ففي كل هذه المواد صدرت نصوص جديدة لتنظيم الشرط التحكيمي وتقنينه مما يجري به العمل فى الحاضر .

وهكذا عرف التحكيم بفرنسا منذ عهد غير بعيد انطلاقته القابة التي لم يكن الداعي اليها انتصار فكرة او تلك ولكن لانها كانت تابعة من الحاجة الماسة والضرورة المحلة . (3)

بعد هذه اللمحة الخاطفة عن اصول التحكيم وتطوراته فى الشرق والغرب وبعد ان اتينا على اهم المباديء العامة فى ميدان التقاضي بطريقة التحكيم وعن بعض المقارنات سواء فى مجال التشريع او القضاء ، وابرزنا عدة جوانب متشابهة واخرى غير متشابهة ، فهل لنا ان نستخلص شيئا مما قدمناه لنصل الى تخطيط صورة واضحة عن مؤسسة التحكيم فى القانون المغربي ؟

ان ما نستخلصه بكل وضوح هو ان المشرع سواء فى الفقه الاسلامي او فى القانون الغربي ، استقر رايه على الاخذ بطريقة التحكيم فى ميدان التقاضي على ان ينحصر مجاله فى نطاق معين ، وان يخضع لمسطرة دقيقة للحد من سلطة المحكمين ، وان تخضع الاحكام التحكيمية لمراقبة القضاء مع توفير وسائل الطعن ؛ وسنرى فى ابحاث اخرى كيف عالج المشرع المغربي كل ذلك ، محاولين القاء نظرة فاحصة على اجتهاد المحاكم وسرد بعض الامثلة التطبيقية تعميما للفائدة

مكناس : حسن الحجوي

---

1) انظر على الخصوص قانون 28 يونيه 1948 بشأن العقارات المشاعة وكذا قانون 18 ابريل 1946 حول الملكية التجارية .

2) راجع « هامل » الشرط التحكيمي فى العقود التجارية :

Hamel : La clause compromissoire dans les contrats commerciaux

3) طالع تأليف « جان روبير » فى موضوع الحاجة الى التحكيم ومنفعته فى بعض الميادين ، الطبعة الثانية سنة 1955 .

Jean Robert : Traité de l'arbitrage civil et commercial en droit interne.

ذكرى وعبرة

للأستاذ الشاعر عبد الرحمن الدكالي

هو الله يا خير الورى لك يشهد ... بانك محمود وانك « احمد »
سما بك في القرءان وصف مرتل ... فانت عظيم الخلق انت « محمد »
فما النور الا نور هديك في الدنا ... وما الحق الا ما حييت تردد
وما زال شمسا في الورى دين «أحمد» ... وان كان ضوء الشمس بالكفر يجحد
ويا خير خلق الله منذ تركتنا ... وآثرت لقيا الله والدين يصمد
توالت على الاسلام بعدك اعصر ... يعزبها الاسلام طورا وينكد
ففي عهد « صديق » تعاظم شانه ... وفي عهد فاروق يسير فيبعد
اتم له النصر المبين على العدا ... وفي كل يوم مجده يتجدد
سلو «قيصرا» عنه و «كسرى» وفارسا ... فما فيهم لله الا الموحد
هل الباس الا باسه وثباته ... او العزم الا عزمه والتجلد ؟
او الدين الا ما راوا من جهاده ... وما كان من جد يقيم ويقعد ؟

* * *

لئن كانت الذكرى احتفالا بمولد ... تضاغ لها الامداح في الارض تنشد
فان لنا فيها اذكارا وعبرة ... نسدد فيها راينا ونحدد
وننظر للاسلام دين « محمد » ... اما زال هذا الدين فى الارض يحمد ؟
افي امة الاسلام عزم وقوة ؟ ... افي امة الاسلام راي موحد ؟
امولد هادى الخلق مولد امة ... يصان بها الاسلام دوما ويسعد ؟

اضعنا بني الاسلام وحدتنا التي   يقام عليها مجدنا ويشيد

فان رمتم فى الارض عزا توحدوا   فكم نيل بالتوحيد عز وسؤدد

* * *

ويا قادة العرب الكرام الى متى   يطيب لنا في الذل مرعى ومورد

وتلك اراضيكم تضج لحالها   يعيث بها الباغي الحقير ويفسد

وفي المسجد الاقصى باول قبلة   تهدم آثار ويحقر مسجد

وتلك فلسطين الشهيدة كلها   ارامل ايتام شيوخ تشردوا

يلاقون من خسف العدو ومكره   مآسي لا يقوى على حملها الصلد

وفي قبة الصخراء حيث « محمد »   الى الافق الاعلى ينادي فيصعد

نرى زمرة الاوغاد شر عصابة   تهدم منها ما تشا وتبدد

سماحا اذا ما قلت حقا باننا   على مسرح الاحداث لغز معقد

فما انا الا مخلص لعروبتي   ولي في بيان الحق قول ومقصد

* * *

ايا ابن رسول الله يا خير من دعا   الى الوحدة الكبرى تصان وتعضد

مساعيك يا مولاى يرجى نجاحها   لانك يا مولاى تسعى وتجهد

وانت لعمر الحق اول من راى   بان اجتماع العرب امر مؤكد

فدم افقا للدين والعرب جامعا   تؤمك آمال الشعوب وتقصد

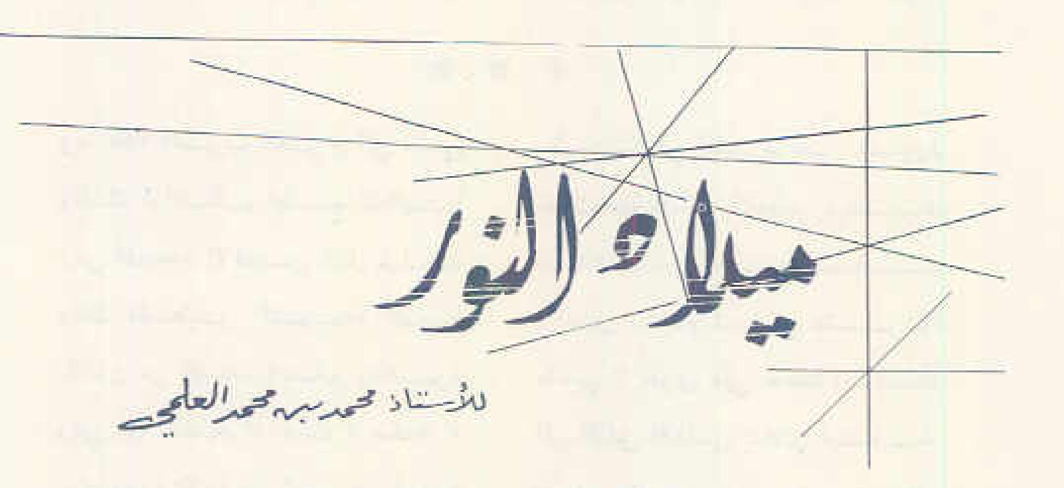
وعيدك يا مولاى عيد مبارك   سعيد على مر السنين يجدد

رعى الله يا مولاى اسرتك التي   يعز بها الشعب الوفي ويسعد

سترفل في عز يواقيت عرشنا   وشبل امير المؤمنين « محمد »

الرباط : عبد الرحمان الدكالي

السبت 11 – ربيع الاول 1388



للأستاذ محمد بن محمد العلمي

عواطف شاعر مسلم :

أرى الشعر اسمى ما يقال ويكتب ، ... فكم ينجلي بالشعر شك وغيهب
أصور نفسي في القريض صراحة ... كما يأمر الوجدان ، والطبع اغلب
وان لساني كالحسام صرامة ، ... وهل ترجمان القلب يعمى ويكذب؟
ومن مارس الايام مثلي ، فانه ... يشاهد أن الدهر نعم المؤدب
تساورني في ثورة النفس هزة ... وما الحر الا همة تتوثب
وليس دليل الحر الا ضميره ... اذا اصبحت أرزاؤه تتألب
فنعم الضمير الحر صوت مجلجل ... ونعم الضمير الطب والمتطبب
وما قيمة الدنيا بغير ضمائر ... عن الحق لا تلوي ولا تتنكب؟
اذا كان في شر النفوس وبغيها ... شقاء لها ، فالحق لا يتحجب
رجوعا الى النهج القويم ، فانه ... أعز مجال للنفوس وأرحب
اذا شاب قلبي في ربيع شبابه ... فان بلادي في الحوادث اشيب،
ولكنها في مفرق الدهر درة ... وفي طفرة التشييد تسعى وتداب
لكم رماها كيد الاعادي سفاهة ... ولكنها في نصرة الله تضرب
وقد شرقوا في كل ناد بكذبة ... فما افلحوا لما تناجوا وغربوا
لئن كان الاستعمار لم يقض ماربا ... فنحن لنا الايمان بالنصر مأرب
سلام على نور النبي محمد ... فقد ملأ الدنيا ، وخاب المكذب
وفي المغرب الاقصى من العيد نشوة ... مباركة في ظلها نتقلب
هو العيد يملي في البلاد دروسه ... ويضرم روحا في الشباب ويلهب

فانعم بها ذكرى تطيب لامة   موحدة ، للحق تهفو وتغضب
لقد كان حب الخير يحفز سيرنا   وفي قلبنا روح بذلك مشرب
فيا حبذا أوطاننا في كفاحها   وقد بارك الرحمن ماهي تنجب
ومرحى بميلاد الرسول وعزمه   وطوبى له ، وهو الهمام المدرب!
الم تك ذكراه الحبيبة بلسما   تضمد جرح المخلصين وتراب ؟
الم يكفه فخرا ومجدا وصولة   بان حفه من هيبة الله موكب ؟
لقد كانت الاشواق تحرق اكبدا   فما خاب في آماله المترقب
لئن لعب الباغون واشتد كيدهم   فما كانت الاقدار تلهو وتلعب
تهون حياة المرء ان ضاع مجده   وتحلو كؤوس للمنون وتعذب
لقد ولد العيد السعيد خلاصنا   فراح يباهي الشرق بالعز مغرب
وما الفضل الا للمليك وسعيه   فنحن له الابناء وهو لنا اب
ومرحى بعيد كان للناس عبرة   فنحن به بين الانام نرحب
ونحن به صرنا من الكون امة   لها شوكة بين الخلائق ترهب
وان لنا في العيد طيبا نشمه   فاحبب به عطرا الى العرش ينسب
وروح رسول الله نشوى بعاهل   تحدر منها ، وهو في النصر يطرب
وفي (الحسن الثاني) من المجد امة   ارى الدهر من آياتها يتعجب

ذكرى حلوة ، ومعجزة كبرى

لقد كان ميلاد النبي محمد ؛   يبشر بالخير العميم ويعرب
يباركه فوج الملائك غدوة   وجبريل من لالائه يتهيب
ففيه من الذكرى حلاوة وقعها   وفيه من التاريخ فصل محبب
الم تر مثلي يا اخي الجو دافئا   وفيه حياة كلها تتكهرب ؟
الم تر مثلي حولك العطر عابقا   الم تشهد الاجواء والارض ترجب؟
اشاهد في عيد النبي محمد ،   من الفن الواحا تروق وتخلب
وامعن في التفكير حتى كانني   اشاهده روحا من الروح يقرب
فلبيك يا تاج الانام وكنزهم   ويا باعث الآمال حين تخيب
خبت نار كسرى حين اصبحت مشرقا   فآمن في انجيله المترهب
ويا منقذ الدنيا ، وناشر سلمها   اذا ما دهاها في الرزية مخلب
ويا قاهر الشرك البغيض وقومه   ويا كاسر الاصنام ، والكفر عقرب
لقد كنت برا راحما متمسكا   بملتك السمحاء ، ان راغ ثعلب
ورمت (حراء) في انفراد وخلوة   فكان عليك الوحي في الغار ينكب

وما انت الا الطيب ينشر عرفه   وذكرك في كل المجالس طيب

تأملت في سر الحياة وفنها   وكنت عن الحق الصراح تنقب

جمعت جمال الكائنات جميعها   وصرت على هام الخلود تنصب

تحملت من شر العداة ومكرهم   صنوفا ، فلم يجذبك في الغي مذهب

اتتك من النصر المبين كتائب   تفل طغاة في الضلال تحزبوا

وحاشاك يا نبع الهداية والتقى   فانت لدين الله والحق تجذب

دعوك امينا في الشباب فلم تخن   وانت الى الامثال في الناس تضرب

وجدت امام العين شعبا مفككا   عقائده في غيها تتشعب

فقمت تنادي القوم لله جهرة   فلامك منهم جاهل متعصب

وانفسهم لم تقبل النور هاديا   فكانت مع الاهواء تطفو وترسب

وكم نصبوا احبولة لم تفدهمو   فان مراس الحر فى الناس يصعب

وكم قتلوا او شردوا من موحد   فما هم تحاشوا مؤمنا او تأدبوا

وليس بفيد العجب قوما تنكروا ،   اذا ما انجلى في الحادثات المسبب

لقد طلبوا امرا تعذر نيله   وقد حقق الرحمن ما انت تطلب

ارى الحق يسمو في سمو جنوده   فيبقى عزيزا ، والاباطيل تذهب

دعوت لدين الله والفطرة التي   تسامت ، فما فيها افاد التعصب

وجئت بقرآن حكيم منزل   بلاغته آياتها تتلهب

فقد اعجز السحر البليغ بيانه   واسراره في الروح لا تتغيب

وهاجرت أرض الذل من بعد محنة   فلاقتك في الافراح والانس يثرب

تمكنت كالطود العظيم ثباته   فما كنت تشرى بالوعود وتجلب

تغربت في الحق الصراح ترومه   ويا حبذا من في العلا يتغرب

ولم تفد الكفار ادنى دعاية   ولكنهم صفر الاكف واذؤب

وفي ثورة البحر الغضوب تلاحقت   من الحق اجناد تضج وتصخب

وشيدت للاسلام مجدا وعزة   وقد كنت للشرك اللعين تخرب

واصبح هذا الكون كالروضة التي   تطهر من اغصانها وتشذب

وعلمتنا معنى الاخا ، وبعثتنا   من الخب قوما بأسهم متهيب

ولقنتنا معنى الثبات وسره   فانت الذي في الحق لا تتذبذب

وكنت لنا في الله احسن اسوة   وانت زلال سائغ منه نشرب

لقد عكر الالحاد صفوا لامة   بعثت بها ، فانزاح وحل وطحلب

ودينك دين العالمين سليقة   وروضته ازكى لنفسي وارحب

وما رمت الا الحق تنشر نوره — فما كان يغويك البنان المخضب
وقابلت أهل الظلم بالحلم والحجى — فأصبح صرح البغي يهوى ويعطب
لقد حفظ التاريخ منك روائعا — وانصتت الدنيا لما انت تخطب
وتربية الرحمن عز منالها — وانت بها فوق الورى تتجلبب
غزوت قلوبا لا جسوما ، فأسرعت — اليك تروم الصلح بكر وتغلب
وشرفت في الانساب نسبة هاشم — فباهت بدين الله في الكون يعرب
و (مازيغ) بالاسلام يزداد نخوة — وذاك لعمري ما يشوق ويعجب
يوحدنا الاسلام قلبا وقالبا ، — وتاريخنا آياته ليس تحجب

* * *

توحدت الاضداد فى حب مرسل — الى الناس طرا ، فى الهداية يداب
ولولاه لارتد السلام مهددا — بتلك الدماء الحمر اذ تتصبب
فيا ايها المبعوث بالحق شرعة — الا تلهم الدنيا سلاما يحبب؟
لقد اصبح الانسان ينحر نفسه، — فهذي دماه فى البرية تشخب
وقد سخر العلم الرفيع لغاية — تهدد أمن العالمين وتنشب
وقد ختم الصاروخ سيرا موفقا — الى القمر العالي ، وفاز المصوب
نسير الى غزو الفضاء بهمة — تجاوز أجواء الثريا وتعقب
لقد ضاقت الارض الرحيبة بالورى — فراموا من العلياء مثوى يقرب
الى اين نمضي والسلام مهدد ؟ — الى اين نسعى والبناء مخرب ؟
فاما سلام فى الوجود جميعه — واما فناء ناره تتلهب
امانا رسول الله ، ان قلوبنا — على فرق ، ترجو ولا تتريب
امانا حبيب الله ، ان نفوسنا — لها ثقة في العفو ، لا تتهيب
ارى النور فى الصحراء قد لاح فجره — وقد زعموا الصحراء تقسو وتجدب
الا يا رسول الله ، ها انت واحة — ثراها زكي بالنضارة طيب
اتيت فكان اليمن فيك سجية — واي بلاد من بلادك اخصب ؟
فكل فؤاد انت نبض حياته — وانت على العلياء تاج مذهب
وانت ربيع العالمين جميعهم — وان انكر الاسلام جهل مركب
فشكرا على ما ابديته من رشاقة — وانت الصريح المستفيد المجرب
يباركك الله العظيم بلطفه — وليس لما ابرمته من يعقب
فياحبذا دين النبي محمد — وقد جاء فى خير البرية يرغب

دعاء وابتهال :

فيا رب اني بالنبي وآله ... اليك دواما بالحنا اتقرب

بعثت شفيع العالمين محمدا ... ومنه اهتدى عرب وترك وصقلب

وفضلك عم الكائنات باسرها ... فما خاب للقصاد عندك مطلب

الهي ان عز النصير فحالتي ... كما انت تدري حالة ليس تعزب

الهي ان حم القضاء فانت لي ... امان ، وحمدي في جنابك اوجب

اذا كنت ترضى فالحياة لذيذة ... وليس لما تقضيه فينا تقلب

بحكمك تبدو الشمس في الصبح للورى ... وتحجبها عند المساء فتغرب

وتحيي مواتا في البلاد سحائب ... تجود بها ، والروض يزهو ويعشب

لقد هالني صوت الضمير معاتبا ... واحسن ما في النفس صوت يؤنب

الهي وحد في الاخاء صفوفنا ... ولا تدع الاحقاد تطغى وتغلب

تسربت الاطماع في كل شيعة ... ولم ندر ما عن مكرها يترتب

ورحنا مع الاغراض صرعى ، وداؤنا ... عسير ، ولكن انت للحق ترقب

الهي الهمني البيان ، فانه ... قوام لما يشفي الصدور ويكتب

الهي انت المرتجى للمة ... اذا ما غدا وجه الخطوب يقطب

اعني على حمل الحقيقة صرفة ... يصورها مني اليراع المثقب

فرب شعور كانت الروح نبعه ... يلوح كما لاح الحسام المذرب

الهي نور بالصفاء قلوبنا ... فقد كانت الاحقاد داء يجنب

الهي بارك في النبي وآله ... ومن كان للذات الشريفة يصحب

وسلم عليهم كلما حن طائر ... وصل عليهم كلما انهل صيب

وتدارك كسور المسلمين بجبرها ... فما كنت للآمال فينا تخيب

وخلص (فلسطين) الشهيدة ، انها ... على مضض في قيدها تتقلب

وعمم سلاما في الانام جميعهم ... فلطفك اجدى للشعوب واقرب

محمد بن محمد العلمي

في ظلال القرآن سدنا ...

للاستاذ الشاعر أحمد بن أبي شعيب الدكالي

اي نور انار هذا الوجودا … عظم اليوم عظم المولودا

اي شعر ابثه في نبي … كان في الارض والسما محمودا

اي لفظ يبين عن كنه نفسي … فاصوغ القريض والتمجيدا

ليت شعري باي لفظ احييـ … ـه وقد نال رفعة وخلودا

مدحته آي الكتاب واني … لفصيح بان يكون مجيدا

غير اني اروم مدحا واشدوا … بقصيدي واستطيب النشيدا

سعد الخلق كله برسول … اذ غدا الكل بالسعيد سعيدا

فاشد ذا اليوم بالرسول ومجد … مصلحا قائدا وشهما مجيدا

سيف حق وخاتم الرسل طودا … مشمخرا وعبقريا فريدا

قدسته الاملاك والرسل طرا … وحباه الاله عزا تليدا

كان للكل رحمة واصطفاه … رب كل العباد درا نضيدا

صفوة الخلق سيدا وكريما … عربيا ارومة وجدودا

قد دعا الخلق كله لرشاد … حي فيه النهى وحين جودا

واتانا بدين حق وعدل … هو دين على المبرة شيدا

لم يشأ للعباد شركا وجهلا … ونزاعا واثرة وجمودا

بل دعا الكل لاتحاد صفوف … وحبا الكل قوة وصمودا

ونهى الكل عن عبادة قوم … عبدوا الغير قسوة وجحودا

داعيا مرشدا امام هداة … ومنيرا لنا الطريق الرشيدا

اعبدوا الله وحده واشكروه … وانشدوا الهدي واطلبوه المزيدا

واعملوا بالكتاب قولا وفعلا ... انه الحق قوة وصعودا
انه النور روعة وبهاء ... هو دستورنا الذي لن يبيدا
قد دعانا لعزنا وكفانا ... اننا في سوى اتباعه لن نسودا
ودعانا لخير دين ودنيا ... كلنا نصطفيه ذكرا حميدا
حرر العقل والعقيدة نادى ... حرروا الراي واجعلوه سديدا
اجمعوا امركم بجد لتحيا ... امة تنشد الحياة الجديدا
امة ترهب العدو وترعى ... كل ما فيه عزها والعهودا
تنشر الامن والسلام وتسعى ... ان ترى الناس في البناء جنودا

* * *

في ظلال القرآن سدنا وكنا ... رغم انف العدو طودا عتيدا
وأباة ائمة وهداة ... عن حمى الحق والهدى لن نحيدا
قد حكمنا الشعوب بالعدل دهرا ... ورفعنا لواءنا والبنودا
وسعدنا بديننا واخاء ... وركبنا الحياة عيشا رغيدا
ما لنا قد اصابنا الذل حتى ... اصبح الاسد في البلاد عبيدا
ورمانا بالشر كل عدو ... واستبيح الحمى فصار وحيدا
طهر اللهم ارضنا من طغاة ... جعلوا الحق قوة وحديدا
طهر اللهم قدسنا من عتاة ... بيتوا الشر والخراب المبيدا
شردونا وامعنوا في اضطهاد ... قتلوا الشيخ والنسا والوليدا
رب رحماك اننا قد اهنا ... باختلاف وفرقة لن تفيدا
فاجمع اللهم شملنا باتحاد ... واخاء ؛ وفك عنا القيودا

الرباط : احمد ابن ابى شعيب الدكالي



للشاعر محمد العربي الشاوش

اقدم هذه القصيدة الى مقام حضرة صاحب الجلالة الحسن الثاني نصره الله على صفحات مجلة « دعوة الحق » الغراء . وقد جادت بها القريحة بمناسبة زيارة جلالته لمدينة تطوان فى صيف سنة 1962 واحيائه بها ليلة المولد النبوي الشريف .

بدت فى السماء بدور السلام ... بمولد احمد خير الانام
وباتت جميع القلوب تشاوى ... بذكرى رسول الهدى والسلام
فلست ترى غير من يتغنى ... بذكر النبي الشفيع الامام
ولا تسمع الاذن الا صلاة ... عليه بلحن كسجع الحمام
فكم منشد بات يتلو ثناء ... على المصطفى ببديع النظام
وكم مادح بات يهدي اليه ... سلاما زكيا بكل انسجام
وكم عاشق بات من حبه ... عليه السلام بدون منام
يصلي عليه بكل خشوع ... ويرجو الشفاعة يوم الزحام
ويذكر في بهجة فضل من ... اتى بكتاب رفيع المقام
اتى بكتاب كريم مجيد ... فبدد نوره كل ظلام
واحيي القلوب بحكمته ... واخلاقه مع بليغ الكلام
وبشر كل الخلائق ما ... ثناه عن السير زيغ اللئام
محا الشرك طورا بدعوته ... وطورا بطعن القنا والحسام
فاصبحت الارض طاهرة ... وامست انوف العدا فى الرغام
بشير نذير رؤوف رحيم ... حريص على الخلق كهف المضام (1)

1) كهف : ملجأ ـ المضام : المظلوم المقهور

بهي جميل حليم كريم　　امام الشفاعة فخر الانام

❋ ❋ ❋

نبي الهدى وعميد الندى　　ويا سيد المرسلين الكرام

اغثني وكن لي شفيعا غدا　　وحوضك فاسقني انه طام (2)

عليك من الله الف صلاة　　تنور رمسي بين الرجام (3)

والف سلام زكي ندي　　عليك من المخلص المستهام

هديت القلوب انرت العقول　　بنور اليقين وروح الوئام

تركت لنا الدين نورا بهيا　　يضيء لنا في دياجي الظلام

يقوم عليه امام همام　　ويحميه صنو الملوك العظام (4)

حفيدك هذا المليك المفدى　　امام الائمة سبط الكرام (5)

جميع القلوب لهيبته　　جثت ثم حطت بكل احتشام (6)

وباتت تغني بامجاده　　وتشهد انه للدين حام

هو العربي الكريم الابي　　هو العلوي سليل الامام (7)

هو المغربي الزعيم الكمي　　هو المرتجى للامور الجسام

هو العبقري النبيه الذكي　　هو المصلح العدل راعي الذمام

هو « الحسن » المحسن المرتجى　　لخير البلاد ونيل المرام

له في سبيل الحمى خدمات　　كشمس تبدت بدون غمام

له في سبيل النهوض اياد　　تفوق ندى حاتم ذي الخيام (8)

تقي نقي عليه وقار　　وطالعه في سما السعد سام

جواد كريم وشهم نبيل　　فانعم به من امام همام

امولاي فضلك حقا عظيم　　علينا وبرك كالغيث هام (9)

فاين حللت يحل الهنا　　وتغزو السعادة قلب الانام

اتيت لتطوان في ليلة　　لاحياء ذكرى رسول السلام

فاذهبت عنها الكروب كما　　طلعت عليها كبدر التمام

فطوبى لها بزيارتكم　　ونيل رضاكم وكل اهتمام

---

2) طمام : ممتلىء فائض

3) الرمس : القبر ـ الرجام : جمع رجمة وهي كتلة من الحجارة كناية عن القبر

4) الصنو : الابن ، الاخ الشقيق ـ (5) السبط : ولد الابن والابنة ، الحفيد .

6) جثت : جلست على ركبتها ـ حطت : نزلت ، وضعت الحمل ـ احتشام : حياء .

7) سليل : من السلالة ، الولد ، صفوة الشيء وخلاصته ، يقال هو سليل الكرام ، وهو من سلالة طيبة ، والمراد بالامام : الامام علي كرم الله وجهه . (8) حاتم الطائي العربي الذي يضرب به المثل في الجود والكرم . (9) الغيث : المطر ـ هام : هاطل متدفق

فهيـــا بنـــي قومي وارنوا اليـــه
تفوزون مـــن وجهـــه بابتســـام

فمـــن وجهـــه البشر يشملكـــم
ويذهب مـــا بالحشا مـــن سقـــام

امـــام البـــلاد عليـــك اعتمـــادي
فـــأنت الملاوذ للمستضـــام (10)

فـــدم للبـــلاد عزيـــزا عظيمـــا
وللشعـــب تخطـــو بـــه للامـــام

وزادك ربـــك عـــزا ومجـــدا
وللمغـــرب الحـــر ابقـــاك حـــام

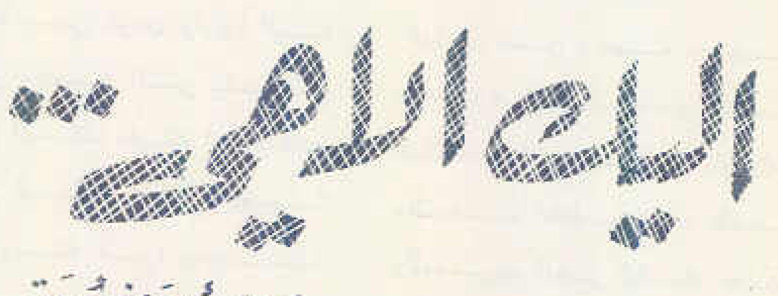
سلامـــي عليكـــم وحسن ثنائـــي
وشكـــري لكـــم هو مســـك الختام

تطوان ــ محمد العربي الشاوش

---

(10) الملاوذ : (بفتح الميم وكسر الواو) المـؤازر ــ
المستضام : المظلـــوم .





للأستاذ أحمد بنسودة

حج سفير المملكة المغربية بالجمهورية اللبنانية الاستاذ احمد بنسودة هذه السنة ... وبعد أن طاف طواف الوداع بعد صلاة العشاء يوم الاثنين 12 ذي الحجة 1387 تذكر مصيبة المسلمين ، واحتلال الصهاينة للمسجد الاقصى فالهمه الله سبحانه وتعالى نظم هذه المناجاة والتوسل باسماء الله الحسنى لرفع الضيم عن المسلمين ، واعادة المسجد الاقصى الى اهله ...

ولم ينم سيادته تلك الليلة حتى أتم نظم قصيدة سماها « الزمزمية » مؤملا ان يستجيب الله دعاء من دعا بها نظرا للمكان التي نظمت به ، ولاسيما ، وانها تشتمل على جميع اسماء الله الحسنى التي امر الله ان ندعوه بها حيث قال : « ولله الاسماء الحسنى ، فادعوه بها » .

اليك الهي قد اتيت ملبيا ... فبارك الهي حجتي ودعائيا

قصدتك مضطرا وجئتك باكيا ... وحاشاك ربي ان ترد بكائيا

اذا عطشت روحي فانت شرابها ... وان مرضت نفسي فانت دوائيا

كفاني فخرا انني لك عابد ... فيا فرحتي ان صرت عبدا مواليا

الهي . فانت الله لاشيء مثله ... فانعم فؤادي حكمة ومعانيا

وهبت ولم تسأل ، وجدت ولم تزل ... جوادا كريما منعما ومواسيا

اتيت بلا زاد ، وجودك مطمعي ... وما خاب من يهفو لجودك ساعيا

اليك الهي قد حضرت مؤملا ... خلاص فؤادي من ذنوبي وما بيا

فقد سئمت روحي بريق حياتها ... ومت من الدنيا جديدا وباليا

وكيف يرى الانسان في الارض متعة ... وقد اصبح القدس الشريف ملاهيا

يجوس به الانذال من كل جانب ... وقد كان للاطهار قدسا وناديا

معالم اسراء ، ومهبط حكمة ... وروضة قرآن تعطر واديا

عتابها ، صهيون قدنس طهرها ... وصيرها للمومسات مغانيا

لقد حرفوا التوراة زورا واولوا ... وما كانت التوراة الا تآخيا

فمهلا بني « غريون » ان مصيركم ... الى الدرك الادنى قريبا وماتيا

فان عدتم عدنا ، وعيد منزل ... من الحكم القهار يقصم باغيا

فاين خليل الله يحمل فأسه ... يحطم اوثانا ويقحم عاتيا ؟

واين كليم الله يظهر سره ... يهزىء سحارا ويفضح حاويا ؟

وابن مسيح الله ينقذ مهده ... بأياته العظمى يدك الرواسيا ؟
وابن رسول الله يرسل جيشه ... يظلله القرآن فى الله غازيا ؟
وابن سيوف الله فى كف خالد ... وكف علي كي ترد الاعاديا ؟
وحمزة ؟ والمقداد ؟ ابن جميعهم ؟ ... جميعهم باعوا النفوس الغواليا
وابن صلاح الدين والجيش حوله ... ينظم ابطالا ويجزي جواريا ؟
وابن ابن تاشفين ؟ وطارق قبله ... لاجل رضى الباري يجاهد راضيا ؟

*

انادي . فلا صوت يجيب ، ولا فتى ... يسعرها حربا تكون الدواهيا
الهي . فلن ارجو سواك لمحنتي ... تدارك الهي محنتي وشقائيا
سألتك بالاسماء طرا وحقها ... سألتك بالاعداد جهرا وخافيا
بأسمائك الحسنى وحق صفاتها ... تقبل ايا ربي . جميل دعائيا
فيا مالك الملك العظيم . وخالقي . ... تكرم على الاسلام بالنصر آتيا
واصلح امور المؤمنين وجمعهم ... وصيرهم قلبا محبا وواعيا
وطهر بلاد القدس من كل معتد ... وصير منار الحق فى الافق عاليا
وانقذ مغاني القدس من كل فاجر ... وخرب عليهم ملجأ وصياصيا
والق سلاح الرعب فى قلب ظالم ... يخرب ابياتا ، ويخضع جاثيا
جنودك يا الله سر مغيب ... فارسل عليهم صيحة وغواشيا
وما « الذر » و « النبال » الا مظاهر ... اذا جاء نصر الله صارت اثافيا
مهيمن عليهم يا مهيمن ، واجعلن ... ديارهم قاعا يبابا خواليا
دعوتك رحمانا رحيما وبارئا ... رجوتك قدوسا ، دعوتك هاديا
واشكر وهابا على كل نعمة ... رؤوفا ، حليما للمواهب مبديا
تباركت من بر ، عزيز ، مصور ... عظيم ، مجيب لا يرد الدعاويا
تدارك الهي بالهداية امة ... وكن عونها عدلا ، قويا ، وباقيا
ويا مالك ، حق ، مجيد ، وواحد ... كفى بك جبارا تصد العواديا
وانت بصير ، خالق ، ومهيمن ... عليم ، وقهار لمن كان طاغيا
غفور ، ورزاق ، شكور ، وواسع ... فاعظم به حيا حفيظا وواليا
سلام ، وفتاح ، معز ، ورافع ... جليل ، كريم ، لا يخيب راجيا
فيا مؤمن ، امن مخاوف امة ... اتت ترتجي الغفار صفحا الهيا
فانك تواب ، لطيف بخلقه ... اذا بلغ الخطب الشديد التراقيا
سميع خبير ، باسط ، ومقدم ... له الحمد فى الاولى ، له الحمد ثانيا

وانت علي ، يا كبير ، وماجد   ولي ، وقيوم تخفف ما بيا

حكيم ، ودود ، باعث ، ومؤخر   وكيل ، متين لا يمهل نابيا

دعوتك يا محيي لتنعش امتي   معيد تعيد الدين ابلج زاهيا

مقيت اقت قومي ربيع قلوبهم   ومقتدر هييء طبيبا مداويا

قصدتك يا الله فارحم شكايتي   وهييء لدين الله اسدا ضواريا

حسيب ، رقيب ، مقسط في عطائه   حميد ، شهيد ، ظاهر في خفائيا

ويا واجد ، محص ، غني ، وقادر   ويا صمد ، مغن يقيت المواشيا

ويا اول يسمو ولا شيء قبله   ويا اخر يبقى ويفنى الفوانيا

ويا جامع ، نور ، بديع ، ونافع   تجل على الاسلام بالنصر باديا

وانت مميت ، يا صبور ، ومانع   امت كل خوان عدوا مرائيا

ويا متعال ، باطن ، متكبر   مذل جميع الظالمين تجليا

ويا قابض اقبض مدادك عنهم   ويا خافض اخفض عدوا مناويا

ومنتقم ، ضار ، رشيد ، ووارث   أذقهم الهي نقمة ودواهيا

ويا حكم عدل قوي في حكمه   تقبل الهي حجتي ودعائيا

وانت عفو لا تهمك سيرتي   وتصفح عن ذنبي وكل مساويا

وانك ذو الاجلال ترفع من تشا   وانك ذو الاكرام أجزل عطائيا

وصل على خير الهداة محمد   نبي الهدى من جاء لله داعيا

وسلم على الال الكرام وصحبه   متى حن مشتاق فجاء ملبيا

لبنان : أحمد بنسودة

أشواق وأحزان

للشاعر: عبد السلام الهراس

في مصيف « قب الياس » بلبنان تذكرت شفشاون، وتوارد علي انباء ابطالنا في « اكنول » . وكنت اعيش ماساة فلسطين والشرق واشاهد مؤامرات على منبع عزتنا : الاسلام ، فاثار كل ذلك في نفسي اشواقا واحزانا فانشدت مخاطبا روحي :

حطمي القيد بعنف ، واذهبي ... واسكب الشوق على قلب ابي

واتركيه جثة هامدة ... تتلاشى في حنايا السبب

واحملي نحو بلادي عبرتي ... وانثريها فوق خلد المغرب

والثمي الزهر الذي بادلته ... روعة الحب .. بأحلام الصبي

رتلي اغنية الشوق على ... ربوة « الوافي » (1) بلحن اللهب

واسبحي في منبع من كوثر ... واترعي كاس المنى من « مشربي » (2)

واكحلي بالنور عينيك فليـ ... ـست ترى الا ظلام الكرب

* * *

ابلغي « اكنول » مني زفرة ... يرتديها شوق قلب ملهب

اي عرين الاسد يا اغلى المنى ... دمت تسمو فوق دنيا السحب

تتحدى الظلم ، حصنا شامخا ... وتشيع النور في ذا الكوكب

وتلاشي قوة البغي ، ولن ... يدرك البغي خبيث المأرب

سوف تحيا فوق اشلاء العدى ... وانـدا كل جيوش الغاصب

ليس للمغرب الا كرة ... تدع الشر صريع العطب

---

1) ربوة سيدي احمد الوافي مشرفة على شفشاون

2) يقصد « راس الماء » بنفس المدينة .

امة تنشد نورا ، جاثما ... دونه ذئب ، عنيد المخلب
سجد الدهر على اقدامها ... لانما امجاد جند غاضب
وشدا التاريخ في محرابه ... ثورة اللحن لشعب محرب
فوق هام الشم ارست راية ... نسجتها من ضياء الشهب
ومشت نحو العلى في موكب ... يحمل الراية ثار المغرب
وجلال الله يضفي روعة ... وسناء فوق ذاك الموكب
انهم ابناء ابطال الورى ... انهم شعب عزيز وابي

* * *

خبري الابطال عن لؤم العدى ... خبرهم عن رزايا العرب
امة الامجاد اضحت امما ... مزقتها « لعبة » المغتصب
خيم الشر على دنيا الهدى ... وكساها بظلام النوب
يمرح القدر بمسرى احمد ... بينما « القوم » غدوا في لعب
انهم قد وادوا نهضتهم ... اذ تخلوا عن مبادي يثرب
لبسوا الذل بوشي خلب ... وتهادوا في غرور عجب
اقسموا الا يكونوا امة ... حرة تسعى لمحو الغيهب
يقفز الراي اضطرابا قاصدا ... اي شيء ! ! مثل قفز الجندب
تنشر الاهواء في ابراجهم ... راية الخليف بشتى اللقب
وتهب الحرب من مرقدها ... بين اخوان لادنى سبب
و « الخراف » العزل اشلاء ترى ... عصبة تعنو لامر الاجنبي
تترامى في خشوع مخلص ... تحت اقدام لحفظ المنصب
وتسوس « الامر » كالراعي اذا ... كان للذئب شقيق النسب
اي فلسطين سيمحو العار من ... جعلوا الحق وليد القضب
وغدا المدفع في منبرهم ... اشعر القوم وادوى خاطب

عبد السلام الهراس

1955 (قب الياس) لبنان



للأستاذ : عبد القادر زمامه

106 ـ صباح ، في صباح ، في صباح ... !

في ترجمة عبد الرحمن القبائلي وهو من قواد ابي سعيد بن عبد الحق المريني هذه الابيات وهي من شعره ...

اتسمع في الهوى قول اللواحي
وقد ابصرت خشف بني رباح
غزال خلف الصب المعنى
من الوجد المبرح غير صاح
وقد قتلت ـ ولا اثم عليها ـ
مواض جفونك كل الصحاح
يقول ولحظه بالقلب يزري
علام تطيل وصفي وامتداح
فقلت : فنون سحر فيك راقت
قضت للقلب بالعشق الصراح
جبينك . والمقلد . والثنايا
صباح . في صباح . في صباح

107 ـ اذا لم يشبه قريشا ... فتيس .. !

في صلة ابن بشكوال نقلا عن الحميدي :
انشدني ابو محمد بن حزم . قال : انشدني ابو عمرو البياني :

اذا القرشي لم يشبه قريشا
بفعلهم الذي بذ الفعالا
فتيس من تيوس بني تميم
بذي العبلات احسن منه حالا

108 ـ بيت حسان في ديوان سحنون .. !

في ترجمة ابي الفضل يوسف بن النحوي المتوفى سنة 513 هـ في جذوة الاقتباس ... قوله :

اصبحت فيمن له دين بلا ادب
ومن له ادب عار عن الدين
وقد غدوت لفقد الشكل منفردا
كبيت حسان في ديوان سحنون

ويعني بديوان سحنون ـ المدونة ـ وليس فيها من الشعر سوى بيت واحد لحسان بن ثابت .

109 ـ فضة تغربل ...

في كتاب ـ التشبيهات من اشعار اهل الاندلس ـ لابي عبد الله محمد بن الكتاني الطبيب ، ص 36
قال يوسف بن هارون :

نور وغيث مسبل !
وقهوة تسلسل
فالغيث من سحابه
طل ضعيف ينزل
كأنه برادة
من فضة تغربل ... !

110 ـ تحمل لقمان .. ! واقبل يوسف .. !

وفيه ايضا ص 25 . من شعر يوسف بن هارون

« وكم ليلة قد جمعتنا وادبرت
تنوح على تفريقنا وتلهف
الى ان بدا وجه الصباح كانما
تحمل لقمان ! واقبل يوسف »

وقد اشتهر سواد لقمان ..! وجمال يوسف ..!

111 ـ اراد راس الطبيب مطبوخا

فى كتاب التشبيهات من اشعار اهل الاندلس ص 655 :

لا كنت مثل الطبيب تبصره
يدق اهليلجا ونانوخا
يلتمس البرد للعليل وقد
شكا دماغا له ويافوخا
حتى اذا ما الشفاء لاح له
اراد راس الطبيب مطبوخا .. !

والابيات نسبها المؤلف للحمار السرقسطي .. ! والاهليلج ، والنانوخ ، من النباتات المستعملة للدواء عند الصيدليين ...

112 ـ ما بين مقتول ومبعوث

وجدت فى (مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان) لسبط بن الجوزي فى القسم الاول من الجزء الثاني ص 28 المطبوع بالهند 1951 م شعرا للامير تميم بن المعز بن باديس صاحب افريقية المتوفى سنة 502 هـ . من جملته هذه الابيات :

عاهدتني عهد من للعقد ينكثه
فصرت تاخذ من طرق المناكيث
حدثتني باحاديث ممتعة
فما حصلت على غير الاحاديث
فالوعد ينشرني والخلف يقتلني
فصرت ما بين مقتول ومبعوث

113 ـ ولا تصحب حياتك مغربيا ... ! !

ترجم ابن القاضي فى (الدرة) ج 1 ص 274 . لمحمد بن علي بن يوسف الشاطبي ... المتوفى بالقاهرة ... اخذ عنه الامام ابو حيان النحوي الشهير ... ورثاه بعد موته ...

واياه عنه بقوله :

اوصاني « الرضي » وصاة نصح
وكان مهذبا شهما ابيا
بان لا تحسنن ظنا بشخص
ولا تصحب حياتك مغربيا .. !

114 ـ دخل دار ابى نواس ... !

ترجم ابن القاضي فى (الدرة) ج 1 ص 230 لمحمد بن راس العين الاندلسي ... رجل جواب رحالة من اهل الجزائر ... له امداح فى الرسول صلى الله عليه وسلم . وديوان شعر ومقامات ... وامداح في المنصور الذهبي ...

« حكى ان محمد المذكور دخل دار ابى نواس بشاطيء وادي دجلة » .

115 ـ سبب بناء فاس الجديد ...

فى السلوة ج 3 ص 144 فى ترجمة اسحق بن يحيى بن مطر الورياغلي نقلا عن ابى مدين الفاسي ... فى كتابه « المحكم » :

« كان اماما بجامع الشطة ... وكان يامر الامير يعقوب بن عبد الحق المريني بالمعروف .. وينهاه عن المنكر .. فاكثر عليه مرة .. ! فقال له الامير : اخرج من بلدي ... !! فلما خرج اصاب الامير وجع شديد .. ! فامر برده .. فقال لا ادخل حتى يخرج هو !!! ... ولا اكون انا وهو فى بلد واحد ... !! فخرج فى الحين ... فسكن وجعه ... !! وامر ببناء المدينة البيضاء .. !! اعني فاس الجديد » .

116 ـ تخدمك عشر مجالس ... !

فى عيون الانباء فى طبقات الاطباء ج 2 ص 66 الطبعة الاولى 1299 هـ 1882 م فى ترجمة الحكيم ابن مروان بن ابي العلاء بن زهر .

« ان الخليفة عبد المومن احتاج الى شرب دواء مسهل .. وكان يكره شرب الادوية المسهلة ... فتلطف ابن زهر فى ذلك .. واتى الى كرمة فى بستانه.

فجعل الماء الذي يسقيها به ماء قد اكسبه قوة ادوية مسهلة .. ! بنقعها فيه .. ! او بغليانها معه .. !

ولما شربت الكرمة قوة الادوية المسهلة التي ارادها وطاع فيها العنب .. وله تلك القوة .. احمى الخليفة .. ثم اتاه بعنقود منها . واشار عليه ان ياكل منه .. وكان حسن الاعتقاد فى ابن زهر ... فلما اكل منه وهو ينظر اليه .. قال له يكفيك يا أمير المؤمنين .. ! فقد اكلت عشر حبات من العنب .. !! وهي تخدمك عشرة مجالس ... !!

117 – التلاقي .. مع الشعير ... !

فى عيون الانباء ج 2 ص 78 :

« حدثني القاضي ابو مروان الباجي : كنا فى تونس مع الناصر – الموحدي – وكان فى العسكر غلاء .. ! وقل وجود الشعير .. ! فعمل أبو الحجاج ابن موراطير .. موشحا فى الناصر .. واتى فى ضمنه .. تغيير بيت عمله الحفيد ابو بكر بن زهر في بعض موشحاته ، وذلك ان ابن زهر قال :

ما العيد فى حلة وطاق وشم طيب
وانما العيد فى التلاقي مع الحبيب

فعمل ابن موراطير :

ما العيد فى حلة وطاق من الحرير ...
وانما العيد فى التلاقي مع الشعير . !!

فاطلق له الناصر عشرة امداد شعير ... »

118 – وهل للخوارج الا علي

للاديب العلامة سيدي عبد الله جسوس وقد اصابته دماميل

اذا ما – الخوارج – قد خرجت
بجسمي وضاقت بها حيلي
اتيت ضريح ابي غالب
وهل – للخوارج – الا – علي –

119 – بحر موسى .. ! ونار الخليل .. !

فى ترجمة ابي القاسم بن خاتمة اخى ابي العباس ... من (درة الحجال) قوله فى حمام سبتة :

حمام سبتة ما ان
يقر عين الخليل
الماء من بحر موسى
والنار نار الخليل .. !

120 – احتراق او غرق ... !

فى ترجمة عبد الرحمن بن ابى القاسم الشفشاوني الشاعر الهجاء من (درة الحجال) يهجو قصر كتامة :

ارحل عن القصر واسمع قول ذي ثقة
ان المقام به ضرب من الحمق
ان لم تمت فى أوان الحر محترقا .. !
لم تنج فيه اوان البرد من غرق .. !

فاس : **عبد القادر زمامة**

فجر العربية بالمغرب الأقصى أو المراكز الأولى للثقافة العربية به

للأستاذ : محمد بن تاويت

كان علينا ونحن نعالج هذا الموضوع ان نجعل كلمة المغرب عامة شاملة للاقطار الواقعة بين صحراء ليبيا الى المحيط حيث انها تعمرها سلالة بشرية تسيطر عليها مظاهر اجتماعية وتتجاذبها مناح فكرية متشابهة كما كانت فيما مضى خاضعة لعوامل اقتصادية كذلك .

لقد عرف العرب هذه الجهات كما عرفها من قبلهم من الامم ، ولكن سرعان ما طبع اولئك العرب اقطارنا هذه بطابع قوي بارز بحيث تجانس فيه الجنسان بصفة تلقائية وتعانقا فى السلم كما تواطآ على الحرب .

فاذا اعتبرنا المغرب بهذا الاعتبار الشامل ، فان القيروان كانت تكون المشعل الاول للعروبة فى هذه البلاد والمنار المشع الذي كان ينير على هذه الآفاق طيلة اربعة قرون كاملة اذ كانت ثالثة او رابعة العواصم الاسلامية الكبرى اعترف لها بذلك خلفاء الامويين فعينوا لها ـ الوالي حسان بن النعمان ـ قاضيا من لدنهم مباشرة ، تقليدا اختصت به العواصم الكبرى آنذاك ، دون غيرها . . .

نعم كان هذا يكون وهو وجيه سليم ، وكان فى الامكان ايضا ان نعمل بقضية مسلمة كذلك فنقول ان فجر العربية بهذه البلاد كان لاول ما اذن بها اذان الصبح بفجرها الصادق كما يقول الفقهاء ، وكان اول مركز لهذه العربية لامحالة فى اول بيت اقيم بهذه البلاد من بيوت الله يجتمع فيه قوم يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم عملا بالحديث الشريف ، فكل مسجد مدرسة عربية ، تلك قضية مسلمة .

ولكننا مع هذا الواقع تؤيده الافتراضات والعكس نريد ان نقصر كلمة المغرب على الاقصى منه ونترك الى حين هذا الشمول الذي يتطلب كثيرا من القول والعمل معترفين فى خضوع واعتزاز معا بما كان للقيروان من فضل عم المشارق والمغارب ، القيروان الشهيدة التي لفظت نفسها وهي فى ريعان شبابها واكتمال قوتها ، فانتثر عقدها فى المشارق والمغارب بعلماء اعلام وادباء فطاحل من مثل الحصريين وابن رشيق وابن شرف الذي نعا القيروان بهذين البيتين النابضين باللوعة المزوجة بالحيرة وللداعة النكتة التونسية :

ترى سيئات القيروان تعاظمت   فجلت عن الغفران والله غافر

تراها اصيبت بالكبائر وحدها   الم تك قدما فى البلاد الكبائر

ومن فضل الله علينا ان كان المغرب الاقصى وارث افريقيا فى قيروانها فحمل ذلك المشعل فى قوة وايمان وعزة وهو يتلو قوله تعالى : « يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » فكان المرابطون حقا ورثة رشداء حافظوا على ميراثهم الثمين ونموه فى المغرب والاندلس على السواء .

نعم كانت دولة المرابطين منبثقة عن حلقة من حلقات العلم بالقيروان نفسها ، كانت تدور على عالم من علماء المغرب الكبير هو ابو عمران الفاسي .

لنعد الى موضوعنا الذي حددنا نطاقه واردنا فيه قضية العلماء بالعربية ذاتا ولم نرد قضية العربية فيه انتشارا بمجرد انتشار الاسلام فى هذه البلاد .

وبذلك نفصل بذكر مراكز علمية كانت مبكرة بعلمائها وادبائها ، ولا شك ان هؤلاء الذين سنضع ايدينا عليهم وهم مبثوثون فى كتب التراجم الاندلسية وغيرها انما هم آحاد من عشرات بل عشرات من المئات قد تاهت ذكراهم فى بيداء الاهمال والنسيان اللذين عرفت بهما جيدا ذاكرة المغرب منذ اقدم العصور الى احدثها .

ولكن هذه القلة على كل حال توحي الينا بالثقة والعزم وتحفزنا على العمل الدائب والبحث المتواصل عن دفائننا وكشف الغطاء عن تراثنا وهو عمل لا يزداد مع الايام الا اتضاحا ولا يزيد مداركنا الا تنورا ، فلا كيان لامة حقا بدون تراث فكري ولا عزة لها ترجى بدون الاعتزاز بأمجادها والمحافظة على مقوماتها ، عاملة جادة مستبشرة متفائلة بتصميمها وصدق عزمها وعلى هذا الضوء نستطيع ان نراجع حسابنا العسير فنصلح ما به من اخطاء ان شاء الله .

نرى ان المغرب الاقصى ، ما استقرت به الاحوال على عهد موسى بن نصير حتى وجدنا عاصمته الخالدة « طنجة » تعمل على نشر الثقافة العربية بفضل ما كان يبذله هذا الوالي الرشيد من جهود جبارة في هذه العاصمة التي اهتم بها اهتماما خاصا وجعل مقاليدها فى يد قائده العظيم طارق بن زياد ، الذي كان يتمتع بشخصية ثقافية عربية ينم عنها بعض ما نسب اليه من آثار ، واهمها خطبة الفتح التي سجلها له الدينوري فى الامامة والسياسة ، فكانت طنجة اولى العواصم العلمية بالمغرب ، وكان لها شأن عظيم في اتصالها بالاندلس الثقافي فيما بعد ، كما نجد ذلك فى كتب التراجم التي اشرنا اليها ، وابن خلدون يقول ان موسى بن نصير انزل عربا بطنجة مع طارق وأمرهم أن يعلموا البربر القرءان والفقه ، ويقول غيره انهم كانوا سبعة عشر ، ويذكر بعض اسمائهم .

ولم ترد الخلافة الاموية بالمشرق ان تترك الامور تسير فى المغرب تلقائيا ، بل كان من خلفائها عمر بن عبد العزيز يهتم بالمغرب اهتماما زائدا ويبعث اليه ببعض فقهاء الاسلام وعلمائه ليزيد فى هذه الحركة المباركة قوة ويمدها بنشاط حثيث .

ثم كانت تقوم بالريف امارة عربية ، هي امارة صالح وبنيه بالنكور ، فلقد بنت هذه الامارة الصالحة عاصمتها النكور واتخذت لها جامعا عظيما ، بنته على غرار جامع الاسكندرية ، كما يقول المؤرخون ، فخرج منه علماء لايقل نشاطهم فى الاندلس وغيرها ، عما كانت عليه طنجة آنذاك ، وحسبنا ان نرجع الى كتب تراجم الاندلسيين ، فنراها تسطع بلوامع منهم .

وتمتد عاصفة الخوارج الى المغرب ، وتتوالى هجراتهم اليه ، واذا بالصفرية منهم يؤسسون دولة ويتخذون لها عاصمة فى جنوب المغرب الاقصى « سجلماسة » فتكون هذه العاصمة ثالثة العواصم الثقافية فى المغرب يؤمها اناس من الاندلس ويفد عليها آخرون من العراق ، وتتطور هذه الامارة الى خلافة يدعيها اصحابها ، ويلقبون بامارة المومنين .

وهناك على الشاطيء الغربي من المغرب ، دولة اختلف فى اصلها ، ولكن لم يختلف فى ان منشأها كان من جماعة الخوارج الصفرية ايضا ، الذين كان من قوادهم طريف البرغواطي ، فعمل على تكوين جماعة قوية الشكيمة ، صعبة المراس ظهرت بمظهر دولة واتخذت لها مقرا لملكها ، هو بسيط تامسنا الكائن بين آسفي وسلا ، وكان طريف على دين الاسلام لاول الامر ولكن هذه الجماعة ضلت فيما بعد بعقائدها الزائفة وشريعتها التي سنها لهم ابنه صالح .

ومع هذا فمما لاشك فيه انها كانت عاملا من عوامل بث الثقافة العربية فى تلك الناحية ، فهؤلاء رجالها واولهم صالح العالم بن طريف ، كان منهم من توجه الى المشرق للارتواء من معينه ، وجميعهم كانت اسماؤهم عربية اسلامية ، وهذا له مغزى لامحالة ، كما كانت طقوسهم تسمى فى معظمها بأسماء اسلامية وسور قرءانهم المزعوم لاتختلف فى اسمائها عن تلك السور الموجودة فى القرءان الكريم ويذكر ابن عذارى ان صالح ابن عيسى كان شاعرا فصيحا .

وكانت لهم صلات بالاندلس ، صلات رسمية دولية بمعنى الكلمة ، ويقال ان صالحا اوصى ابنه الياس الذي عهد اليه بربط صلاته مع الاندلس ، وذكر المؤرخون ان الياس هذا اظهر الاسلام والعفاف .

وعلى كل حال فقد كانت لهذه الامارة علاقات دبلوماسية وثقافية مع الاندلس ، استمرت فى رجالها الذين ظلوا يتسمون بالبرغواطية ، وان كان بعضهم قد نبذ ضلالتها كصالح ، وبعضهم لم ينبذها كابنه يونس فاظهر ديانة جده .

والى جانب الخارجة ، وما كان لها من اثر محمود فى الحقل الثقافي ، نجد هناك موجة من الاعتزال طفت فى بلاد المغرب ايضا ، ويذكر ياقوت وغيره ان الواصلية من المعتزلة كانت فى المغرب تربو على ثلاثين الفا ، فكانت هذه تضرب فى بلاد المغرب طولا وعرضا وهي تدعو الى مبدئها بالسنة حداد غير اشحة ببيانها المعروف ، ولقد راينا من شعراء الاعتزال من يشيد بزعيم الواصلية فيقـول :

لـه خلف شعب الصين فى كل ثغرة
الى سوسها الاقصى وخلف البرابر

رجال دعاة لا يفل عزيمهم
تهكم جبار ولا كيد ماكر

وكان جمع من الاعتزال اتى بالواصلية الى المغرب ، ذكر التاريخ منهم زيد بن سنان الزناتي الذي كان يعيش أوائل القرن الثاني ، وقد تركزت جماعتهم اخيرا فى ايزرج قرب تاهرت .

وعلى العموم فان هؤلاء المعتزلة انتشروا فى جهات من المغرب ، فأقاموا لهم مراكز عديدة فى المغرب الاقصى وفي مزاب والزاب ، وكونوا لهم امارة بمكان يذكره الجغرافيون القدامى باسم « ايزرج » وهي تلي تاهرت كما يقول ابن خرداذبه ، وذكر انها كانت لعهده بيد ابراهيم بن محمد البربري المعتزلي ، وغيره يذكره بمحمد بن محمد ، كما كان نفوذهم يقوى فى المغرب الاقصى ويتركزون فى طنجة ووليلي التي وجد عليها المولى ادريس بن عبد الله اميرها عبد الحميد بن اسحاق الاوربي المعتزلي وكان اعتزاله هذا مما مهد لادريس ان يقيم دولته فى يسر وطاعة لما بين الاعتزال والعلوية من صلة .

والنتيجة ان هذه العواصم تشابكت فيما بينها ، وعملت على نشر الثقافة العربية بهذه البلاد اواسط القرن الثاني .

وكما المعنا اليه ، فقد انضمت الى هذه الطوائف طائفة الشيعة التي قام بالدعوة اليها رجال منهم وعلى راسهم اخوة النفس الزكية ، فاستقر منهم عيسى او علي بالقيروان ، ثم توغل آخرون فى المغرب الاقصى ، مثل ادريس السالف الذكر واخيه سليمان الذي نزل بنواحي تلمسان ، فاستقل بها بنوه ، فكانت عاصمة ثقافية اخرى ، تكونت بعد عاصمة فاس التي اتخذها ادريس او ابنه ادريس عاصمة لـه .

ويذكر المؤرخون ان بناء فاس كان لما ضاقت وليلي بالعرب النازحين اليها من الاندلس والقيروان وبذلك صارت فاس على عهد ادريس الاصغر عاصمة عربية ، بل اهم العواصم العربية بالمغرب الاقصى ، تضم عدوتاها عرب الاندلس من ناحية وعرب القيروان من ناحية اخرى ، وكان فى كل عدوة مسجد جامع عظيم ، فهذا مسجد الاشياخ بالاندلس وهذا مسجد الاشراف بالقرويين ، ويذكر المؤرخون ان الوافدين على ادريس الاصغر من عرب القيروان والاندلس كانوا من مهاجرة قرطبة وحدها نحو ثمانية آلاف بيت ومن مهاجرة القيروان نحو ثلاث مائة بيت ، وقد ذكرت قبائلهم او بطونهم اليمنية من قيس وأزد ومذحج ويحصب والصدف وغيرهم ، كما ذكرت بعض اعيانهم مثل عمير بن مصعب الازدي المعروف بالملجوم وزير ادريس الاصغر ، وعامر بن محمد بن سعيد القيسي قاضيه ، وابى الحسن عبد الله بن مالك الخزرجي كاتبه ، وعلى كل فقد كانوا من الكثرة والمكانة لدرجة انهم شطروا العاصمة الجديدة شطرين اختص كل فريق باحدهما وكان كلا جامعي العدوتين قائما على نشر الدين والثقافة العربية ، بين الاندلسيين وجوارهم البربر والقرويين وجوارهم كذلك ، ومن محاسن مهاجري القيروان ، ان تكون فيهم سيدة فاضلة عربية الاصل ، هي فاطمة بنت محمد الفهري ، ترث مالا فتنفقه فى بناء مسجد ، حمل راية الثقافة بالمغرب ، وهو مسجد القرويين ، الذي انضم الى تلك المساجد الثلاث ، ولكن الله آثره فيما بعد بالبركة والخلود ، فهو من اقدم جوامع الاسلام حيث بني عام 245 .

اجل هكذا اصبحت فاس العاصمة الكبرى في المغرب ، وكان لها صلات مع الاندلس وثيقة فى بعض الاحيان ، كما كانت لها مع القيروان كذلك وان اختلفت السياسة ، وهذا مما يحمد بين دول الاسلام ، ان اختلاف السياسة بين الاقطار لم يكن بالمرة عائقا عن اتصال المسلمين بعضهم ببعض فى تلك الاقطار المتباينة ، ولم تحاول الدولة أن تحد من هذا الاتصال بالمـرة .

وطبعا حينما يكون هناك انسجام او اتحاد تكون الفوائد اعم والصلات اقوى ، وهذا ما حدث اواخر القرن الثالث واوائل الرابع حيث امتد سلطان الاندلس الى المغرب ، فكان ممن تخرج من القرويين علماء عرفوا فى اروقة جامع قرطبة

وبعد فلا يفوتنا ان نذكر مدنا اخرى كان لها شأن فى نشر الثقافة ، الى جانب المذكورات آنفا ، وذلكم

مثل سبتة ومليلية والبصرة المغربية واصيلا ، فهذه كلها وجدنا لها اصداء علمية اصيلة ، سـواء بالمغرب والاندلس ، وكان منها من تولى رجالها مناصب علمية عاليـة في الخلافـة الاموية .

اذن فقد وضعنا ايدينا على شبكة محكمة لمراكز الثقافة الاولى بالمغرب ، وهي مراكز متعددة المشارب فبعضها كان اصحابها على مذهب أهل السنة وبعضها على مذهب الاعتزال وبعضها على مذهب الشيعـة المعتدلة وبعضها على مذهب الخوارج وبعضهـا على شعائر ومعتقدات زائفة ـ كما قيل ـ ولكنها جميعا على تعدد مشاربها واختلاف اهوائها كانت تحمـل ثقافة عربية ، وترتبط جميعها بمراكز الثقافة بالاندلس والقيروان بالرغم من اختلاف السياسة .

وقبل ان ندخل في التفاصيل ، نرى ان نقـف وقفة قصيرة عند قضية اومانا اليها ، وهي صلـة الاعتزال بالتشيع ، فالصلة من حيث التعاليم شديدة وثيقة بين المذهبين ، اذ هما يشتركان ، في القـول بالتوحيد القائم على دعائم كانت بسيطة اولا ثم تعقدت جدا وتفرع منها فيما بعد قول آخر كان مثار الخلاف الشديد بين المعتزلة والاشعرية بالخصوص ، وهـو العدل الذي اوجبه المعتزلة في الجزاء وثالث الاسس هو القول بالوعد والوعيد ، اي الوعد بالاثابـة لمـن احسن واطاع ، والوعيد بالعقاب لمن كان علي العكس، ورابعها القول بالمنزلة بين المنزلتين ، فالعاصـي من المسلمين لا يوصف بالايمان الحق ولا بالكفر ، بـل منزلته بينهما ، فهو بذلك ليس بكافر ولا مومـن ، وخامسها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهـذا كله داخل حقيقة في التوحيد (انظروا ضحى الاسلام)

هذا ما يتصل بالعقيدة عند الطائفتين ، وهناك ما يتصل بأعلام هاتين الطائفتين ورجالهما الكبـار، فواصل الذي انتشر مذهبه بالمغرب كله كان تلميـذا لابي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وكان واصل نفسه استاذا للامام زيد بن علي بن الحسين ، وكـان عبد الله والد المولى ادريس يعد في الطبقة الثالثة من طبقات المعتزلة ، ويذكر قدامـة بن جعفر في كتابـه الخراج وصناعة الكتابة ان مملكـة الادارسة كانت موطنا للاعتزال اذ يقـول : ان وراء تاهرت مسيرة اربعة وعشرين يوما بلد المعتزلة وعليهم رئيس عـادل وعدلهم فاشى وسيرتهم حميـدة ودارهم طنجـة ونواحيها والمستولي عليها في هذا الوقت ولد محمد بن ادريس . كما ان معاصره ابن خرداذبه يقول بوجودهم في ابزرج ونحوه يقول به ابن الفقيه الهمذاني معاصرهم ايضا ، وفي القرن الرابـع يزور المقدسي المغـرب ويتحدث عن الشيعة فيقول : نظرت في كتاب الدعائم فاذا هم يوافقون المعتزلة في اكثر الاصول ، وهـذه الاصول هي مذهب الادريسية وغلبتهم بكورة السـوس الاقصى . وينقل ابن عذارى في الجزء الثاني عن ابـن حزم ان الادارسة هم أصحـاب الاعتزال والشيعـة بالمغرب ، وزاد فنسب اليهم حتى الخارجية .

والنتيجـة ان الاعتزال بالمغـرب انساح في الخارجيـة والشيعيـة وانتهى اجله بالمغرب قبل ان ينتهـي بالمشرق .

ولا يفوتنا ان نذكر ـ على سبيـل الاستطراد ـ ان المولى ادريس كان مهتما بتلمسـان اهتماما زائـدا فبنى بها مسجدها الجامع ، ثم استقل بهـا اخـوه سليمان او ابناؤه من بعده ، ويظهر ان ابنـه المولى ادريس الاصغر اراد ان يجعلها امارة حاجزة بينه وبين الرستميين وهـو ما يعـرف في العرف الدولي بـ (Buffer State) وعلى كل فقد انتشر ابناء عمـه في هذه الجهات وكونوا بها اقطاعات عديدة فيما بعد ، حتى قال معاصرهم اليعقوبي في معجم البلدان عـن ولد محمد بن سليمان ، كل رجل منهم مقيم متحصن في مدينة وناحية وعددهم كثير حتى ان البلد يعـرف بهم وينسب اليهم وآخر المدن التي في ايديهم المدينة التي تقرب من ساحل البحر يقال لها سوق ابراهيـم وهي المدينة المشهورة فيها رجل يقال له عيسى بـن ابراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله

وعلى الجملة فتلمسـان كان لها شأن في انجـاب كثير من العلمـاء الذين استفادت منهـم الاندلس واستفادوا هم منها ، مثل ابي الحسن خطاب بن احمد ابن خطاب بن خليفة الشاعر ويحيى بن عيسى المعروف بابن الصيقل المري سمع بمرسية من أبي علي الصدفي وعمر أكثر من مائة سنة ، ويعقوب بن محمد الاغماتي الفقيه الحافظ الذي سمع من ابي علي الصدفي كذلك جامع الترمذي وغيره ، وعلي بن عبد الرحمن المعروف بابن ابي جنون وهو كذلك من اصحاب الصدفي ومن المؤلفين في اصول الفقه ، كما قصد تلمسـان من علماء الاندلس جابر بن محمد الانصاري الحافظ والراوية ابو عبد الله بن عبد الرحمن التجيبـي ، وعبد الملك الوراق من رجال القرن الثالث ، وقد امها من الشعراء مثل بكر بن حماد الذي قال شعرا في قومها كما نجـد ذلك بالبيان المعرب .

وبعد تلمسان التي كانت على اتصال بامارة عظيمة لعبت دورا هاما فى الثقافة العربية فى المغرب الاوسط عامة ، وهي امارة تاهرت،التي كانت تسمى بلخ المغرب او عراق المغرب ، تاتي امارة استقلت بنفسها فى الريف ، على اوائل القرن الثاني ، وكان لها شان عظيم فى الحقل الثقافي ، كما كانت على اتصال وثيق بالاندلس من ناحية ، وتاهرت من ناحية اخرى ، وهي امارة النكور ، التي كانت عاصمتها ، مدينة النكور ، تقع قرب المزمة ، بنحو خمسة عشر ميلا

وكانت هذه الامارة قد تأسست على يد عائلة تنتمي الى حمير العربية ، وكان على راسها صالح بن منصور المعروف بالعبد الصالح ، ويذكر اليعقوبي في معجمه السالف الذكر ، ان اهل البلد يزعمون أنه من اهل البلد نفزى وهذا مهم ايضا ثم قال ومن هذه المدينة جاز رجل من ولد هشام ومن معه من آل مروان الى جزيرة الاندلس ، يريد عبد الرحمن الداخل الذي كانت امه من نفزة هؤلاء ، وقد نشر صالح تعاليم الاسلام بهذه المدينة الساحلية ، ولما توفي أوائل القرن الثاني خلفه ابنه المعتصم فصار على منهاج أبيه ثم تولى بعده شقيقه ادريس وهو الذي اختط مدينة النكور واتم بناءها ابنه سعيد وبنى الجامع بها ؛ ومهما يكن فقد ازدهرت المدينة فى القرن الثاني وقصدها الناس وكان فيها علم وادب يتمثل فى كثير من رجالها مثل ابراهيم بن أيوب الشاعر ، والعالم موسى بن ياسين مولى صالح ، وحسين بن فتح الذي روى عنه الباجي واثنى عليه ، وهؤلاء كانت لهم صلة بالاندلس كما كان من الاندلس من أتى الى النكور واقام بها مثل الاحمس الطليطي شاعر الامارة ، ومن شعر ابراهيم بن ايوب قوله :

ايا املي الذي ابغي وسولي
ودنياي التي ارجو وديني
الحرم من يمينك ري نفسي
ورزق الخلق من تلك اليمين
ويحجب عن جبينك طرف لحظي
ونور الارض من تلك الجبين
وقد جبت المهامه من نكور
اليك بكل ناجية امون

فلعل هذه الابيات كانت مدحا لامير من امراء الادارسة ، كما كان من بيت الامارة ايضا مثقفون منهم مثل الفقيه المالكي عبد الرحمن بن سعيد

ومن الطريف ان نجد ان زامر عبد الرحمن الناصر كان من النكور ، فلقد وصفه ابن عميرة كما وصفه الحميدي وهو فى بعض مجالس الانس ، وعلى اوائل القرن الرابع ، نجد بين شعراء النكور والعبيديين نقائض تسجلها لهم التواريخ كما فى ابن عذارى وغيره فقد كان عبيد الله كتب الى اهل المغرب عامة ، يدعوهم الى الدخول فى طاعته ، وكان من جملة من كتب اليهم سعيد بن صالح الذي وصل اليه الكتاب مذيلا بهذين البيتين :

فان تستقيموا استقم لصلاحكم
وان تعدلوا عني ارى قتلكم عدلا
واعلو بسيفي قاهر لسيوفكم
وادخلها عفوا واملاها عدلا

فلما قراهما امر شاعره بنقضهما فقال :

كذبت ورب البيت لا تعرف العدلا
ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
وما انت الا كافر ومنافق
تميل مع الجهال فى السنة المثلى
وهمتنا العليا لدين محمد
وقد جعل الرحمن همتك السفلى

كما نجد فى سقوط هذه المدينة بيد قائد عبيد الله على تاهرت ، مصالة البربري ، رجزا لشاعرهم كالآتي، يتشفى فيه من سعيد وقد قتل :

لما طغا الارذل وابن الارذل
في عصبة من الطغاة الجهل
قال نكور دون ربي معقلي
اتاه محتوم القضاء الفيصل
من الاله المتعال الاعدل
حطم اهل كفرها بالكلكل
على قنا من الرماح الذبل
ذو لمة شعثاء لم تفتل
ولحية غبراء لم ترجل

وللمكانة التي كانت عليها النكور لدى الامويين الف فيها لهم ابن الوراق

وكذلك مليلية بنيت اوائل القرن 2 او جدد بناؤها ونسبت الى مليل البربري ، وكان اسمها الفنيقي روسدير ، وكان مليل من يفرن الذين كانوا مع ادريس بن صالح المذكور ، وظهر نشاطها العلمي مبكرا حتى كان منها احمد بن فتح يضاهي ببكر بن حماد معاصره فى العلم والادب ، وخلف بن مسعود

الجراوي المليلي ، وكلاهما رحل الى الاندلس فاخذ عن رجالها واخذوا عنـــه .

ولمـا كان الغزو العبيدي ، كانت مليلية من المدن المغربية التي ضمها الى الاندلس عبد الرحمن الناصـر فازدادت بذلك تعريبا

واما سبتة فقد كانت الحركة الثقافية بها نشيطة بلغت اوجها اوائل القرن الرابع ، وكانت قد ضمت الى الاندلس كذلك ، فوجدنا لاول ما ضمها اليه الناصـر الاموي ، شعرا لامير ادريسي بهذه المناسبة ، وهــو عبيد الله بن يحيى بن عمـر بن ادريس حيث يقـول: ـ مخاطبا للناصر ـ

بسيفــك دانت عنــوة واقــرت
بصائــر كانت برهبــة قـد تولت
وما قربت اهواؤهـــا ان تقــربت
ولا حليـت بالـــزي لمـــا تحلــت
ولكـــن ازالت راسيـات عقودهـــا
عزائم لو ترقى بها العصـــم زلـت
ودولـــة منصور اللـــواء مظفـــر
تدال بحمـــد اللـه من شر دولـــة
فهذا اوان النصـــر منهـــا وهـــذه
تباشرهـــا تروي الاقاحي بسبتـــة

والمهم من هذه الاشعار التي وان لم تكن في مرتبة سامية ، فهي على كل حال تثبت اصداء للعربية كانت تتردد في كثير من المناسبات وكان من الادارسة انفسهم شعراء ، منذ ادريس الثاني فابنائه ثم احفاده الذيـــن كان منهم شاعرنا هذا ، ونعود الى سبتة بالذات فنجد منها مثل خلف بن علي بن ناصر البلوي ومحمد بن علي الاموي وعتيق بن عمران بن محمد الرقعي النفـزاوي قاضي سبتـــة ثم ابراهيم بن ابي العبـــاس القيسي ويوسف بن حماد بن خلف الصدفي وعبيـــد الله بن غالب الهمداني ثم محمد بن يعلـى المعافـــري ثم ابـا محمد بن ابراهيم السبتي وعيسى بن علاء بن نذير بن اعين ، ونجد آخرين يذكرون بكتب تراجـــم المالكية ، وعلى راسها ترتيب المدارك لعياض ، وهذه ترجمـــة لاحد قضاتها من المدارك : ابو بكـــر محمد بن عيسى رحمه الله ويعرف بابن زوبع من اهل سبتة ، وقال ابن حيان ابن زوبع من اهل العلم والادب واجل قضـــاة سبتة ، وكان تخطط بالشرطة العليا وقضاء سبتـــة واصيلا والمغرب ، كذا رايت السجلات تنعقد عليه .

ويقال ان اصله من البصرة ولـــه رحلـــة الى الاندلس ، ويقال انه دخل العراق وحج ولقي علمـــاء البلاد ، ورجع الى قرطبة فاختص بابن ذكوان وهو كان الحفي به لما وجد عنده من العلم . وكان له مال واسع ، وذلك ان قاضي الجماعة تسلف له مـــالا من مـــال الاحباس باشبيلية ، واخرجه في زيت باسمه ، فعـــاد عليه منه عائد كان اصل ماله فيما ذكر .

وكان حســن الســيرة في قضائه ، وايامه مشهورة لعلو مكانه وسعة علمه وبعد صيته . قال لي بعـــض الشيوخ وكان متفننا في علمه ، نظارا صاحب حجـــة وجدل ، عالما بالحديث .

وقال ابن حيان : وكان له منزلة عاليـــة عنـــد سلطان الاندلس متمكن الاسباب لديه ، وهـو آخـــر قضاة بني امية بسبتة . قال ابو مروان بن حيان : وكان من وجوه اصحاب ابن ذكوان وله في العلـــم والفقـــه والصرامة درجة سامية وقدم صدق ادته الى المنية .

وقال : وقلده المظفر قضاء سبتة بلده وعملـــه بارشاد ابن ذكوان اليه ، وذلك عند اختياره لخطـــة قضاء اهله ، فحمدت ولايتـــه واتصلت الى ان قامت الفتنة ، وسما قاسم بن حمود الى الخلافـــة على بني مروان بسبتة ، فكان من قاضيها هذا عنه بعض التأخر ، فاغرى به العامة وقتله ، ورعب الناس بقتله ، فلـــم يختلفوا عليه ، وخبره مشهور .

وما قاله ابن حيان من اغرائه للعامة غير صحيح فقد كان اجل في قلوبهم من ذلك ، وانما قتله رجال بني حمود ، والصحيح ان الآمر بقتله علي بن حمود واخوه قاسم ، وذلك بعد الاربعمائة ، وقد بسطت اخباره في ذكر قضاة سبتـــة من تاريخهـــا .

وكانت سبتة في القرن الخامس اسعد حالا واثرى ادبا ـ خصوصا الشعر ـ من باقي المدن المغربيـــة ، وحسبنا ان نقرا ترتيب المـــدارك السالف الذكـــر والخريدة للعماد والمطرب لابن دحية وعنوان المرقصات والمطربات لابن سعيد ، فنجد ادباء وشعـــراء غير من تقدم بهم الذكر ، من مثل الشاعر ابن يقظان وابن شقرة وابن غالب وغيرهم ، وفي هذا القرن بالذات نجـــد المعتمد بن عباد ، وهو من هو ادبا ووفرة قصره بالعلماء والشعراء ، يحسد سبتة على ثلاثة نفر من رجـــالها ، قال ، ـ كما في معجم البلدان لياقوت ـ : اشتهيت ان يكون عندي من اهل سبتة ثلاثة نفـــر ، ابن غـــازي الخطيب ، وابن عطاء الكاتب ، وابن مرانة الفرضي .

نعـم ، حتى الخطيب من هؤلاء والكاتب كذلك ، كان لهما شعر احتفظت ببعضه كتب التراجم ، فلابن

غازي شعر مذكور فى المطرب لابن دحية ، يصف بـه ناقـة فيقـول :

حـرف كمثـل الصاد الا انهـا
بعد السرى جاءت كحرف النـون
كالبـدر قـدره الالـه منـازلا
في الافـق حتى عاد كالعرجـون

ولابي بكر بن عطاء هذه الابيات :

سامنـع قلبي أن يكـون لكم مثـوى
واستدفع البلوى واستصرف اللهـوا
وما سرني بعد الرضـى اذ غدرتكم
وغادرتم بين الحشا هضبتي رضـوى
وصيرتـم العتبـى عتابـا فكلمـا
ابثكـم شجوى تزيدونني شجـوى
قضى الله ان اقصى واصفيكم الهـوى
وغيري يستدنـى وان كان لا يهـوى
وما كان ظنـي قبل ذا ان حاسـدي
بمنهلكـم يـروى وانـي لا اروى
وما جلـت البلـوى علي وانمـا
شماتـة اعدائي اجـل من البلـوى

واما اصيلا فقد كانت كذلك ذات حظ لايستهان به من الثقافة المبكرة ، كان رجالها مثل عبـد الله بن ابراهيم بن محمد الاصيلي الذي قدم قرطبة فاخـذ عن رجالها ثم اتجه الى المشرق فاخذ عنه علماء جلـة ثم عاد الى الاندلس فتتلمذ عليه خلق كثير وكان حافظا عالما بالكـلام والنظر الف كتابا فى اختلاف مالك وابي حنيفة والشافعي ، سماه كتاب الدلائل على امهـات المسائل ، وكذلك ابنه محمد الذي اشتهر فى الاندلس، وكلاهما من رجال القرن الرابع ، ومثـل ابراهيم بن محمد الاصيلي الشاعر الذي مدح بني زياد القاطنين كانوا حول اصيلا بقصيدة يقول فيها :

سقـى غربـي ارض بني زيـاد
سحائـب مـا يجـف لها غـروب
ولا زال النعيـم يعـم قـومـا
ازاؤهـم مـن الشـرق الكثيـب

ومثل احمد بن عبد الله بن موسى الكتامي الفقيه الشاعر دخل الاندلس فسمـع مـن وهب بن مسرة وغيره ، وكان بيت هذا العالم مشهورا بالعلـم والادب حتى القرن الرابع ، ومثل عبد الله بن ايمـن الزويزي قاضيهـا لذاك العهـد .

ولم تكن البصرة تقل عن هذه ، فقد نسب اليهـا علماء جلة مثل يحيى بن خلف الصدفي الذي رحل الى المشرق فسمع بمكة من ابي سعيد ابن الاعرابي ، ومن غيره واخذ عنه كثير من الاندلسيين ورجال سبتـة التي توفي بها ، ومثل احمد بن حذافة الفقيه المالكـي ، وبشار بن بركانة ، وغيرهم من فقهاء المالكية الذيـن يذكرون بطبقاتها الاندلسية وغيرها . وكـان امـراء البصرة يعملون جاهدين على جلب الشعراء اليهـا ، وخصوصا احمد بن القاسم الذي كان يجـزل لهـم الصلات ، كما فعل مع بكر بن حمـاد الذي مدحـه بامداح كثيرة ، بعد ان كان قد بعث اليه بهذه الابيات :

ان السماحـة والمـروءة والنـدى
جمعـوا لاحمـد من بنـي القاسـم
واذا تفاخـرت القبائـل وانتمـت
فافخـر بفضـل محمـد وبفاطـم
وبجعفـر الطيـار في درج العلـى
وعلي العضـب الحسـام الصارم
انـي لمشتـاق اليـك وانمـا
يسمو العقـاب اذا سمـا بقـوادم
فابعـث الي بمـركـب اسمـو بـه
علـي اكـون عليـك اول قـادم
واعلـم بانـك لـن تنـال محبـة
الا ببعـض مـلابـس ودراهـم

كمـا مـدح القاضي احمد بن فتح التاهرتي اميرها عيسى بن ابراهيم بن القاسـم بن ادريـس بقصيدة يقول فيهـا :

ما حـاز كـل الحسن الا قينـة
بصريـة فـي حمـرة وبيـاض
الخمـر فى لحظاتهـا والـورد فى
وجناتهـا هيفـاء غيـر مفـاض

فكان الشعر يتردد فى هذه الجهـات ، من ذلك ان شاعرا كان آنذاك سكن فى حصن كـان مقاما على وادي ورغـة فقـال :

الا هـل الى اهـل المدينـة انني
بورغـة بيـن الاعجميـن غـريب
اذا قلت شيئـا قيـل ماذا تريـده
لهـم بيـن احرار الوجـوه قطـوب

وهذا يذكرنا بما قاله المتنبـي فى شعب بوان ، والنتيجة ان الشعـر فى هذه الجهـات كانت تتردد اصداؤه فى القـرن الثالث مدحـا كـان ام غيـره ولاهمية المدينة نـرى محمد الوراق المتوفـي عـام 292 ينظمها فى سلك المدن المغربية التي الـف فيهـا للامويـيـن

واما سجلماسة ، فمن رجالها عيسى بن سعادة الفقيه له رواية بالاندلس ورحلة الى المشرق صحب فيها ابا الحسن الفاسي وابا محمد الاصيلي ولقي معهما حمزة بن محمد الكناني ، وكان القابسي يشهد له بالاتقان ، اخذ عنه ابو محمد بن ابي زيد القيرواني وغيره من العلماء ؛ ومن رجالها يحيى بن زكرياء المعروف بابن الرباطي روى عنه محمد بن مخارق وحدث عنه يحيى بن هلال بن فطر ، ومن رجالها جساس الزاهد له رحلة الى المشرق ، سمع عنه عبد الرحمن بن خلف التجيبي الثغري بمجريط كتاب الزهد ، وغير هؤلاء نجدهم مبثوثين في تراجم الاندلسيين وغيرهم . وكذلك كان من امرائها رجال لهم وزنهم في الثقافة الاسلامية ، مثل سمكو الآخذ عن عكرمة ، ومثل محمد بن الفتح بن ميمون

وتقدم ان مملكة البرغواطيين الزائغة كان لها ولا شك حظها من العروبة ، وليس هذا من باب الافتراض وحده ، لانها كانت على صلة بالاندلس وان مدنا كانت في بسيطها تامسنا مثل شالة وآنفى عاصمتها وفضالة مينائها ، بل وجدنا من رجالها علماء كطريف وابنه صالح والياس ابنه وابنه يونس وصالح بن عيسى الذي تقدم انه كان شاعرا بليغا فصيحا ، على ان ظريفا كان مسلما أول الامر وكان الياس يظهر الاسلام كذلك. وقد ملك هذا خمسين سنة .

ومن ملوكهم المشهورين أبو عفير محمد بن معاذ بن اليسع ، وقد ملك اواسط القرن الثالث ، وكانت له وقائع مشهورة في قومه منها وقعة بهت التي قال فيها شاعر مصمودي ، اسمه سعيد بن هشام ، قصيدة عارض بها قصيدة عمر بن كلثوم النونية ، حيث قال :

قفي قبل التفرق فاخبرينا
وقولي واخبري خبرا مبينا
هموم برابر خسروا وضلوا
وخابوا لا سقوا ماء معينا
يقولون النبي ابو عفير
فاخزى الله ام الكاذبينا
الم تسمع ولم تر يوم بهت
على آثار خيلهم رنينا
رنين الباكيات بهم ثكالى
وعاوية ومسقطة جنينا
هنالك يونس وبنو ابيه
يوالون البوار معظمينا
فليس اليوم ردتكم ولكن
ليالي كنتم مستبسرينا

يريد ان كنتم اصحاب ميسرة المعروف الخارجي المصفري الذي ثار عام 122

وبهذا نرى أن احداث المغرب كانت تسايرها اشعار تقال فيها ، وقد نسب بعضها الى المولى ادريس لاول عهده

وبقيت هناك مدن اخرى اشتهرت ببعض رجالها، مثل مدينة جراوه التي كانت بازاء تلمسان ، وقد تقدم ذكر بعض المنسوبين اليها عند ذكر مليلية ، وممن اجادوا وصفها ابن عذارى في الجزء الاول من كتابه، وذكر انه كان بها خمسة حمامات ، مما يدل على عظم أمرها ، قال اسسها ابو العيش عيسى بن ادريس سنة 257 ، ويظهر ان العبيديين لم يخربوها في زحفهم، كما فعلوا بالنكور ، ولهذا نجد لها اهمية حتى في أواسط القرن الرابع ، بل ان موسى بن العافية ، استولى عليها لعبد الرحمن الناصر واخرج عنها الحسن بن ابي العيش

وقد ورد ذكرها في شعر بكر بن حماد حيث قال:

سائل زواغة عن طعان سيوة
ورماحه في العارض المتهلل
ودبار نفزة كيف داس حريمها
والخيل تمرغ في الوشيح الذبل
غشى مفيلة بالسيوف مذلة
وسقى جراوة من نقيع الحنظل

وكذلك كانت طنجة من المدن التي حاول الامويون ان يضموها اليهم ، ووفقوا فعلا في ذلك ، فكان بها للعلم والادب شأن ، وكانت قد تعرضت في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ، لفتنة متنبيء قد تنبأ بها او باحوازها التي هي ما بينها وبين سبتة ، وكان لهذا الرجل ما كان للبرغواطيين ، من ادعية عربية وقرءان مزعوم ، يهمنا لعربيته ، وكان اسم الرجل حم ، فلما قضي عليه اوائل القرن الرابع قيل شعر وهو :

وقالوا افتراء ان حاميم مرسل
اليهم بدين واضح الحق باهر

الى ان يقول :

فان كان حاميم رسولا فانني
بمرسل حاميم لاول كافر
رووا عن عجوز ذات افك بهيمة
تجاوز في اسحارها كل ساحر
احاديث افك حاك ابليس نسجها
يسرونها والله مبدي السرائر

وكان من علمائها وادبائها اجلة مثل عبد الله بن سمجون وابي عبد الملك مروان بن سمجون ، الذي رحل الى المشرق وقال لم ادخل الى المشرق حتى حفظت اربعة وثلاثين الف بيت من اشعار الجاهلية ، واقام به سبع عشرة سنة ويذكر ياقوت فى معجمه انه كان من فطاحل الخطباء . ومنهم عبد المنعم بن عبد الله بن علوش المخزومي واحمد بن سليمان ابن احمد المكناسي وقاضيها علي بن هارون وسليمان بن يحيى بن سرواس الجمحي الذي روى عن ابن سمجون اللواتي وعنه حدث ابو القاسم بن بشكوال بمسند الموطأ رواية الجواهري ، وهؤلاء زاروا الاندلس التي وفد منها على طنجة كثير منها مثل ابي اسحق ابراهيم بن صواب الشاطبي وكان من اهل المعرفة فى الطب والنحو واللغة والادب فتصدى للاقراء بطنجة والمعالجة بها ثم توجه اخيرا الى فاس ، ومنهم محمد بن عبد الله بن الفازي المتوفى عام 296

وتاتي فاس التي عرفت قبل تاسيسها هجرات من عرب افريقيا والاندلس ومن فرس العراق كذلك الى مؤسسها ، ولا شك ان هؤلاء الفرس الآتين من العراق كان لهم شان فى الثقافة وغيرها ، لدرجة ، ان من المؤرخين من يرى ان اسم فاس نفسه محول عن فارس كما فى روض القرطاس الذي اثبت ان احد ابواب المدينة كان يدعى باب الفرس وهذا الاشتقاق لا يهمنا الآن بقدر ما يطلعنا على اهمية وجودهم فى العاصمة الادريسية ، ولا نستبعد ان تكون لهم يد عربية ان لم يكن لهم لسان كذلك ، وهم آتون من العراق العباسي

ومهما يكن فقد احتفظت كتب التراجم بأولئك الذين كانوا يزاولون اعمالا ثقافية على عهد المولى ادريس الاصغر ، كما تقدم وكان ابوه ومولاه راشد من المثقفين ثقافة عالية ، ادب راشد بها المولى ادريس الاصغر فكان عالما بقرض الشعر ، ويستعمله فى الصراع السياسي الذي كان بينه وبين الاغالبة ، ويخاطب بعض رجاله به ، وكان هو وابوه وابناؤه من بعده على حظ من العلم كما تحدثنا به التواريخ ، ولا تبخل علينا بنماذج من خطبهم او اشعارهم كالتي ذكرت فى روض القرطاس والجزء الاول من البيان المعرب لابن عذارى ، الا ان هذه المدينة تعرضت لاهوال لم يتعرض لها غيرها فانبهمت معالمها الثقافية فى عهودها الاولى ، وان كنا على كل حال نحس لها ركزا فى الفينة بعد الاخرى ، لقد ام هذه المدينة شعراء فى القرن الثالث ، منهم المادح ومنهم الهاجي ، وكلهم نستفيد منهم باديء ذي بدء ، لانها ما لفتت الانظار حتى كان اصحابها يعلمون انها تنعكس عليهم بالخيرات ممن يفهمون شعرهم ، ولم تكن هذه الاهاجي تنصب على البقعة نفسها ، كما وجدنا فى غيرها ، بل كانت تنصب على اصحابها ، وهذا مهم ايضا ، فابن اسحق الجليلي الذي نجده كما فى ابن عذاري وياقوت يمدح عدوة القرويين بقوله :

يا عدوة القرويين التي كرمت
لا زال جانبك المحبوب ممطورا
ولا سرى الله عنها ثوب نعمته
ارض تجنبت الآثام والزورا

نستفيد منه بقدر ما نستفيد من هجو ابراهيم ابن محمد الاصيلي لها ، واحمد بن الفتح القاضي التاهرتي كذلك والمكي المفحش ، فالمدح والذم لا يهماننا لمجردهما ، فكل ممدوح للشعراء مذموم لهم ، ولكن المهم ان العاصمة العلمية كانت يحق كذلك ولو خفت صوتها لعوامل ما ، ولهذا لانجد من مذكوريها فى التراجم الا من كان يعيش اواخر القرن الثالث فما بعدها ، مثل ابي محمد عبد الله بن علي الفارسي والعالم ابي الحسن بن محمد الصدفي والحافظ دراس بن اسماعيل المكنى بأبي ميمونة ، الذي كان من كتبه ما الفه فى فضل فاس علما ودينا ، والذي قصده من القيروان عبد الله ابن ابي زيد النفزاوي السالف الذكر ، والمعروف بمالك الصغير ، وله رحلة الى الشرق لقي فيها بالاسكندرية علي بن عبد الله بن ابي مطر وسمع منه كتاب ابن المواز وحدث به بالقيروان ودخل الاندلس طالبا ومجاهدا وسمع بها منه غير واحد ، وكان من فقهاء فاس وحفاظها كذلك خير الله بن القاسم وابو موسى عيسى بن سعادة ، وعبد الملك الكوري ، وموسى بن يحيى الصديني الحافظ العالم بالراي ، وله رحلة الى الشرق وحدث عنه وعن سابقه عبدوس بن محمد بالاندلس ، ثم كان فى القرن الرابع علماء على راسهم فقيه فاس ابوجيدة ابن احمد ، وقد انضوت فاس فى هذا القرن تحت لواء الامويين حينا من الزمن والعبيديين حينا آخر ، الى ان كان محمد بن ابي عامر يعيد كرته عليها فيضمها الى الاندلس كما ضم غيرها اليها ، فقويت الهجرة بينهما ولهذا وجدنا بعض رجالها يذكرون لاول مرة فى فهارس الاندلسيين ، كما حصل فيما بعد بالنسبة للقيروان التي كان بها مثل ابي عمران موسى بن عيسى بن ابي حاج الذي اشتهر بالقيروان فى القرن الخامس اشتهارا عظيما ، فقصده تلاميذ من اقطار

المغرب العربي والاندلس وغيرهما ، وفي هذا القرن بالذات صارت فاس ينبغ فيها شعراء موهوبون ، وكانت من قبل موطنا للعلماء والحفاظ

واخيرا ، فلا بد ان نقول ان الحركة الادبية بالمغرب الاقصى خصوصا ، ظهرت متاخرة عن غيره زمنا ، والسبب فى ذلك لا يمكن ان نحصره فى واحد، بل ان اسبابا كثيرة اعتورت المغرب المذكور ، فجعلت العربية فيه تبدو كما قلنا ، وكان عامل الاستقرار، اهم العوامل ، فالمغرب كان آخر الاقطار التي تنعم بالاستقرار ، بل بفترات من هذا الاستقرار ، والزوابع التي تهب عليه من خارجه او تنبعث فى داخله كانت من الزوابع التي لا تبقي ولا تذر ، فاول استقرار نجده به كان على عهد موسى بن نصير ، ولكن ما حدث ، من فتح الاندلس فى عهده ، كان وبالا على المغرب من هذه الناحية ، ناحية التعريب ، فلقد عرف اولئك العرب وعلى راسهم موساهم وبنوه الاندلس ، فهرعوا اليها ، ولم يعودوا الى المغرب ، بل ظل بالاندلس حتى احفاد لطارق ذكرهم ابن حزم فى جمهرته كما ان اتجاه حبيب بن عبد الرحمن الى صقلية كان فرصة للثورة فلما عاد لم يتعد منطقة القيروان وترك المغرب،وعلى كل حال فقد تعرب الاندلس قبل ان يتعرب المغرب الذي امده بأولئك العرب ، وبذلك سكت صوت العروبة والادب العربي الى حين ، ان كان قد نطق به اصحابه ، وهذا لا نستغربه ، بل هو ما حدث فى الجزيرة العربية نفسها ، وقد نزح عنها شعراؤها والهادرون بلغة الضاد فيها ، فترددت اصداؤهم خارج الجزيرة وخفتت اصواتهم بها ، ولهذا لا نستغرب ايضا اذا قرانا فى التاريخ ان المولى ادريس الاصغر كان فريدا بين البربر ولم يكن معه عرب ، الى ان اتاهم منهم عرب القيروان والاندلس ، كما قلنا ، حقا لقد نعم المغرب باستقرار على عهد هذا الملك ، ولكن سرعان ما قامت الفتن بين اولاده واحفاده ، وقضت على الاخضر واليابس ، وحق كذلك ان الفتن والحروب كانت بالنسبة للعرب من عوامل تنشيط اللغة والشعر والخطب منها بالخصوص ، ولكن هذا ان كان فى العرب وهم اصحاب اللغة الاصيلة فيهم ، لا يكون فى غيرهم واللغة طارئة عليهم غريبة بينهم تنتظر منهم التعرف عليها والاصاخة الى نداءاتها ، ولا بد فى هذا كله من هدوء بال واطمئنان حال ، وما كان هدوء وما كان اطمئنان ، ففتن داخلية بين ابناء الادارسة الى اخرى بينهم وبين غيرهم ومن ورائهم العبيديون النازفون للبقية الباقية ، ان كانت هناك بقية ، والنازحون بها الى المشرق ، حيث لا عودة لهم كانت، الا بالرماح والسيوف تتقصف وتتكسر على رماح وسيوف اخرى امتدت الى المغرب من الاندلس ، فكان المغرب لهؤلاء واولئك الميدان الخارجي الذي عرف في ايامنا ميدانا لاصحاب الحرب العالمية

وقد لاحظنا ان الاندلس صارت تمد المغرب من حيث درت او لم تدر بثقافة عربية ، فكانت المراكز القريبة منها اسعد حظا من غيرها ، وبذلك يكون المغرب آخذا بعد ما كان معطيا ، بل كان بالاندلس نفسها مغاربة نبغوا فيها ، قبل ان ينبغ زملاؤهم بالمغرب ، وهذا غير غريب ، ونحن نعلم ان امارة مغربية خالصة كانت قد تكونت بشمال اسبانيا وان عبد الرحمن الداخل ما استطاع التغلب عليها الا بمكر ودهاء ، وكان الذي اسس تلك الامارة امير برية Santa-Maria جنوبي غربي طليطلة Toledo

اما الذين نبغوا فى الاندلس من المغاربة قبل ان ينبغ مثلهم فى المغرب فيكفي ان نعد على راسهم الشاعر العظيم ابا عمر بن دراج الصنهاجي الاصل .

وهناك شعراء وكتاب وعلماء من المغاربة يذكرون فى كتب التراجم الاندلسية بانسابهم المغربية ، ولكن المغرب ما احتفظ منهم الا بهذه النسبة التي ليست كلها جديدة على صاحبها بل هي اصيلة فى جلهم كما نفهم ذلك من النص عليه فى كتاب جمهرة الانساب لابن حزم رحمه الله .

تطوان : محمد بن تاويت

أبو عبد الله الهبطي

واضع وقف القرآن بالمغرب

للأستاذ سعيد اعراب

- 2 -

تحدثت في مقال سابق(*)عن حياة ابي عبد الله الهبطي ، واضع وقف القرءان بالمغرب ، وعن الظروف والملابسات التي وضع فيها ذلك الوقف ؛ وكيف ان الناس اقبلوا عليه خلفا عن سلف ، لا في المغرب وحسب ، بل وفي سائر اقطار افريقيا ، وقد جاء خطاب عميد جامعة الزيتونة ، وهو يتحدث عن الروابط الفكرية ، والعلاقات العريقة بين تونس والمغرب ـ قوله : « .. اننا نقرا القرءان بوقف الهبطي ، وندرس العربية بابن ءاجروم والمكودي .. »

والآن فلنلق نظرات عن هذا الوقف :

هنالك ثلاث كلمات ، تدور عند ارباب هذا الفن: **الوقف ، القطع ، السكت** ؛ وهي الفاظ مترادفة عند الاقدمين ، وفرق بينها المتاخرون ، فجعلوا الوقف عبارة عن قطع الصوت عن الكلمة زمانا ، يتنفس فيه عادة بنية استئناف القرءاة ، لا بنية الاعراض . والسكت عبارة عن قطع الصوت زمنا هو دون زمن الوقف عادة من غير تنفس ، فان طال صار وقفا يوجب البسملة .

اما القطع فهو عبارة عن قطع القرءاة راسا ، ولا يكون على رؤوس الآي .

والوقف فن جليل القدر ، عظيم الخطر ، به يعرف كيف اداء القراءة ، ولا يتاتى لاحد معرفة معاني القرءان ، ولا استنباط الادلة الشرعية الا بمعرفة الفواصل . ولا يقوم بهذا الفن الا من له باع في العربية ، عالم بالقراءات والتفسير والفقه ، عالم باللغات التي نزل بها القرءان .

والاصل فيه ما اخرجه ابو جعفر النحاس عن ابن عمر (ض) قال : « لقد عشنا برهة من دهرنا ، وان احدنا ليؤتى الايمان قبل القرءان ، وتنزل السورة على محمد (ص) فنتعلم حلالها وحرامها ، وما ينبغي ان يوقف عنده منها ؛ كما تتعلمون انتم القرءان اليوم ؛ ولقد راينا اليوم رجالا يؤتى احدهم القرءان قبل الايمان ، فيقرا ما بين فاتحته وخاتمته ، ما يدري ما امره ولا زجره ، ولا ما ينبغي ان يوقف عنده .. »

ولعل الحكمة من وضعه ، انه لما لم يمكن القارىء ان يقرا السورة او القصة في نفس واحد ، ولم يجز التنفس بين كلمتين حالة الوصل ، بل ذلك كالتنفس اثناء الكلمة ـ وجب حينئذ اختيار وقف للتنفس والاستراحة ، وارتضاء ابتداء بعده .

وقد حض الايمة على تعلمه ومعرفته ، وتواتر عن السلف الصالح الاعتناء به والاهتمام بشانه ؛ حتى لقد اشترط بعضهم على المجيز ان لا يجيز احدا الا بعد معرفته الوقف والابتداء . وممن اشتهر عنهم هذا الفن ـ ابو جعفر بن القعقاع ، ونافع بن رويم المدني ، وابو عمرو بن العلاء ، ويعقوب الحضرمي، وعاصم بن ابي النجود ، ومحمد بن عيسى ، واحمد بن موسى ، وعلي بن حمزة الكسائي ، والاخفش الاوسط ، ومعمر بن المثنى ، ومحمد بن يزيد ، والقتبي ، والدينوري ، وسواهم .

(*) انظر العدد الرابع ـ س 11 ـ ص : 91

والف في الوقف كثيرون ، من بينهم : ابو حاتم السجستاني ، وابو جعفر النحاس ، والزجاج ، وابو سعيد السيرافي ، وابو بكر بن الانباري ، وابو محمد النعمان ، وابو جعفر السجاوندي ، وابو عمرو الداني ، والخزاعي ، وابو محمد التكزاوي .

وفي الوقف مذاهب ، لكل مذهب مغزاه ومبناه، فنافع كان يراعي حسن الوقف والابتداء بحسب المعنى . والمكي يراعي الوقف على رءوس الآي ، ولا يعتمد وقفا على اواسط الآي الا في ثلاثة مواضع : — وما يعلم تاويله الا الله (آل عمران) — وما يشعركم (الانعام) — انما يعلمه بشر (النحل) . والبصري اختلفت الرواية عنه ، فقيل انه كان يعتمد الوقف على رءوس الآي ، ويقول هو احب الي ، وقيل انه كان يطلب حسن الابتداء ، وذكر الرازي عنه انه كان يطلب حسن الوقف . والشامي كنافع يراعي حسن الحالتين وقفا وابتداء .

وعاصم اختلف الرواة عنه ، روي انه كان يطلب حسن الوقف ، وقيل انه كان يطلب حسن الابتداء . وحمزة اتفق الرواة عنه انه كان يقف عند انقطاع النفس ، فالقرءان عنده كسورة واحدة ، ولذا لم يعتمد وقفا معينا ، وآثر وصل السورة بالسورة . والكسائي كعاصم اختلفت الرواية عنه . قال السفاقسي : وهذا عند قراءة كل بانفراد ، واما مع جمعهم ، فالذي عليه شيوخنا مراعاة حسن الوقف والابتداء ، كنافع لانه المبدوء به ، وهو مذهب جمهور القراء ، وهو ظاهر ضيع من الف في الوقف والابتداء ، لانهم لم يخصوا قارئا دون قاريء

ويرجع هذا الاختلاف الى مذهبين اثنين : احدهما اعتماد كلمات هي رءوس الآي . والثاني مراعاة كلمات يتم المعنى والاعراب عندها ، او الاعراب دون المعنى ، او المعنى دون الاعراب . وعلى المذهب الثاني بنى الهبطي وقفه ، فهو يراعي الاعراب والمعنى، في الوقف والابتداء .

ويجوز ان نقسم الوقف الى ثلاثة اقسام :
— قسم وافق فيه الهبطي غيره كالدرني وابن الانباري وسواهما ، وهو اكثر وقفه .
— وقسم تركه ولم يعتمده — لتجاذب الدليلين فيه — او لترجيح ادلة الوصل عنده ، او لانه الاصل، والوقف طاريء .
— وقسم انفرد به ؛ والناس امام هذا القسم فريقان : فريق مؤيد ، وفريق منتقد ؛ فمن الذين انتقدوه وخطأوه في مواضع — ابو عبد الله محمد المهدي الفاسي ، فقد الف كتابا سماه « الدرة الغراء ، في وقف القراء » كما اشرنا الى ذلك صدر هذا البحث . وقد جاء في مقدمة الكتاب قوله : « .. وكان مما قيد في ذلك عن الاستاذ المقريء ابي عبد الله محمد بن ابي جمعة الهبطي الفاسي ، تغمده الله برحمته .. على قراءة نافع ، الذي جميع بلاد المغرب له فيه تابع ؛ — قد شاع في هذه البلاد ، وكان قد احتوى على مواضع ضعيفة ، واخرى بعدم الصحة موصوفة ؛ — اردت ان ارسم في ذلك تقييدا ، يكون يذكر ما للناس في ذلك مقيدا ، ذكر ما في اعرابه او معناه خلاف او احتمال ، مما ينبغي وقفه على ذلك ، ولا يخرج عنه بحال .. »

ومن المواضع التي انتقدت على الامام الهبطي ، واعتبرت من الوقف الممنوع — قوله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » (سورة المائدة) . فالوقف على « مغلولة » — ربما يوهم القاريء او السامع ، ما لا يليق به سبحانه وتعلى ؛ وكان من المتشددين في ذلك ، عالم تطوان الشيخ علي بركة ، فقد قيل لي انه أوقف حبسا على من ينبه القاريء عند وقفه على مغلولة .

والذي عليه المحققون من ائمة هذا الفن — انه من الوقف الكافي ، وعده بعضهم من الوقف الجائز؛ ومثله قوله تعلى : « وقالت اليهود عزيز ابن الله — وقالت النصارى المسيح ابن الله » — (سورة التوبة). فالوقف على عزيز ابن الله ، والمسيح ابن الله — عده بعضهم من الوقف الممنوع بل الحرام الذي يكفر صاحبه ، وقد تصدى ابو العباس الاشموني في كتابه « منار الهدى في الوقف والابتدا » (*) للرد على صاحب هذا القول ، قال وما نسب لابن الجزري من قوله :

مغلولة فلا تكن بواقف
فانه حرام عند الواقف
ولا على المسيح ابن الله
فلا تقف واستعذه بالله
فانه كفر لما قد علما
قد قاله الجزري نصا حسما

قال هو مخالف لما عليه الايمة ، والصواب انه من الوقف الجائز . وذكر ابن عبد السلام الفاسي انه من الوقف الكافي لتناهي مقول القولين . وذكر

(*) انظر مقدمة الكتاب ص 9

الاشموني انه لا وجه لمنع الوقف على قوله تعلى « فلما اضاءت ما حوله » فهو وقف جائز ، بل كاف ، على ان جواب لما محذوف تقديره طفئت النار ، والسياق دال عليه ، وذهاب النار لا يعيق انطفاء النار ، المستلزم عدم انتفاعهم بشيء من اعمالهم المراد من التشبيه ، وعلى استئناف جملة « ذهب الله بنورهم » والضمير للمنافقين .

قال الجعبري : وليس في القرءان وقف واجب ولا ممنوع . على انه يطول بنا الكلام لو تتبعنا ما نوقش به الهبطي في هذا المقام .

ــ ومن الذين ايدوه ودافعوا عنه ــ ابو عبد الله محمد بن عبد السلام الفاسي ، فقد تتبع في كتابه « الوقف والابتداء » (1) مواضع وقف الهبطي ، وخصوصا الذي انفرد به ، وارجع اكثره الى الوقف الكافي ؛ والوقف عنده ثمانية مراتب : تام واتم ، وكاف واكفى ، وحسن واحسن ، وصالح واصلح ، ويعبر عنه بالجائز . وفي هذا الصدد يقول : « .. فأردت بعون الله ان اتتبع كل موضع عينه للوقف بالنص على انه تام ، او كاف ، او حسن ، ان ظفرت بذلك فيما نص عليه الحافظ الدرني ، مقتصرا على ذلك ، غير متعرض لوجه مبناه ، من حيث المعنى والاعراب ، تقليدا له ، وتيسيرا على نفسي ، وسترا علي ، لصعوبة المحل ، وضيق المعطن ، فان لم اجده عنده ، فاني ابين بحول الله وقوته ، ما أراه صالحا لان يكون اعتمده الهبطي في ذلك ، حسب الاستطاعة ، على ازجاء البضاعة . لكني اتشبث بذيلهم ، وان لم اطمع في الحصول على نيلهم ، رغبة في الدخول في خدمة كتاب الله العزيز ، وطمعا في العثور على معنى غامض عزيز ، يتبين به وجه ما اعتمده ، وينفي عنه به الوهم فيما قصده ؛ على ان اقتصر فيما كان غير خاف ، بقولي كاف ، اذ معنى التمام ، يعز الا على البصير الاعلم .. »

وابن عبد السلام هذا على كثرة انتقاده للدرني واضرابه ، قلما نجد له فيه مغمزا ، أو عليه مطعنا ؛ فتراه اذا اعوزه الدليل ، او خانته الحجة ، يقول: وكان معتمد الهبطي كذا ، او لعل ملحظ نظره كذا .

ونحن لا نعفي الهبطي من خطا في استدلال ، او ضعف في وجهة نظر ، مما لا يخلو عنه بشر ؛ فالوقف مثلا على قوله تعالى : « ولا تستعجل » ــ من سورة الاحقاف ، ــ قد يدخل في دائرة الوقف الجائز أو الكافي ــ اذا طبقنا قاعدة ابن عبد السلام في هذا الباب ، فهو مبني على اعراب « لهم » خبرا عن « بلاغ » من قوله تعالى « كأنهم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار بلاغ » وبه قال ابو مجلى، وربما يعضده طول الوقف في الاية ؛ لكنه لا يخلو من ضعف ، ففيه تفكيك الكلام بعضه من بعض ، اذ ظاهر قوله « لهم » انه متعلق بقوله : ولا تستعجل . اي لا تستعجل للمشركين بالعذاب ، والحيلولة الجملة التشبيهية بين الخبر والمبتدا ــ كما يقول ابو حيان(2) في امثلة اخرى من هذا القبيل .

لكن ومع ذلك ، ورغم ما وجه اليه من نقد ، فيه بعض الحق او الحق كله ، ــ فقد تواترت روايته ؛ وتناقله التلاميذ عن شيوخهم كوجه من وجوه الاداء في التلاوة ، حتى قال بعضهم : انه يجب الوقوف عنده ، ولا تجوز مخالفته ؛ وقد احتدم النزاع بين القراء المتاخرين في ذلك ، على ما سنذكره في عدد ءاخر بحول الله .

تطوان ــ سعيد اعراب

---

1) ويوجد مخطوطا بالخزانة الملكية تحت رقم 1953 .

2) انظر تفسير البحر ــ سورة الاحقاف

استقرار كثير من أصول القومية المغربية في الفترة المرينية والوطاسية

للأستاذ : محمد المنوني

مقدمـــــة :

شهـــد النصف الاول من القرن الثالث عشر م تقسيما جديدا للغرب الاسلامي ، حيث قام — على انقاض الامبراطورية الموحدية — اربع دول اسلامية جديدة ، تقاسمت النفوذ فى الرقعة الموحدية بشمال افريقية ، والاندلس ، وقد صارت تونس وما اليها من نصيب الحفصيين ، واستولى بنو عبد الواد على الجزائر ، وانتصب المرينيون بالمغرب الاقصى ، بينما استقر الامر فيما تبقى من الاندلس المسلمة لبني الاحمر ، بعدما استولى على معظم هـــذه الاخيـــرة القشتاليون والقطلانيون (1) .

وقـــد استمر هذا التقسيم الجديد للغـــرب الاسلامي زهاء ثلاثة قرون ، انتهت باستيلاء القشتاليين على مملكة غرناطة ، ثم استيلاء العثمانيين على مملكتي الجزائر وتونس ، وقيام السعديين بالمغرب الاقصى .

وكان أعظم هذه الدول الاسلامية الجديدة هـي الدولة المرينيـــة ، التي كانت تطمح الى استعـادة الامبراطورية الموحدية بشمال افريقية ، ثم استعادتها — بالفعل فى فترتين قصيرتين — على عهد كل من ابي الحسن المريني وابنه ابي عنان ، غير انه فى معظم هذه الفترة كان المرينيون يقتصـــرون على حكـم المغـــرب الاقصــــى .

ويهمنـــا — بعد هذا المدخل — ان هذه الفتـرة الطويلة كانت ميدانا لاستقرار كثير من اســـس القومية المغربية المعاصرة ، والمعني بالامر هنا هي الوحـــدات التالية : الوحدة اللغوية — وحدة التشريع — وحـــدة العقيدة — وحدة دفاعية — ميزات وعوامـل اخـرى للوحـــدة القوميـــة .

1 — نحـــو لغـــة موحـــدة :

من ابرز ميزات هذه الفترة التقدم الذي احـرز عليه توحيد اللغة القومية فى نطاق تعميم اللغة العربية الى اقصى حد ممكن ، فعلى خـلاف الحال فى دولـــة الموحدين ، يلاحظ انه انعدم تقريبا فى هـــذه الفتـــرة ، استخدام اللهجة البربرية فى اغراض تاليفية ، على نحو موضوعات المهدي ابن تومرت فى العقائد (2) ، كمـــا الغيت هذه اللهجة من خطبـــة الجمعـــة ومن الاذان للصلاة ، بعدما كان يعقب بها بعد كل من الشعيرتين ، وقد استنكر الونشريسي فى المعيار (3) النداء للصلاة بالبربرية عند كمال الاذان بالعربية ، وعـد ذلك مـــن البدع ، ومن الواضح ان اللغة العربية هي التي حلـت محل اللهجة الاخرى فى هذه الاغراض .

ومـــن مظاهر التزام اللغـــة العربية فى التاليف ما يسجله مؤلف « المنهاج الواضح فى مثائر ابي محمد صالح » ، حيث يذكر فى طالعة هذا التاليف (4) انـــه تلقى جل فضائل جده بلسان الرطانة : « البربرية » ، ثم دونها باللسان العربـــي .

وهكذا نتبين ان وحدة اللغة العربية تتحرك مـــن هذه الحقبة نحو هدفها ولو فى نطاق محدود .

---

1) مجلـــة دعـــوة الحق ، السنة الثالثة ، العـــدد 2 ، 3 .

2) انظر الحلل الموشية ط تونس — ص 80 .

3) ج 2 ص 361 — 362 .

4) ط المطبعة المصرية عام 1352 هـ — 1933 م — ص 16 .

ومما يسجل لهذه الفترة ان الادب المغربي كان - في لغته العربية الفصحى - لايزال يحتفظ بأصالة لفتت اليه انظار الاندلسيين بالخصوص ، قال ابو اسحاق الشاطبي في الافادات والانشادات (5) :

« افادني صاحبنا الكاتب أبو عبد الله ابن زمرك اثر ايابه الى وطنه من رحلة العدوة في علم البيان فوائد ، وذكر منها ثلاثا : احداها : الفقه في اللغة ، وهو النظر في مواقع الالفاظ وابن استعملتها العرب... والثاني : تحرير الالفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال ، فلا يستعمل الحوشي من اللغات ، ولا المبتذل في السن العامة ، والثالث : اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن اصل المعنى او تشوش عليه ... قال : واخبرني ان **كتاب المغرب يحافظون في شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ويذمون ما عداها من طرق المولدين ، وأنها خارجة عن الفصاحة** ، وهذه المعاني الثلاثة لا توجد الا فيها » .

وقد استمرت هذه الظاهرة في ادباء المغرب حتى قال الشيخ محمد بيرم التونسي (6) اواخر القرن التاسع عشر م :

« ولعمري ان صناعة الانشاء في الدول باللغة العربية كادت الآن ان تكون مقصورة على دولة مراكش ، واما غيرها من الدول العربية فقد تدبدبوا ، وكادت كتابتهم أن تخرج عن الاسلوب العربي ، بل صاروا لا يتحاشون عن اللحن والكلمات البربرية ، بخلاف كتاب المغرب ، وهذا ديدنهم من قديم » .

ونحو من هذا يسجله - عن المغرب - ابو العباس الناصري في رسالته : « الفوائد المحققة في ابطال دعوى ان التاء طاء مرققة » ، خ ، ع ، د 1724 ، ص 51 .

ومن جهة اخرى فان ظهور الدولة المرينية احدث عاملا جديدا في انتشار العربية في لغة التخاطب « العامية » ، حيث ان معظم العناصر العربية التفت حول يعقوب بن عبد الحق عاهل هذه الدولة ، وبذلك اصبح للعرب ضلع في تركيز الحياة السياسية والاجتماعية ، والسيطرة على الكتل البربرية ، ثم التسرب الى جهاز الدولة . يضاف لهذا انه في اثناء هذه الفترة كان العرب - على حد تعبير ابن خلدون (7) - قد كثروا البربر وغلبوهم ، وانتزعوا منهم عامة الاوطان ، وشاركوهم فيما بقي من البلدان، بملكتهم وباسهم ، وقد تمخض عن هذا وذاك - في غير الاطلس - ان توطدت اللغة العربية في أصقاع متنائية ، وبذلك تعززت الوحدة السياسية في البلاد عن طريق التعريب في لغة المحادثة في هذه البوادي ، كما هو الحال في الحواضر (8) .

ومن مظاهر انتشار التعرب ءانذاك شيوع قصائد هؤلاء العرب بالمغرب ، قال ابن خلدون في المقدمة (9) :

« ... فاما العرب اهل هذا الجيل المستعجمون عن لغة سلفهم من مضر ، فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الاعاريض، على ما كان عليه سلفهم المستعربون، وياتون منه بالمطولات ، مشتملة على مذاهب الشعر واغراضه من النسيب والمدح والرثاء والهجاء ، ويستطردون في الخروج من فن الى فن في الكلام ، وربما هجموا على المقصود لاول كلامهم ، وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ، ثم بعد ذلك ينسبون ، فأهل امصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالاصمعيات (10) ، نسبة الى الاصمعي راوية العرب في اشعارهم ... »

واذا كان هذا اللون من الشعر قد غلب بالمغرب على البوادي العربية ، فان الامصار شاعت فيها الازجال التي اورد ابن خلدون بعضا منها اواخر المقدمة (11) .

واخيرا : فقد كان من عوامل تعزيز التعرب في هذه الفترة ، ان الحكام المرينيين انفسهم كان البعض (12)

---

5) نقل هذا ابن الازرق في روضة الاعلام ، خ .
6) ج 1 ص 61 .
7) المقدمة ص 27 ، وانظر تاريخ المغرب للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ج 1 ص 136 - 137 .
8) انظر تاريخ المغرب لهنري طيراس ج 2 ص 28 ، مع تاريخ المغرب للاستاذ عبد العزيز بنعبد الله ج 1 ص 136 - 137 .
9) ص 533 .
10) هو العروبي حسب تفسير البعض .
11) ص 553 - 556 .
12) ورد هذا في ارجوزة ابي فارس الملزوزي نشر المطبعة الملكية بالرباط ، وفي شعر لابن المرحل حسب الذخيرة السنية ص 10 .

يرفع نسبهم الى اصول عربية ، ولسنا نحاول هنا تصديق هذه الدعوى او تكذيبها بقدر ما يهمنا اثرها في تعزيز جانب التعريب .

والى هنا تتبين من هذا العرض مدى الخطوات التي سار فيها التعريب ، مما عزز الوحدة في هذه الفترة ، ثم مهد لاكتمالها بعد ، حتى قال الفريد بيل في الكتاب الذي صنفه حول البربر وديانتهم (13) :

« ان رجال البربر اصبحوا ــ اليوم ــ كلهم يتقنون اللغة العربية في الجبال الاطلسية ، لاسيما منها الناحية الشرقية » .

وحدة التشريع :

وهي وحدة واضحة تحققت في نطاق المذهب المالكي الذي عاد للظهور مرة اخرى بعد الفترة الموحدية ، ليوحد المغرب المسلم في ميدان التشريع خلال هذه الفترة وبعدها .

ومما يدل على قوة هذا العامل في الوحدة القومية ، ان بعض الجهات المغربية التي كانت تخضع للقانون الجنائي العرفي رجعت ــ بدورها ــ لتطبيق التشريع الاسلامي في هذا الصدد ، فقد نشرت مجلة هسبريس ج 18 سنة 1934 ص 46 وثيقتين ذكرت انهما اقدم ما يوجد في القانون الجنائي العرفي بالمغرب ، ويرجع تاريخهما لعام 1512 م (917 ــ 918 هـ) ، وقد ورد في مقدمتهما : انه « بعد التعرف الى الضلال الذي تنطوي عليه الاعراف العتيقة اصبح رئيس القبيلة يطبق ما ورد في القرءان الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، في خصوص الجرائم ، تبعا لآية القصاص (14) » .

ولا شك ان هذه الظاهرة في القانون الجنائي العرفي جاءت نتيجة لموقف العلماء المغاربة من وحدة التشريع المغربي ، ومن هؤلاء الامام ابو زيد عبد الرحمن الجزولي ، المتوفى عام 741 هـ ــ 1340 م ، فقد اورد في تقييده على الرسالة القيروانية قولة لعمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي ، ثم علق عليها وقال : « وبقول عمر هذا يستدل اشياخ السوء من القبائل فيما احدثوا : ان من سل سيفه فضرب به يلزمه كذا ، ومن وضع يده عليه ولم يسله يلزمه كذا ، ومن لطم يلزمه كذا ، ومن شتم يلزمه كذا ، ويحلفون في البرانس والمناجل ، وكل ذلك بدعة اماتوا بها السنة (15) » .

وممن حمل على هذه الاعراف المحلية الشيخ عبد الله الهبطي ، المتوفى عام 963 هـ ، فقد تناولها في ارجوزته ــ في البدع ــ التي تحمل اسم « الالفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما غيروا في الملة الاسلامية » ، وخصص للتنديد بها بابا خاصا يشتمل على ستين بيتا (16) .

وحدة العقيدة :

ومما عزز الوحدة القومية في هذه الفترة اجتماع المغاربة على العقيدة الاشعرية بعد الغاء ما كان يشوبها من افكار اخرى في المرحلة الموحدية ، وبهذا استطاع المغاربة ان يبتعدوا عن الفرق والخلافات العقدية ، وقد كان موقف الدولة قويا في مقاومة الذين يحاولون الخروج عن هذه الوحدة ، وهناك قصة من هذا القبيل وردت الاشارة لها قبيل فصل البدع من المعيار (17) للونشريسي .

وحدة دفاعية :

ان اروع مثال لهذه الوحدة يوجد في رد الفعل المغربي ضد حملة البرتغال على السواحل المغربية ، وقد صور هذه الظاهرة الناصري في الاستقصا (18) ، وعقب على ذكر اخبار البرتغال في هذا الصدد ، وقال في اسلوب يغلب عليه السجع :

« ولما نزل باهل المغرب الاقصى ما نزل من غلبة عدو الدين ، واستيلائه على ثغور المسلمين ، تباروا في جهاده وقتاله ، واعملوا الخيل والرجل في مقارعته ونزاله ، وتوفرت دواعي الخاصة منهم والعامة على

---

13) معطيات الحضارة المغربية ج 1 ص 61 .
14) المصدر الاخير ج 2 ص 42 .
15) نقله محمد ميارة في شرح لامية الزقاق ط ، ف م 44 ، ص 1 .
16) يلاحظ ان الهبطي عاصر وضع وثيقتي القانون الجنائي العرفي بالمغرب ، وقد طبقتا ــ كما راينا قريبا ــ التشريع الاسلامي في الميدان الجنائي ، فعلى هذا يكون هذا العالم يحمل على اعراف ناحية معينة .
17) ج 2 ص 358 .
18) ط دار الكتاب ، ج 4 ص 111 ــ 112 .

ذلك ، وصرفوا وجوه العزم لتحصيل الثواب فيما هنالك ، فكم من رئيس قوم قام لنصرة الدين عبرة واحتسابا ، وكم من ولي عصر او عالم مصر باع نفسه من الله وراى ذلك صوابا ، حتى لقد استشهد منهم عدد واسر ءاخرون ، وبلغ الله ـ تعلى ـ جميعهم من الثواب ما يرجون .

وبعد ما استعرض الناصري اسماء جماعة ممن استشهد او اسر قال :

« ولقد الف الناس فى ذلك العصر التاليف فى الحض على الجهاد والترغيب فيه ، وقال الخطباء والوعاظ فى ذلك فاكثروا ، ونظم الشعراء والادباء فيه ونثروا ، فممن الف فى ذلك الباب فأفاد : الشيخ المتفنن البارع الصوفي ، ابو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازي ، قال فى الدوحة : وقفت له على تأليف الفه فى الحض على الجهاد فى سبيل الله ، فكان مما ينبغي ان يتناول باليدين ، ويكتب دون المداد باللجين ، أودعه نظما ونثرا ، وممن نظم فى ذلك فاجاد : الشيخ الصالح ، المتصوف ، المجاهد ، ابو عبد الله محمد بن يحيى البهلولي ، قال فى الدوحة : كان هذا الشيخ ممن لازم باب الجهاد وفتح له فيه ، وله فى ذلك اشعارا ، وقصائد زجليات ، وغيرها ... »

وقد اورد فى الاستقصا نتفا يسيرة من هذه الاشعار نقلا عن دوحة الناشر ، ولا يزال لم يقع العثور على مجموعها ، اما تاليف ابن يجبش فى الجهاد فالغالب ان المقصود به الرسالة التي تحمل اسم « تنبيه الهمم العالية ، على الصدقة والانتصار للملة الزاكية ، وقمع الشرذمة الطاغية » ، ويعرف منه لحد الآن نسختان : احداهما تامة ، وهي تقع ضمن مجموع يحمل رقم ق 336 بالخزانة العامة بالرباط ، والثانية نسخة خاصة يتخللها بتر .

ميزات وعوامل أخرى للوحدة القومية :

وهي مجموعة انظمة وتقاليد تنتسب الى هذه الفترة ، وقد صارت من ميزات القومية المغربية او من عوامل وحدتها .

واول ما يلاحظ فى هذا الصدد انه الى هذه الفترة يرجع تنقيح وتنظيم كثير من قضايا التشريع المغربي الاسلامي ، بما فى ذلك اساليب التوثيق التي كانت موضوع بعض مؤلفات وشروح .

وفي هذا العصر وضع او قرر عدد من المؤلفات التي صارت كتبا دراسية بالمغرب فى هذا العهد وبعده ، ومن ذلك المقدمة الاجرومية ، وشرحها لابي عبد الله الشريف ، ومنظومة الجمل للمجراد السلوي ، وشرح عبد الرحمن المكودي على الالفية لابن مالك ، والدرر اللوامع فى مقرا الامام نافع لابن بري ، ومورد الظمئان فى رسم القرءان للخراز ، وعمدة البيان ، فى الرسم لنفس المؤلف ، والقصيدة التلمسانية فى الفرائض ، والمباحث الاصلية لابن البنا الصوفي ، وشرح ابن عباد على الحكم العطائية ، وشرح الازموري على القصيدة الخزرجية ، والتلخيص ورفع الحجاب فى الحساب ، ومنهاج الطالب فى تعديل الكواكب : الثلاثة لابى العباس احمد ابن البنا المراكشي ، وروضة الازهار فى علم وقت الليل والنهار لعبد الرحمن الجادري .

كذلك قرر فى هذا العصر دراسة المختصر الخليلي ، ومختصري ابن الحاجب الاصلي والفرعي ، والفية ابن مالك ، والشفا للقاضي عياض ، وقصيدة البردة للبوصيري ، وسوى هذا وذاك ، وهو كثير .

ومن الواضح ان دخول هذه الكتب للدراسة ، كان له اثر فى توحيد او تقريب المناهج الدراسية في هذه الفترة وبعدها .

ومن هذا العصر يبتدىء المغاربة بكتابة تاريخ عام لبلادهم ، وكان ممن دشن هذه الظاهرة ابن ابى زرع بكتابه : روض القرطاس ، كما اشتغلوا بكتابة الرحلات ، وظهر ـ على التوالي ـ رحلات العبدري ، فابن رشيد ، فالتجيبي ، فابن بطوطة .

ومن هذا العصر تبتدىء الجامعية الحقيقية للقرويين ، التي تعززت بما احاط بها من مدارس ، وما الحق بها من خزائن ، ثم ما احدث فيها ـ تباعا ـ من كراسي (19) .

والى هذا العصر ايضا يرجع تنظيم الدروس الوعظية فى فاس بالخصوص (20) ثم بغيرها .

اما فكرة التحبيس على المشاريع العامة ، فانما شاعت اكثر بالمغرب فى هذه الفترة ، اما قبلها فقد

19) انظر عن هذه الكراسي بالخصوص مجلة دعوة الحق ، السنة 9 ، الاعداد : 4 ، 5 ، 6 .
20) انظر زهرة الآس ، وبالخصوص مخطوطتي المكتبة الملكية بالرباط ودار الكتب المصرية .

كانت غير كثيرة ، يدل لهذا قول ابن سعيد (21) لدى حديثه عن بعض اخلاق اهل المغرب الاقصى :

« ولكن الاوقاف عندهم على عظمة سلطنة بني عبد المومن والمرابطين قبلهم قليلة ، لا يقولون بها » .

وفي هذه الفترة وضعت تنظيمات جديدة لعلاقات المغرب بعدد من الدول الشرقية والغربية .

كذلك تدين العصور التالية لهذه الفترة بما حدث في هذه من تنظيم ركب الحجيج المغربي ، وتعميم عيد المولد النبوي في سائر المغرب .

ومما يزيد في اهمية هذه الظاهرات ان عددا منها جاء تجاوبا مع ارادة مغربية ، فقد كان رجوع المغاربة عن الظاهرية الى المذهب المالكي برغبة اتت من جهة الفقهاء (22) ، وكان تنظيم ركب الحجيج المغربي امتدادا لعمل جماعة ابي محمد صالح الماجري ، حيث كان من مبادئها الدعوة الى حج بيت الله الحرام ، وزيارة السيد الرسول عليه وءاله الصلاة والسلام ، وتسهيل الطريق للحاج (23) ، كما ان العزفيين هم الذين تدبوا يوسف المريني الى تعميم الاحتفال بالمولد النبوي ، واتخاذ يوم ثاني عشر ربيع الاول عيدا مغربيا (24) ، بعد ما كان هؤلاء ابتداوا من ذي قبل الاحتفال بهذا المولد في سبتة .

يضاف لهذا ان الانظمة والاوضاع التشريعية والدراسية التي سبقت الاشارة لها ، قد كانت هي الاخرى منبعثة من طرف العلماء المغاربة ، وكان دور الدولة في هذا كله لايعدو التقرير والتنفيذ ، مجاراة للطابع الشعبي الذي كان يطبع السياسة المرينية في هذه المواضيع واشباهها (25) .

وهكذا يتبين من هذا العرض مدى اسهام الفترة المرينية والوطاسية في بناء القومية المغربية المعاصرة

الرباط ـ محمد المنوني

---

21) قسم الممالك من مسالك الابصار للعمري، مخطوطة خاصة .
22) ذكر مشاهير اعيان فاس في القديم عند بيت بني عشرين رقم 11
23) انظر المنهاج الواضح ص 351 .
24) روض القرطاس على ما في بعض نسخه المخطوطة .
25) انظر مجلة « البحث العلمي » ، العدد الثاني ـ ص 213 .

هم المؤلفين

ورد في شرح بديعية البيان للحافظ ابن ناصر الدمشقي ان يعقوب بن شيبة السدوسي البصري نزيل بغداد صنف مسندا في خمس مجلدات كبار لزمه على تخريجه عشرة ءالاف دينار ، وكان في بيته اربعون لحافا مرصدة لمبيت الوراقين الذين يبيضون مسنده .



- 2 -

د) نص ريحانة الالباب (1) :

« ولما اجاز طارق البحر ودمرهم (2) (كذا) وقال :

« انكم بين عدوين بين اهل الكفر وبين البحر فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، واحرق سفن الجواز ..

« فلما اشرف طارق على جمعهم قال لاصحابه : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، واني مصمم بنفسي نحو طاغيتهم حتى يحكم الله بيني وبينه ، وقد فرض الله الواحد منكم للعشرة فاحملوا كما امركم الله ينصركم وان ينصركم فلا غالب لكم » .

وبعد هذا يقول :

قال عبد الملك بن حبيب : « دخل الاندلس من التابعين زهاء عشرين رجلا » .

هـ) نص عبد الملك بن حبيب (3) :

« فلما بلغ تدمير نزول طارق بمن معه من المسلمين كتب الى لذريق — وهو يومئذ ملك الاندلس — « انه وقع بأرضنا قوم لا ندري أمن السماء نزلوا أم من الارض خرجوا » .

فلما بلغ ذلك لذريق اقبل راجعا الى طارق في سبعين الف عنان ، ومعه العجل تحتمل الاموال والمتاع وهو على سريره بين دابتين عليه قبة مجللة باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ومعه دواب تحمل الحبال لا يشك في أسرهم .

فلما بلغ طارقا دنوه منه قام في أصحابه فحمد الله واثنى عليه ، ثم حض الناس على الجهاد ، ورغبهم في الشهادة ثم قال :

« ايها الناس ، اين المفر والبحر من ورائكم والعدو امامكم ؟ فليس لكم والله الا الصدق والصبر ، الا واني صادم طاغيتهم بنفسي لا اقصر حتى اخالطه او اقتل دونه » .

ولسنا في حاجة الى ايراد نص نفح الطيب فهو مشهور متداول ، ثم انه نفس النص الوارد في الوفيات الا في الفاظ يسيرة .

وبعد هذا نود ان نعلق ببعض الملاحظات على النصوص السالفة :

1 — اتفق جميع من تناول فتح الاندلس من المؤلفين المذكورين سابقا بأن طارقا خطب جنوده واورد كل منهم الخطبة جميعها أو جزءا منها ولم يقل اي واحد منهم بأنه خطب جيشه بغير العربية ، ولو كان طارق خطب بالبربرية لما غفل عن ذلك أولئك المؤرخون الذين يوجد من بينهم من كان قريبا من عهود الفتح .

2 — ان التشابه في مقدمة الخطبة بين النصوص الواردة في كل من تاريخ عبد الملك ابن حبيب ، والامامة

*) بقية البحث الذي نشر في العدد السابق ، ولعل الطابع سها فاسقط كلمة « يتبع » .

1) ريحانة الالباب وريعان الشباب في مراتب الاداب للمواعيني مخطوطة الخزانة الملكية رقم 2647 .

2) قد تكون العبارة لمحاربة الكفار دمرهم الله ، او دمر السفن ! !

3) صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد المجلد 1/5 — 2 ص 222 ، وقد نشر هذه القطعة من تاريخ ابن حبيب الاستاذ المحقق الدكتور محمود مكي .

والسياسة (4) والوفيات يدل على ان المصدر واحد .

3 — تتفق جميع النصوص السالفة فى السطرين الاولين من الخطبة باستثناء الريحانة ، حيث ورد فيها بعض اختلاف ومن الجدير بالملاحظة أن الجزء الوارد من الخطبة فى تاريخ ابن حبيب يوجد فى جميع تلك النصوص الواردة فى المصادر الاخرى بتغيير بسيط فى بعضها .

4 — ان الخطبة التي اوردها الاستاذ عنان نقلا عن مخطوطة تحفة الانفس تجمع بين النصين الواردين فى كل من الوفيات والنفح من جهة والامامة والسياسة من جهة اخرى فالخطبة ، اذا ، كما هي فى النفح كانت موجودة فى مصادر قبل عصر ابن خلكان وان للمواعيني مصدرا مختلفا عن مصدر الاثنين ، ونستبعد ان يكون هذا المصدر غير اندلسي وان صح هذا فان نص الخطبة كما هو وارد فى هذا المخطوط كان مثبتا فى مصادر اندلسية افاد منها ابن هذيل كما افاد منها سابقا كل من ابن خلكان وصاحب الامامة والسياسة ، وان ظل هناك احتمال وهو ان يكون ابن هذيل نقل الخطبة المشهورة من مراجع اندلسية والجزء الثاني من الامامة والسياسة واثبتها كنص واحد ! !

5 — ان سؤالا ملحا يتبادر الى الذهن عما يتصل بكتاب الامامة والسياسة وهو من مؤلف هذا الكتاب الذي نسب الى ابي قتيبة ؟ وان محاولة الجواب عن هذا السؤال تعرفنا نتط بالمؤلف وانما ستقودنا الى عنصر جديد يدعم نسبة الخطبة لطارق لما بين المؤلف وفتح الاندلس من صلة وثيقة . ان الشك فى نسبة هذا الكتاب لابن قتيبة قديم وقد ساهمت الاندلس فى اثارة هذا الشك يقول القاضي ابو بكر بن العربي (5) « فأما الجاهل فهو ابن قُتيبة فلم يبق ولم يذر للصحابة رسما فى كتاب الامامة والسياسة ان صح عنه جميع ما فيه » .

اما الدراسات الحديثة فقد انتهت الى ان هذا الكتاب ليس لابن قتيبة الا المستشرق أماري فانه يقبل أن يكون هو المؤلف ولكن هذه الفكرة هدمها مستشرقون آخرون :

فمرجليوث بعد أن ينفي هذه النسبة لاسباب عدة ، يرى ان الكتاب من نتاج القرن الثالث ولعل مؤلفه قصاص اسباني (6) .

فأما كاينكوس فينتهي الى ان الكتاب ينبغي ان يكون مكتوبا فى اوائل القرن التاسع للميلاد بعد أعوام قليلة من موت هارون الرشيد .

ويعتقد دوزي بأن الكتاب لا يمكن ان يكون قد الف قبل الحادي عشر للميلاد وقد بنى رايه هذا على وجود نص فى الكتاب يذكر مدينة مراكش ، وهذه المدينة انشئت فى عهد المرابطين سنة 454 هـ (1062) وقد فند بريس هذا الدليل وابان عن ضعفه الشديد بأدلة منها ان هذا التنصيص لا يوجد الا فى نسخة الرباط دون النسخ الاخرى .

ويصل « دي خوية » فى دراسته لهذه القضية الى ان الكتاب قد يكون الف فى اواسط القرن التاسع اي حوالي العقد الرابع من القرن الثالث للهجرة وان مؤلفه كان معاصرا لابن قتيبة وقد نسبه الى هذا المؤلف ذي الشهرة الواسعة ليتاح للكتاب الذيوع والانتشار . وقد يلجا بعض المؤلفين لهذه الوسيلةلسبب او لآخر .

ثم ينتهي هنري برس من دراسته عن هذا الموضوع الى ان المؤلف ينبغي ان يكون قد عاش اواخر القرن التاسع للميلاد (7) .

وقد حدد الدكتور محمود فى دراسته القيمة لهذا الموضوع مكان وزمان تاليف هذا الكتاب فقال بانه الف فى مصر وفى القرن التاسع الميلادي . ويعتقد الدكتور مكي بأن الكتاب قد اشترك فى تاليفه اكثر من واحد . وفيما يخص الجزء الخاص بالاندلس يرجح الدكتور مكي بأن يكون مؤلفه مصريا قد عاش اوائل القرن التاسع الميلادي اي قد وجد أن هذه القطعة التي تتعلق بفتح الاندلس وبموسى بن نصير تتفق مع ما ذكره المؤرخون عن كتاب معارك بن مروان بن عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير وبأدلة قوية وحجج معقولة ودراسة مثبتة . يصل الدكتور مكي الى ان المؤلف هو

---

4) ورد فى الامامة والسياسة نفس المقدمة التيوردت فى كل من المصدرين المذكورين اعلاه ، مع اختلاف طفيف جدا .

5) العواصم والقواصم ص 284 وانظر التعليق رقم 2 للاستاذ العظيم محب الدين الخطيب ناشر الكتاب ومحققه .

6) انظر مرغليوث: دراسات المؤرخين العرب ترجمةد. حسين نصار ص 134 — 136

7) انظر مجلة الدراسات الاسلامية التي يصدرها المعهد المصري بمدريد 210/5 وما بعدها حيث عالج المحقق الدكتور محمود مكي هذا الموضوع فى بحث قيم باللغة الاسبانية .

معارك هذا الذي كان يعيش في مصر اوائل القرن الثالث او اواسطه ، واعتمادا على ذلك نصل الى ان طارقا قد خطب جنوده بالعربية وانجزءا من تلك الخطبة كان متداولا في المصادر القريبة من الفتح بل وتتناقله الاسرة الفاتحة ، وهناك ملاحظة قيمة وهي ان هذا المؤلف قد اشاد بدور جده موسى بن نصير . ومن المعلوم أن علاقة هذا لم تكن على ما يرام مع طارق الفاتح الاول الذي تعرض لغضب رئيسه . ولو ان طارقا خطب بالبربرية او لم يخطب بالمرة لما ضيع حفيد ابن نصير الفرصة للتنصيص على ذلك ، في حين نجد العكس ، اذ ينص على انه خطب ويورد نص هذه الخطبة وان كان مختلفا عما وجدناه في القرن السابع.

6 — يقول بروكلمان بأن بعض اقسام كتاب الامامة والسياسة مأخوذ عن كتاب في التاريخ ينسب لعبد الملك ابن حبيب (8) .

ويرى دوزي ان ما ورد في كتاب ابن حبيب من اساطير حول افتتاح الاندلس اخذه المؤلف عن شيوخه من المصريين كما يؤكد ابن حبيب نفسه ذلك في اكثر من موضع في كتابه (9) ولعل ذلك بدافع اعجاب الاندلسيين الوافدين على المشرق باساتذتهم المشارقة وانه قد يكون من المستبعد ان يأخذ ابن حبيب وهو اندلسي عالم قريب في زمان ومكان الفتح ان يأخذه فيما اخذه عن اساتذته المصريين ، خطبة طارق ، وقد يكون من المعقول ان يأخذ معارك عن ابن حبيب بعض ما يتصل بالاندلس ومن ضمن ذلك خطبة طارق كما اشار الى ذلك بصفة عامة بروكلمان وان كانت هذه النقطة ستظل مثار جدال ما لم تظهر عناصر جديدة تقوي جانبا على آخر ومهما يكن من شيء فان لدينا مصدرين ، متعاصرين عامين لخطبة طارق وكلاهما قريب من الفتح والفاتحين .

7 — هناك ملاحظة اخيرة وهي اننا امام نصوص ثلاثة مختلفة :

أ — نص الامامة والسياسة

ب — نص ابن خلكان ونفح الطيب وهو المعروف المتداول .

ج — اما نص ابن هذيل فيجمع بين النصين السالفين فهو يعتبر نصا ثالثا مختلفا عن كل واحد من (أ — ب) باعتباره تركيبا جديدا ، والسؤال الذي يرد هنا : ما هي خطبة طارق منها ؟ هل هي النص (أ) او (ب) او (ج) اما النص (أ) فان نسبته الى طارق من الناحية الفنية لا تثير اي ارتياب فاسلوبه خال من تلك العناصر التي احتج بها استاذنا الدكتور هيكل لينفي الخطبة عن طارق كالصنعة والتكلف والترغيب في الغنيمة والسبي وغير ذلك ، وان هذا النص يبدو فيه تاثر طارق بالقرآن الكريم والروح الدينية المشبوبة . واسلوبه يتميز بالبساطة والعفوية .

اما النص (أ) فهو الذي اثار المشاكل من الناحية الفنية لكن ليس من السهولة ان ننفي هذا الجزء بتمامه عن طارق خصوصا وقد رأينا انه مثبت في مصادر القرن السابع التي استقته من مصادر أقدم ثم ان المقري كان يملك اصولا مهمة عن تاريخ الاندلس وآدابها وان كنا نلمس من الناحية الفنية آثارا اجنبية وملامح غريبة في هذا النص ، ولكن وجود هذه الملامح وتلك الآثار لا يجتث هذا النص من اساسه ويلغيه من اصله . وقد يكون النصان قد قيلا في موقفين مختلفين :

قيل احدهما اثر نزول الجيش الفاتح في التراب الاندلسي .

وقيل الآخر اثناء المعركة . فكان احدهما مهيئا قبل القائه .

وآخر قيل ارتجالا وعفويا . ويدلنا على هذا . أن بعض المراجع تنص على انه خطب في جنوده اثر حرقه للسفن ، ومرة اخرى عندما اشرف على جمع النصارى (10) وان ابن هذيل يمهد لخطبة طارق بقوله: لما التقى العرب والقوط واقتتلوا ثلاثة ايام اشد قتال فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم في الشهادة ويبسط في آمالهم ثم يورد نص الخطبة (11) وهذا يدل ان طارقا خطب مرتين على الاقل ولا نستبعد أن يكون قد خطب جنوده عدة مرات لتعدد المعارك والمناسبات ..

وبعد .

فان ثمة تساؤلات اخرى اوردها على نفسي ، ولكن البحث العلمي لا يسمح لي بمعالجتها الآن فالى فرصة اخرى ان شاء الله .

فاس — د . عبد السلام الهراس

---

8) تاريخ الأدب 229/2 — 230 .

9) تاريخ الفكر الاندلسي195 — 196 وانظر مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد في العدد المشار اليه سابقا ص 230 (القسم الاسباني) .

10) انظر ريحانة الالباب وريعان الشباب للمواعيني مخطوطة الخزانة الملكية رقم 2647 .

11) انظر دولة الاسلام في الاندلس عنان 1\47 .

وثائق اندلسية حول :

العلاقات السياسية بين مملكتي غرناطة والمغرب في منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)

للوزير لسان الدين ابن الخطيب
تحقيق د. محمد كمال شبانة

- 2 -

تقديم :

نبدأ فى هذا العدد من المجلة بنشر القسم الثالث من وثائق مخطوطة « كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان » لمؤلفه المؤرخ ابن الخطيب . وهذا القسم يشكل رسائل سياسية ذات طابع تغلب فيه الاحداث الاندلسية ، وما كانت تتمخض عنه بهذا القطر ، وطبقا للصلات الاندلسية المغربية منذ الفتح العربي لاسبانيا ، نرى ملوك الاندلس ينسقون سياسة دولتهم الخارجية تجاه النصارى مع اخوانهم سلاطين المغرب ، وظل الحال كذلك حتى انحصرت دولة المسلمين فى رقعة ضيقة صغيرة ، وقد احاطتها القوات الاسبانية ، وخاصة فى زمن ملوك بني الاحمر أصحاب غرناطة ، حيث عبر المزيد من الكتائب المغربية ، وتدفقت المعونات الحربية ، مما كان له اكبر الفضل فى صمود دولة بني نصر — رغم ظروفها — من أن تعيش قرابة قرنين ونصف ، تصابر الاحداث العظام ، وتجالد المحن بارض الجهاد . وها هو سابع ملوك بني الاحمر يوسف بن اسماعيل بن نصر فى تلك المملكة يجدد العلاقات بينه وبين معاصره السلطان ابي عنان فارس المريني ملك المغرب ، جريا على سنة الاسلاف ، وتوطيدا للدعائم الاسلامية التي لا تفصلها حدود ، ولا تحول بينها الحواجز مهما كانت .

وفيما يلي نقدم وثائق ثلاث من انشاء وزير غرناطة ابن الخطيب ، بعث بها سلطانه يوسف الاول الى ابي عنان فارس .

فاما الوثيقة الاولى فقد تضمنت — على الاخص — اعلام ملك المغرب بما وقع مؤخرا من حوادث قشتالية داخلية ، اهمها نشوب الحرب الاهلية بين انصار « بيدور الثاني » الجالس على العرش من جهة ، وبين طبقة الاشراف بزعامة « هنري تراستمارا » الاخ غير الشرعي لهذا الملك من جهة اخرى ، الذي كان يطمع فى اعتلاء عرش المملكة وكان لهذا الصدام القشتالي صداه فى دوائر مملكة غرناطة ، حيث استنجد « بيدرو » بالسلطان يوسف الاول ليمده بفرقة من جند المسلمين تكون عونا له فى محنته ، فأجابه ابن الاحمر الى ما طلب ، وتمكن الملك القشتالي بنفوذه وتأييد غرناطة له من القضاء على تلك الثورة ، على نحو ما سيرى القارىء للوثيقة من تتابع الاحداث فى دولة قشتالة .

واذا كان ملك قشتالة هذا قد استنجد بغرناطة ، فقد استنجد اسلافه من قبل بملوك المغرب ايضا . وكان لاستجابة صريخهم فضل سحقهم للثورات وتمكينهم من عروشهم ؛ فها هو « الفونسو العاشر » المعروف بلقب « الحكيم » يطلب الى ملك المغرب يومئذ السلطان يعقوب المنصور المريني (ت 685 هـ) ان يعينه حربيا فى القضاء على ابنه الثائر ضده « شانجه » ، فحقق له ملك المغرب امنيته . ثم يطلب اليه بعدئذ ان يعينه ماديا لاصلاح احوال دولته . فيبعث اليه المنصور بحوالي مائة الف دينار ، وكان « الفونسو » قد بعث الى ملك المغرب بتاجه الذهبي ضمانا .

واما الوثيقة الثانية فهي صادرة ايضا من السلطان يوسف الاول الى معاصره بالمغرب السلطان ابو عنان فارس ، وهي تشير الى استعدادات مملكة غرناطة الحربية بالتعاون مع المغرب ، ولاسيما فيما يتصل بتحصين الشواطىء الاندلسية ، التي كانت همزة الوصل بين المملكتين ، وطالما بذلت دول النصارى في الشمال جهودا بحرية ضخمة للاستيلاء عليها ، فتنقطع صلة الاندلسيين باخوانهم في عدوة المغرب .

وقد وردت هاتان الرسالتان غير مؤرختين ، ولكن مجرى الحوادث يجعلنا نميل الى انهما قد ارخا في عام 1351 م — أوائل عام 1352 م .

واما الوثيقة الثالثة فهي عبارة عن رسالة صادرة ايضا من ابي الحجاج الى ابي عنان ، بغرض اعلام هذا الاخير بالعلاقات الغرناطية القشتالية ، في ضوء العلاقات التي ابرمت بين هاتين المملكتين ، مما استلزم احاطة ابي عنان بمجريات الحوادث الراهنة، وذلك اثر شكايات كانت قد تبودلت حينئذ بين غرناطة وقشتالة .

وقد وردت هذه الرسالة غير مؤرخة ، ولكن تاريخها — لمضمونها — يحتمل ان يكون خلال عام 1344 م .

وها هي الوثائق الثلاث :

الوثيقة الاولى

ومنها : مراجعة كتاب فارسي (1) ، يعرف بما كان من استقامة احوال البلاد الشرقية على طاعته . بما نصه :

« المقام الذي جياد سعوده الى الراية القصوى ذات استباق ، واكواس فتوحه المؤيدة بملائكة الله (28 : أ) وروحه تحتها ايدي اصطباح واغتباق . وعقود حمده ذات انتظام في لباب الليالي واتساق ؛ وآثار مجده كواكب آفاق ، واحكام وده مذاهب اجماع واصفاق، فله — من عناية الله — واق ، ومن عصمته اي رواق ، والقلوب — على طاعته — ذات اتفاق . وجداول سيوفه قد آلت ان لا تبقى على الارض شعلة نفاق ، مقام محل اخينا الذي قضايا سعده وجودية منتشرة ، ورياح نصره مبشرة ، ووجوه الدين — بما يتيحه الله لملكه المكين من النصر العزيز والفتح المبين — مستبشرة ، وقدرة عزمه وصفات كماله على توحد جماله متكثرة ، ونهار نصره آية مبصرة ، واقلام اللوح المحفوظ عند قسم الحدود والحظوظ مطلية لا مختصرة ، وموارد العيش الهني لملكة السني باردة خضرة، السلطان الكذا (ابو عنان فارس) ابن السلطان الكذا (ابي الحسن علي) ، ابن السلطان الكذا (ابي سعيد (2)) ابقاه الله ناصر الكلمة العليا يمهد منها الايالة ، ويؤسس لها الجلالة ، ويستدر من صنع الله الزيادة والانالة ، معظم مقامه التعظيم الذي لا يبرح ، وناشر كماله الذي طيور حمده في روضات مجد ، الدهر تسرح ، وجياد ثنائه في ميدان علائه تمرح ، واقلام اطابة ذكره في صحف فخره تسهب وتشرح .

سلام — كما تارج غب السماء زهر ، وفاض للصبح على دوحة الليل نهر ، يخص مقامكم الاعلى ، ومثابتكم الفضلى ، ورحمة الله وبركاته .

(28 : ب) اما بعد حمد الله الذي جعل الفتوح لملككم السعيد دينا تطوف وتنثال ، والصنائع عجائب تضرب بها الامثال ، وروى نصالكم في ولائه النصر العزيز ، والصنع الوحي الوجيز ، حديث اطعمني وسقاني ، بعد أن عظم الاحتفاء والاحتفال ، وسماكم فارس هذا الملك لما ادخركم لنظم منتثر السلك ، فصدقت السمة ونجح المنال ، فمهما رميتم غرضا اصابت شاكلته النبال ، ومهما آثرتم عزما وجفت الجبال ، ومهما ادرتم رأيا نجحت بمده الاعمال ، ومهما خطبتم عناية من الله تسنت منها الآمال ، ومهما رميتم وجهة صحب ركابكم اليمن والاقبال ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله ونبيه الذي ختم به النبيون والارسال ، الملجا الذي له الافياء الوارفة الظلال ، والمورد الذي هو العذب الزلال ، نور الله الذي لا يفارقه التمام — حسب وعده — والكمال ، ورايته التي لا يلحقها الدثور ولا الاضمحلال ، الهادي الى الحق وقد ارتبك الظلام واشتبك الضلال ، صاحب المقام المحمود اذا اشتد الظما وعظمت الاهوال ، والشفاعة المدخورة اذا شهدت الجوارح وحقق الحساب ودقق السؤال ، والرضا عن آله وصحبه وانصاره واشياعه واتباعه ، فنعم الاشياع والاتباع

---

1) نسبة الى لقب ابي عنان (فارس) ، وقد وردت الرسالة في نسخ الريحانة ، وان لم ينص الناسخ للكناشة على هذا .

2) راجع الوثيقة السابقة ، حيث افصح ابن الخطيب عن ملوك بني مرين .

والانصار والصحابة والآل ، سيوف جلاده اذا اشتد النزال ، والسنة جداله اذا اعمل فى الدين الحجاج وتعوطى (29 : 1) الجدال ، والنجوم الزاهرة من بعده فى سماء دينه التي سمت منها الخلال ، فبهم عرف الحرام والحلال ، ووضحت المقاصد وزال الاشكال . والدعاء لمقامكم الاعلى بالصنع الذي رحب منه المجال والنصر الذي راق منه الجمال ، والعز الذي لا يرومه المقال ، والسعد الذي تساعده المطالع والمواضع والاجتماع والاستقبال ، ولا زال ملككم تضيء منه فى اعداء دين الله النصال ، وتخدمه البكر والآصال ، ويتجدد — بينه وبين عناية الله — الاتصال . فانا كتبناه اليكم — كتب الله لكم فتوحا منظومة ، ومنوحا بالمزيد موسومة ، وصنائع فى صحف الايام مرسومة ، وعناية الاهية منطوقة ودلالتها مفهومة — من حمراء غرناطة — حرسها الله — ونعم الله واكفة ، ومواهبه مترادفة، ومذاهب التشيع — على رسوم الاعتقاد بها — عاكفة، وركائب الاستعداد — بركن مقامكم الرفيع العماد — طائفة .

والى هذا ، ايد الله أمركم ، واعز نصركم ، كما شرح لشكر انعمه صدركم ، واعلى باضمار ما يرضيه امركم — فاننا ورد علينا كتابكم الكريم الوفادة ، العميم الافادة ، الذي رقمته أطراف اليراع ، وأنهاه اصناع ، وجادته سحائب الابداع ، فجاء روضة ذات ايناع ، وما على الصبح غطاء ولا على الشمس قناع . تعرفون اتساق الطاعة وخطبة البلاد الافريقية لامرتكم المطاعة، (29 : ب) وما كان من دخول اشياخ القبائل الذي سميتم فى دينها افواجا ، وأن دواء السياسة الفارسية أوسع ادواءها علاجا ، وملأ القلوب بها بعد الهم ابتهاجا . وانكم اعدتم حاجبكم الى سد مدينة بجاية ، بعد القدوم عليكم بمن خلصت نيته من اعيانها ، وما اعتمدتم به تلك المثابة من احسانها ، وما ضمن وليكم الشيخ أبو يعقوب بن مزنى من اصلاح شأنها (وتمهيد أوطانها (3)) واطفاء نار عدوانها ، وصرف العزائم .. »

ومنه : وان تشوفتم الى ما تزيد فى هذه البلاد من الاخبار — بما يقتضيه فضلكم الباهر الانوار — فاعلموا ان صاحب قشتالة (4) توجه فى هذه الايام الى بلاد « جوان منويل » التي هلك صاحبها ، والتبست مذاهبها ، لينظر فى مصرف أمرها ، الذي رجعت اليه ، واحكامها التي توقفت عليه ، بعد ان صالح (القند (5)) اخاه الذي كان حربا ، وعليه البا ، ووجه الينا رسوله يعرفنا بعزمه على الخروج الى منازلة حصن « دلى » المخالف لطاعته ، الخارج عن حكم جماعته ، ويطلب منا مددا كبيرا من الرماة والرجال ، واعانة على القتال، فراجعناه بأننا انما نقف فى المدد عندما وقع به الشرط ، وتضمنه العقد والربط ، من تعيين ثلاثمائة من الفرسان يكونون فى جملة اتباعه ، يستظهر بهم على من يخالف من اشياعه بطول ثلاثة اشهر من العام الذي يتوجه فيه اليهم احتياجه ، ويصح فى تعيينه بسبب الصلح احتجاجه . (30 : 1) ويوم كتبنا هذا كان رسولنا اليه متوجها فى هذه الامور ، والله يطلع على ما يكون فيه للاسلام سبب الظهور . عرفناكم بذلك عملا على بركم المأثور . وما يتزيد فمقامكم يطالع به صلة لسبب البر بسببه . والسلام » (الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته (6)) .

الوثيقة الثانية

ومما خوطب به (7) — قدس الله روحه — فيما يظهر من اغراض المخاطبة :

---

3) زيادة بنسخ الريحانة ساقطة من الكناسة .

4) هو الملك « بيدرو الثاني ابن الفونسو الحادي عشر » الملقب بالقاسي ، حكم قشتالة ترابة خمسة عشر عاما (1350 — 1368 م) .

5) وردت هذه الكلمة فى كتب المؤخين العرب ، مرادا بها « الكونت » اللقب الشرفي المعروف وصاحبه هنا الملك « بيدرو الثاني » الذي تقدمت الاشارة اليه ، ويقصد باخيه « الكونت هنري دي ستراستمارا » الذي نبذ طاعة العرش ، وانضم الى الاشراف فى المعارضة ، حتى نشبت بالبلاد القشتالية حرب اهلية ضروس ، استعان فيها الملك — على اخيه الثائر — بولي عهد انجلترا حينئذ الامير ادوارد، المعروف بالامير الاسود ، وتمكن بمعونته من ان يسترد عرشه لفترة من الوقت ، ولكنه هزم من بعد وقتل فى موقعة « مونتيل » عام 1368 م ، فتولى سلطة الحكم الاخ الثائر الكونت هنري المذكور .
راجع فى هذا / ابن الخطيب فى الاحاطة ج 2 ص 24 — 26 . ط القاهرة 1349 هـ .

6) زيادة فى نسخ الريحانة .

7) هذا الكتاب ثابت فى الريحانة وان لم يذكر ذلك بهامش الرسالة فى اصل « الكناسة » .

« المقام الذي يجب الى مرضاته التسرع ، ويحق البدار الى وصل اليد به والتبرع ، ويدعو الى الاستمساك بوده التدين والتشرع ، ويخلص الى الله في حمله ما فيه (من) (8) رضاه التضرع . مقام محل اخينا الذي نعطي اخوته حقها ، ونسلك من مودته طرقها ، ونشيم من عزائمه في الجهاد برقها ، ونشكر غيثها وودقها . السلطان الكذا (ابي عنان فارس المريني) ابقاه الله موفق المقاصد ، منها الموارد ، معمور النوادي بالصالحات والمعاهد ، قائما من حقوق نعم الله عليه مقام الشاكر الحامد ، ولا زالت عزائمه قاطعة بالمعائد ، متلفة منه للطارف والتالد ، ومكارمه شاملة للاقارب والاباعد ، واقواله واعماله خالصة في طاعة الله الملك الواحد . معظم مقداره ، وملتزم اجلاله واكباره ، ومؤاخيه في الله على اعلاء دينه الحق واظهاره ، العارف بكرم نجاره وفضل آثاره ، فلان (السلطان ابو الحجاج يوسف الاول ابن الاحمر) .

سلام كريم ، طيب عميم ، يخص مقامكم الاسمى ، واخوتكم العظمى ، ورحمة الله وبركاته .

اما بعد حمد الله (30 : ب) الذي تجبى من افنان التوكل عليه ثمار الاعمال ، وتقتنص من مطالب اللجاء اليه نجاح الاعمال ، جاعل المودة في ذاته وسيلة نافعة يوم العرض والسؤال ، وظلا على عباده يتكفل بصلاح الاحوال ، مجازي من اخلص في وسيلة قصده بالصنع الباهر الجمال ، والمنح الوافرة التي فوق الكمال . اتانا بهذا الصقع الاقصى ندافع عداه بالبيض القصار والسمر الطوال ، وندعو الى ما فيه رضاه اهل الائتمار لطاعته والامتثال ، ليصبح الامن مديد الظلال . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الشفيع عند تعاظم الاهوال ، والملجأ المنيع عند اعواز الاحتيال ، ذي المعجزات التي استقلت عقودها كل الاستقلال ، خاتم الانبياء وسيد الارسال ، الذي نلتمس ببركته في الدنيا والآخرة من الله مؤمل الافضال ، ونحارب ونسالم عملا بمقتضى سنته في الحال والمآل ، ونتمسك باخوة من نرجو دفاعه عن دينه حتى نبلغ قصيات الآمال . والرضا عن آله واصحابه اكرم الصحابة واسنى الآل ، الذين كانوا في قلادة ملته مثل اللآل ، وفي الاهتداء لامته بمنزلة النجوم في الليال .

والدعاء لمقام اخوتكم الفارسية بتوالي اليمن والاقبال ، ولا زالت مقاصدها خالصة في رضا الله ذي الجلال ، وعزائمها يحفها التوفيق عن اليمين والشمال . فانا كتبناه اليكم — كتب الله لكم من السعادة اوفرها نصيبا ، وسلك بكم السداد (31 : 1) والاسعاد مأخذا قريبا ، وجلالكم من وجه العناية وجها عجيبا ، وبواكم من منازل القبول جنابا رحيبا — من حمراء غرناطة ، حرسها الله ، ونحن نمحض لكم الود في شاهد الامر وغائبه ، ونثني عليكم ثناء يبين تصدق مذاهبه .

والى هذا — وصل الله سعدكم ، وحرس مجدكم ، ووالى النعم عندكم — فاننا تعرفنا في هذه الايام من خدامكم الوافدين علينا بهديتكم ، ما عندكم من استدعاء الاساطيل المنصورة من محل انشائها ، والاستكثار من عدد حركاتها واقتنائها ، وأن فروض العزائم شرع في ادائها ، واولياء الملة قد تذامرت على اعدائها ، وحكماؤها (قد) (9) شمرت لازالة دائها ، فسألنا الله اتاحة الخيرة ، وتكييف الصنائع الميسرة ، وبادرنا لسبر ما عندكم من التشوف الى مالنا من الاساطيل الجهادية ، والمقاصد الودادية . فان توفر لكم في الاستعانة بها ارب ، او بان في الاحتياج اليها مذهب ، نشرع في اصلاحها وتيسيرها ، وننظر في ابرام امورها ، لتكون مرهفة الحد ، آخذة اهبتها قبل القصد ، ونعلمكم — مع ذلك — ان رسولنا اليكم في الايام الماضية والاشهر المتقاضية فلانا ، لما وصل من لدنكم اوصل في الطعام المعتاد من سلفكم — قدسهم الله — الى هذه الجزيرة وعدا ، وانهى اليها اجتهادا في امره وجدا ، وانكم جددتم من حسنات بيتكم عهدا ، فأورينا في الشكر زندا ، واوضحنا في الثناء قصدا .

(31 : ب) وقد كانت عادة والدكم — ازلفه الله اليه ، وجدد ملابس الرحمة والرضوان عليه — ان يصدر عنه مكتوب بمقدار ذلك الامداد ، وتعيين موضعه من سواحل البلاد . ونحن نأمل ان تسلكوا ذلك العمل في سبيل الجهاد ، وتخلدوا من الاعمال الصالحة ما يجده من يؤمل حسن المعاد . اذكرناكم بذلك على سبيل الوداد وكرم الاعتقاد . ووجهنا من يقرر لديكم ما عندنا

---

8) زيادة في « الريحانة » ، والسياق يستلزمها .
9) زيادة في الريحانة .

من جميل (10) الولاء في اخوتكم الرفيعة العلاء ، ويتكلم بين يديكم في هذه الاشياء ، ويجرى من تبيين الخلوص على سبيل السواء ، وهو القائد الكذا ابو فلان ، وصل الله عزته ، ووالى رفعته . ومقامكم يتفضل بالاصغاء اليه ، والقبول من ذلك على ما لديه ، والسلام » .

الوثيقة الثالثة

« ومن المكاتبات في الاغراض التي تخص العدو ، ومحاولة أمره ، ما نصه :

المقام (11) لكل بصلاح الامور نظره الجميل ، وبعدلها كلما همت بأن تميل ، ويبلغ هذه المستمسكة بأسبابه القصد والتأميل ، ويلاحظ من مصالحها الكثير والقليل ، ويذهب عن مذهب أمانها التأويل والتعليل ، ويؤويها من جناب رعيه الظل الظليل .

مقام محل اخينا الذي على وداده الاعتماد ، والى جميل نظره الاستناد ، وبه الانتصار اذا وقع العناد ، ومن جهته التمهيد اذا قلق المهاد ، ومن تلقاء تدبيره العلاج اذا تطرق الى كون (32 : أ) الهدنة الفساد ، فمكارمه قد وضحت منها الاشهاد ، ومفاخره يعرفها الحسام العضب والقنا المياد ، وعزماته يدخرها الجهاد ، وفضائله يعرفها العباد والبلاد . السلطان الكذا (أبو عنان) ، ابن السلطان الكذا (أبي الحسن علي) ، ابن السلطان الكذا (أبي سعيد المريني) . أبقاه الله مؤمل النظر ، كريم المخبر والخبر ، كفيلا عدله يرعى المصلحة ودرء الضرر ، ولا زالت سعوده متألقة الغرر ، ومكارمه هامية الدرر ، مرجوا للنصر المنتظر ، حميد المساعي مرضى السير ، محروسا مقامه من الحوادث والغير ، معظم قدره وملتزم بره ، المطنب بملي اللسان في حمده وشكره ، العارف بكبير مجتده وأصيل نجده ، فلان (أبو الحجاج يوسف الاول ابن الاحمر) .

أما بعد — حمد الله الواجب حمده ، المتوالي انعامه ورفده ، الذي جعل التواصل في ذاته سببا لا يفصم عقده . والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الرفيع قدره ، الكريم مجده ، رسول الرحمة ، الذي اشرق بدعوته غور المعمور ونجده ، الداعي الى الدين القويم والصراط المستقيم الذي لا يضل قصده . والرضا عن آله واصحابه الذين انجز بنصرهم وعده ، ورفعت بهم اركان ملته بعد ما ضم عليه ضريحه الطاهر ولحده . والدعاء لمقام اخوتكم العالية بالسعد الذي لا يبلغ حده ، والتأييد الالهي (32 : ب) الذي لا يتقلص ممتده . فانا كتبناه اليكم — كتب الله لكم سعدا باهر الانوار ، ومجدا عالي المقدار ، وصنعا تجري بمساعدته أحكام الاقدار ، ويتصرف وفق ارادته حركات الفلك الدوار ، وأجرى أمور هذه البلاد الغربية والاقطار من تدبيركم الحميد الآثار ، ونظركم الجميل الاعمار والاخبار ، على ما يقع من الاسلام موقع الاختيار ، ويتكفل بتأمين الخلال والديار — من حمراء غرناطة ، والاعتماد عليكم — بعد الله — وثيق السبب واضح المذهب ، والتشيع لكل كفيل للدين بنيل الارب .

والى هذا — وصل الله سعدكم ، وحرس مجدكم — فاننا انعقدنا سلما عقدناه بريحكم التي يحذر العدو هبوبها ، وان شننا (12) حربا استعنا بعزماتكم التي تنال بها الملة مطلوبها ، وان ضمنا عنكم أمرا صدق الضمان ، وان وثقنا بكم انقاد الزمان ؛ ورأى سره الامان . فأحوال المسلمين في هذا القطر على جميل نظركم معتمدة ، وعنايتكم بها في كل يوم متجددة ، فكلما توقع في أسباب هدنتها مرض عرض منكم على الاسى الطبيب ، أو حذر من عدوها مكروه صرفت الوجوه منكم الى الولي الحبيب ، فوجوه لحظكم سافرة على حال المغيب ، وهي وان كانت بعيدة منكم توجبون لها بدينكم حق القريب . وان هذا الصلح — الذي تسنى في ايامكم ، وانقاد اليه العدو بسبب (33 : أ) اعتزامكم ، واتصل اليد بمقامكم — تكاثرت فيه بين الفريقين شكايات ، وهي اذا تكاثرت في النفوس نكايات . وان تفوغل في حسم عللها ، واصلاح خللها ، والتنزل فيها لانصاف ، ورفع النزاع في سببها والاختلاف ادت لانطلاق الايدي ، ومجازاة التعدي بالتعدي ، حتى يتقلص ظلال الهدنة والمسالمة ، وينتقل الحكم من الكلام الى المكالمة ، والحاجة الى الهدنة لاخفاء (ما) (13) بها مقامكم الرفيع العماد ، اذ في اقتضاء ما عين لها الآن من الآماد جبر الاعداء ، وامكان الاستعداد ، بخلاف ما يستوفي — ان شاء الله — على المهل اغراض الجهاد .

---

10) في الريحانة « دليل » بدل « جميل » .

11) وردت هذه الرسالة في الريحانة كما نص الناسخ على ذلك هنا .

12) في نسخ الريحانة « شننا » وهو مناسب أيضا .

13) ساقطة من الكناسة ، ثابتة في نسخ الريحانة ، وهو أولى .

وان سلطان قشتالة (14) ردد الينا الرسل يطلب خلاص ناسه مما به اليه استظهروا ، وقد حشدوا كثيرا من الشكايات واستكثروا ، وحضروا بين يدينا ، فالقوا ما يختص بايالتنا ، منسوبا الى مواضع البلاد ، وما يختص بما يرجع لايالتكم الرفيعة العماد ، وطلبوا بالانصاف مما تثبت دعواه ، وخلاص كل شاك من شكواه ، فبلغنا الجهد فيما يرجع الينا من دفع الحجة التي فيها مدفع ، والاتيان بما فيه مقنع ، وغرم ما لزمنا غرمه ، واتجه علينا حكمه ، عملا بحسب التسديد الذي تتمشى به الاحوال ، ويحمد فيه بفضل الله المآل ، وقيدوا بتلك الجهة التي لجميل نظركم قضايا مقررة ، ودعاوي مفسرة ، وذكرنا لكم منها (33 : ب) في مدرج كتابنا أشهرها عند الاعتبار ، واولاها بالايثار ، وسايرها كثير يقع الكلام فيه بين منتحلي الجوار ، من المسلمين والكفار ، وتبنى الاحكام فيها على ثبوت الآثار ، ولم نجد فيها حيلة الا مخاطبة مقامكم الرفيع المقدار ، اذ وجوه خدامكم بهذه البلاد — أعزهم الله — قد تنزلوا من هذه الدعاوي منزلة الخصوم ، وطال الكلام في المنطوق منها والمفهوم .

فنحن الآن نرغب من مقامكم الاعلى ومثابتكم الفضلى ، أن يعين من بابكم من يصل الخلاص ممن يجب خلاصه ، واستخلاص ما يحق استخلاصه ، ممن يمضي بامركم العلي الحق حيث تعين ، ويفصل بالواجب فيما ظهر وتبين . وتعين نحن من يقوم فيما يختص بجهتنا هذا المقام . ويعين سلطان قشتالة من جهته من يروم هذا المرام ، حتى يرتفع النزاع ، ويظهر للحق الشعاع ، وتستأنف الهدنة والامان الاصقاع . فما زال مقامكم يلتمس لها اسباب الرفق ، ويدر لها سحائب الرزق ، ويلتمس من التماس صلاحها أوضح الطرق . وبهذا النظر الذي سألناه من علاكم تتمشى الامور : وتشرح بالحق الصدور ، ويطلب بجميع المسلمين من الشكايات على ما تضمنه العهد المأثور والعقد المسطور . وملك الروم في الوقت قريب الدار ، داني الجوار ، يغتنم دنوه لخلاص هذه الامور ، التي يعوق عنها المطال اذا بعد مكانه ، (34 : أ) وشطت داره ، ونزحت اوطانه .

عرضنا عليكم هذا الامر المهم قبل ان يخيل ما عقد ، وينهي ما سدد ، وأنتم اكفى واكفل ، وجميل نظركم المؤمل ، وعلى مقاصدكم الكريمة المعول ، وقد وجهنا الى بابكم في هذا الغرض من يشرح الامور فيها ، ويقرر المقاصد ويستوفيها ، وله بها دربة وخبرة ، ومعرفة مستقرة ، ذلك القائد الكذا ، ومقامكم يتفضل بالاصغاء لما يلقيه ، والقبول على ما يؤديه ، والله تعالى يبقي مقامكم سامية معاليه ، عائذا جميل نظره بالخير على من يواليه ، والسلام (الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته (15)) .

القاهرة

حققه الدكتور
محمد كمال شبانة

---

14) هو « الفونسو الحادي عشر » الذي حكم قشتالة سنة 1312 — 1350 م .
15) زيادة في نسخ الريحانة ، دون الكناسة .



ان الامثال والحكم الشعبية تكون ، في غالب الاحيان ، مسبوكة في عبارات وجيزة ومسجوعة ؛ وكثيرا ما تكون متداولة في الاوساط الوديعة لانها وليدة الحياة اليومية والخبرات الذاتية . فهي تنبع وتنشأ في الاسواق والحانات والفنادق والحمامات والمقاهي الخ . ولا يهتم بها الكتاب والادباء الا لجمعها ولتبويبها أو لدراسة ما تشتمل عليه من الفاظ عامية، وفصيحة وغريبة في آن واحدة .

فاننا لا نسمع اليوم الامثال الا في « الحلقات السوقية » أو « المسرحيات العامية » واكثرها عرف منذ احقاب ، لان زمان « السرعة » و « المطبعة » لا يساعد على انتاقها ورسوخها في الاذهان ؛ ورغم اقدميتها ، فانها تعبر عن حقائق ما زلنا نعتبرها واقعية بالنسبة لبيئتنا الاجتماعية ، وذلك لانها تعبر عن عواطف وعادات جماعية متاصلة الجذور ، متمكنة من النفوس ، ولا تتغير بسرعة شأن الافكار والآراء .

واني اسوق هنا امثالا شعبية ذات صلة وثيقة بطرق الكسب والحياة المعاشية ؛ فانها بمثابة حكم ووصايا قد تبدو ساذجة وبسيطة الا انها ما زالت توحي بالتيقظ والحذر في مواقف شتى من مواقفنا الحياتية ؛ وهي ، على كل حال ، تصور جوانب كثيرة من الحياة الاقتصادية التي عرفها المغرب قبل عهد التصنيع ، وتشخص عادات وتقاليد واحكام قد يكون بعضها تغير مع تغير النظم والاوضاع ، الا ان اكثرها لم تزده الايام الا قيمة واعتبارا .

1) « اللي ما عنده فلوس كلامه مسوس »

الشعب يعرف قيمة « الدراهم » ويعرف انها اللسان لمن أراد فصاحة ، والسلاح لمن أراد قتالا » وانها هي التي تجعل الحياة طيبة ، اذ

2) « الفقر مشين القعدة ومقبط الرعده »

يجعل الحياة « مسوسة » لايستساغ طعمها .

ومن المعلوم ان هذا « حكم من يعتبر المال وسيلة للحياة لا الحياة وسيلة للمال » . وقد اورد ابن خلدون ما يؤيد « ثقل وزن الفني » وما يلاقيه المثري من تقدير وتبجيل ، حينما ذكر في مقدمته نموذجا مما كان يسمى « بالاعاريض المزدوجة » وهي الموشحات المنظومة باللغة الحضرية وتسمى كذلك « عروض البلد » ، والنموذج المذكور منسوب لابن شجاع التازي ، وهو :

المال زينة الدنيا وعز النفوس
يبهي وجوها ليس هي باهيا
فها كل من هو كثير الفلوس
ولوه الكلام والرتبة العاليا

وقديما سمعنا العامة تقول :

3) « الاقرع بفلوسه جيب ذاك الراس نبوسه »

لان الثراء يضفي على صاحبه رداء التقدير والاكبار ، فترى الناس ينظرون اليه بعين الرضى متغاضين عما يكون به من عيوب ونقائص ، يستمعون

لاقواله ، ويؤمنون لدعواته ، ويحضرون حفلاته ـ وان كان هو نفسه لا يدعو الا الاثرياء امثاله ـ ويعودونه اذا مرض ويقفون بجانبه فى المحاكم ، ويزوجونه اذا رغب فى الزواج متغافلين ، فى بعض الاحيان ، عن كبر سنه ، وارتخاء عضلاته ، وارتعاش مفاصله .

والغني اذا توقف على قسط من المال يجد بسهولة من يقرضه .

4) « اللي عنده القمح يتسلف الدقيق »

والغني اذا مات تشيع جنازته افواج من ذوي الجلاليب والسلاهم ، وطوائف من الفقراء وحفظة القرءان ، ويترحم عليه الاقارب لاسيما اذا كانوا ممن يستفيدون مما يخلفه من مال او عقار او عروض .

5) « الله يرحم من مات ، وخلى الميدة (المائدة) عامرة بالفتات »

ولكن لا ننسى ان الشعب يميز بين الاغنياء ذوي النعمة الحديثة ، والاغنياء الذين « ولدوا فى الخير والخمير » وورثوا المال خلفا عن سلف ولم يذوقوا مرارة الجوع ، ولم يسبق لهم ان اهينوا او احتقروا . والحديث النعمة ، مثل اولئك الذين « دعوا باغنياء الحرب » او « المارشي نوار » (السوق السوداء) ، يكون عادة جامد الكف ، مغلول اليد ، وكثيرا ما يتعالى عن الفقراء وخصوصا عن اولئك الذين يكونون قد عرفوه ايام البؤس والشقاء ، لانه يعرف قيمة «الفلس» وقد يكون سبق له ان وقف بين يدي اثرياء ذوي نفوس قذرة ونوايا فاسدة او اغراض خبيثة .

6) «تاكلها من يد الشبعان اذا جاع ، وما تاكلهاشي من يد الجيعان اذا شبع »

والشعب اذا كان يقدر المال ويعتبره اقوى مذلل للمصاعب ، وانجع وسيلة لتحقيق الرغائب واكبر مشجع على خير الدنيا والاخرة ، واذا كان يفرط احيانا فى تبجيل الاثرياء ، حتى ذوي الصناديق الثقيلة والقلوب القاسية ، فهو لا يرى من الحكمة في شيء ان يعيش الانسان فوق مستواه .

7) « على قدر فراشك ، مد رجلك »

ولا يحبذ الاسراف والتبذير او على الاقل التسارع الى اقتناء الكماليات سيما بالنسبة لمن لا تسع امكانياتهم حتى الضروريات .

8) « الشيء من الشيء نزاهة ، والشيء من قلة الشيء سفاهة »

السفيه هو الذي لا يحسن التصرف ، ولا يوثق بمشروعية معاملته اذ السفاهة من موجبات « الحجر» والمنع من « النزاهة » لان « النزاهة » تليق بمن يعرف اين يضع رجله ويحسن اختيار ما يدخل عليه السرور ، ويستطيع على كل حال ، ان يؤدي ما تستوجبه « نزاهاته » من مصروفات ، حتى اذا انحرف عن الذوق السليم ومال عن « العرف » المقبول .

9) « اللي عنده سميده ، كل يوم عيده »

10) « اللي كثر زعفرانه ، يعمله فى أغلال »

«اغلال» يكفيه الصعتر «والكمون» «قشور الليمون» لتطيب رائحته ، و « يطيب » مرقه ، ولا يتوقف على الزعفران وهو « مادة » غالية الثمن تستورد من الخارج ، وتستعمل بمقدار ، وفى الوان خاصة من « الطواجين » فاستعمال الزعفران فى « اغلال » اذن امر نادر ، ولا يقدم عليه الا من لا يهمه ان يراعي ما الفه الناس ، « للناس فيما يعشقون مذاهب » ومن المعلوم ان الحاجيات تتفتق بازدياد الدخل .

11) «منين تشبع الكرش ، تقول للراس غني »

12) « اس خصك العريان : الخاتم امولاي ! »

اذا امتلأ بطن الانسان وبطون من يعولهم فانه يسوغ له ان يفرج عن نفسه بالغناء ، وقد يسرت ذلك الاذاعات . ولكن كيف يسمح للعريان بشراء الخاتم ؟ ! والمالوف ان ،

13) « اللي كثروا فلوسه ، يحج، والا يتزوج والا يهدم داره ويعاود يبنيها »

حقيقة فان المغاربة الاثرياء يرون فى هذه «المنافذ» الثلاثة استجابة لواجبات دينية ويرون فيها كذلك تنشيطا لحركات اقتصادية .

فالحج يغذي العواطف الدينية وييسر زيارة البقاع المقدسة ، والاتصال بمؤمنين يأتون من اقطار مختلفة ، الا انه قد يفهم من « الحج » اقامة « المواسم » وزيارة « الاولياء » وما يترتب على ذلك من تنظيم الحفلات والرقصات « الفلكلورية » .

والزواج يضمن استمرار النسل ويوثق اواصر المصاهرة ، الا انه يفتح باب الاسراف ، وكثيرا ما يؤدي الى التنافس في الولائم والتفاخر في الملابس والتباهي في محتويات « الشوار » .

وأما البناء فانه يوسع ميدان الشغل ويشجع المحترفين والفنانين من « زلايجية » و « جباسة » و « نقاشة » و « رقائقية » الخ .

فالمغاربة ، ولا سيما اهل المدن منهم ، مولعون بالتعمير، ويقيمون البنايات، اما للترفيه، واما للكسب، واما في سبيل البر والاحسان ، ويعتنون عادة عناية كبرى بتزيين الابواب ، وتزليج افنية الدور ونقش الابهاء والحنايا الخ .

واما الموسرون منهم وذوو البيوتات والمناصب العالية فانهم يتبارون في تشييد « القصور » و « المنتزهات » ولا يتأخرون عن استخدام امهر الصناع، واغلى المواد واقتناء انفس الاواني واجمل الزرابي الخ.

14) « الشنعة ، خير من الشبعة »

نعم ، فان الرغبة في « الشنعة » اي « السمعة» هي التي تدفع بالانسان ، في غالب الاحيان ، الى تشييد الدور الفخمة ، واقتناء الملابس الانيقة ، وارتياد المصايف المشهورة ، وركوب السيارات ذات الالوان الزاهية ، وتنظيم الحفلات والسهرات ، والاستقبالات الخ .

كل ذلك طيب ما دامت تلك « الرفاهيات » في نطاق الامكانيات ، ولكن اذا كان الوصول الى هذه « الشنعة » ، لايتم الا بقبيح الصنعة أو بالتقتير في « الضروريات » المعاشية أو بالاقتراض من عمر أو زيد، فان الحكمة الشعبية لا تقرر ذلك .

15) « المزوق من برا ، اش حالك من داخل »

بل تسفه من يعتمد على « الدين » ليظهر في مظهر « زين » فمن الامثال المغربية في هذا الموضوع :

16) « الدين ، مسود الخدين »

17) « المكسي بديال الناس ، عريان »

18) « ما يغلبك غير اللي يقول لك : اخرج من داري ، والا اعطيني ديالي »

19) « حبة قرض ، تخلي ارض »

نعم كل منا يعرف ما ينتج عن « القرض » من تقييد للحرية وتضييق لمجال التصرف ، فالدائن غالبا ما يكون من المرابين الذين شغفهم حب المال وخلت قلوبهم من الرحمة والاحسان ، يطففون في الكيل والميزان ، ويبيعون الدوني من البضائع بأفحش الاثمان، وقد يفرضون على صاحب الارض لونا من الوان الفلاحة ، وطريقة من طرائف الاستثمار ، وعلى التاجر اسلوبا من اساليب المعاملات حتى يضطر المدين الى فك رقبته بوسيلة من الوسائل ولو كان ذلك ببيع ارضه او باخلاء داره او مغادرة وطنه .

ولا يخفى على ذوي الاطلاع ان « القرض » كثيرا ما افضى بامم ذات ماض مجيد بالوقوع في ايدي الاستعمار الخانقة ، وانها لم تفلت منها الا بالرجوع الى حسن استقلال ما لديها من خيرات مادية وطاقات بشرية .

هذا واذا كان « الدين » وخيم العواقب فان الاقتصاد (التوفير) يعتبر لدى الشعب من الصفات المحمودة .

20) « الاقتصاد في المعيشة ، نصف العيشة »

21) « الاقتصاد في الكشينة ، (المطبخ) يبني مدينة»

وهناك امثال شعبية تحث على التقتير بل تدعو الى الصبر على الجوع اذا كان ذلك يفيد الاعتزاز بالنفس وادخار ما قد يساعد على تحسين الحالة وتوفر الكرامة .

22) « بات بلا لحم ، تصبح بلا دين »

23) « اللي خلى غداته لعشاته ، ما تشفوا فيه اعداته »

24) « عمر كرشك بالتبن ، وادهن شواربك بالسمن ، ودز على عدوك مصبن »

ولكن اذا كانت الامثال تحض على الاقتصاد وحسن التصرف فان الشعب لا يرى خيرا ولا نفعا ، فى اكتناز الاموال فى الصناديق ، والامتناع عن ترويجها واستثمارها فى ما يحل ويطيب من طرق الاستثمار .

يقول العوام :

25) « اصرف ما فى الجيب ، ورب يجيب، ما في الغيب »

الا ان من الناس من يذكرون هذا المثل للصد عن الشح وللحث على استخدام الاموال طلبا للربح وتنمية رؤوس الاموال ، وعلى المفاربة فى الاخذ والعطاء ، ومنهم من يسوقونه حضا على التبذير والاسراف ،بل على « الاتكال » و « التوكل » الذي لا يسانده عمل ولا سعي كان من شأن السماء « ان تمطر الذهب والفضة»

فان هذا الصنف من الناس يرون انه من العبث ان يضع لموارده ومصاريفه « ميزانية » .

26) « ما كيحسب غير المزلوط »

« المزلوط » هو الذي يعيش فى الفقر والعسر وهو قلما يطبق قول القائل :

27) « اللي جابوا النهار ، يديه الليل »

بل كثيرا ما يضرب الاخماس فى الاسداس عسى ان يحظى بما قد يلقي على ايامه القاتمة بصيصا من النور وذلك لكي :

28) «تجمع قريش على قريش، حتى يعمل كديس »

ومهما يكن من امر فان المفاربة ، بصفة عامة لا يضعون لانفاقاتهم المنزلية « ميزانية » فالعامل مثلا او الموظف يعرف ما يقبض ، ولكنه لا يستطيع ان يتوقع بكيفية دقيقة ما قد يفتح امامه من ابواب الانفاقات الاستثنائية ، فالضيوف كثيرا ما « يفاجئون » فى ايام قد يكون فيها رب البيت فى حيرة من امره بسبب « هزال كيسه » والاقارب و « المعاريف » كثيرا ما « ينزلون » « بدجاجة » ولا يرحلون الا بعد ان ياكلوا « اخرافا » و « ديوكا » واحيانا الا بعد ان تجدد لهم الملابس وتقدم لهم اجرة السفر .

فالمغربي وبالخصوص الفلاح او التاجر الموسر كان ، الى عهد قريب ، لا يشتري ما قد يتوقف عليه من مواد غذائية اساسية بالتقسيط وبالكيلو « والرطل » بل كثيرا كان يشتري ، فى الابان المناسب، ما يكفيه لسنته ، من قمح وشعير ، وزيت وسمن و « خليع » الخ ويدخر فى « خزين المنزل » يدفع « مفاتحه » لزوجته او لامه او لحاضنته « دادة » اي لامرأة رصينة تحسن التصرف ، وتضع الاشياء فى مواضعها ، والمغربي الذي تكون هذه حالته ، يعيش عادة فى دار كثيرة المرافق ولا يتضيق من « الضيوف » سيما اذا كانوا من اقاربه او من الذين بينه وبينهم معاملات تجارية او فلاحية تعود عليه وعليهم بالنفع والفائدة .

اما فى أيامنا هذه فان المغربي وبالخصوص الذي بالمدن ، موظفا كان او عاملا او تاجرا فانه قلما يفكر فى « العولة السنوية » لان « قضاءه الحيوي » من حيث المنزل ، ومن حيث الاثاث ومن حيث الأواني ، ومن حيث « العملة » لا يسمح له بذلك :

29) « بنات اليوم ، بنات الرطل والنص رطل ، من القفيفة للصحيفة »

فلننظر الان ما هي طرق الاكتساب والارتزاق التي عرف المغاربة فضائلها وتواصوا باتباعها .

ان الطبقات الشعبية من اهل المدن لا تستنكف من الاحتراف ولا ترى غضاضة فى الاعمال اليدوية .

30) « الحر حر ، والصنعة ما انضر »

والمغاربة ، بصفة عامة ، يقبلون على الصنائع ويرون فيها مكتسبا حلالا يضمن لهم العفاف والكفاف والغنى عن الناس ، الاحياء منهم والاموات :

31) يمشي مال الجدين ، وتبقى صنعة اليدين »

وكثيرا ما نرى افراد اسر معينة يتوارثون الوثا من الحرف و « الصناعات التقليدية » ويعلمها كبيرهم لصغيرهم حتى نرى اسماء بعض الحرف تصير اعلاما لبعض الاسر « الصباغ » و « النجار » و « عواد » و « الخياط » و « الكباص » و « الحرار » . وما ذلك الا لان افراد تلك الاسر تسابقوا الى تعلمها حتى عرفوا بها او عرفت بهم .

32) « صنعة بوك ، لا يغلبوك »

ولكن كثيرا ما نرى ايضا اصحاب الصنائع التقليدية المشهورة يانفون من تعليمها لمن ليس من اقاربهم .

33) « صاحب صنعتك عدوك ، واخا يكون بوك »

اذ كثيرا ما تؤدي المشاركة فى الحرف الى التحاسد العقيم بدل ان يؤدي الى التنافس المثمر الراجع الى ما ترتكز عليه السمعة الطيبة من اتقان في العمل وتحسين طرق انجازه ، وهذا ما يحمل من جهة اخرى العملة الذين لم يحرصوا آباؤهم على تعليمهم صنعة معينة ، ان يقبلوا تارة على هذه الصنعة وطورا على تلك ، فلا يستطيعوا الوصول الى المهارة التي تضمن لهم الدخل المنظم :

34) « سبع صنائع ، والرزق ضايع »

لقد قيلت عدة امثال فى الحرف ، واصحاب الحرف وفى معاملاتهم ، خصوصا فيما يجب مراعاته ؛ فانه مثلا من اللازم ان تحدد للصانع شروط العمل من حيث الكم والكيف ، ومدة الانجاز والثمن ، وطريقة الاداء الخ ! .

35) « الشرط سيد الاحكام »

36) « اللي اوله شرط ، آخره سلامة »

واذا كانت المماطلة فى تأدية اجرة العمل تعد من اكبر العيوب فان تسبيق الاجرة كثيرا ما يفضي الى النزاع ، اذ يقولون :

37) « تسبيق الاجرة ، من تبطيل العمل »

لان العامل الذي يتوصل بالاجرة قبل ان ينجز العمل المطلوب منه يميل عادة الى التهاون ، موهما انه لا يقصد الا الخير ومتعللا بالامثال التالية :

38) « لا زربة على صلاح »

39) « ازرب تتعطل »

فاذا كان القرويون يهجرون الى المدن للبحث عن العمل ، ويتحملون انواع المشاق للحصول على القوت والمأوى فانهم يقدرون ما للاستقرار من فوائد « اللي ثبت نبت » ولا يغادرون البادية الا عندما لا يبقى لهم بها عمل مجد او عندما ينزل بهم فيها ظلم او حيف ، وحينئذ يخضعون لما قد تفرضه عليهم الظروف القاسية :

40) « الخدمة مع النصارى ولا لجلاس خسارة »

41) « اللي ترهنه بيعه ، واللي تخدمه طيعه »

واما اذا كان لهم اراض او كان من المتيسر عليهم ان يكروا فدادين يحرثونها او ان يعملوا كخماسة فانهم يقبلون على الفلاحة لما قد تدره الارض من خيرات ، ولانهم يرون ان الاقتصاد بني على الفلاحة – اذ لم يعرف المغاربة التصنيع الحقيقي الا فى العشر سنوات الاخيرة – بل يرون ان الخير كل الخير فيما تجود به عليهم الارض واما المكاسب الاخرى فما هي ، فى نظرهم الا روافد .

42) « جرثة ولا ورثة ولا سر حتى »

43) « احرث وطول المرجع ، فلوس التاجر لك ترجع »

وهناك امثال تبين فوائد « اراحة الاراضي بتركها بورا وفوائد التوسيع بين الاشجار :

44) « بور ارضك يكبر حظك »

45) « الشجرة تقول لاختها **بعدي ظلك على ظلي نجيب حملك وحملي »**

فلننتقل الان الى التجارة ، ان لفظة « تاجر » كثيرا من يكون لها فى العامية معنى « الغني » «الموسر» وغالبا ما يطلق فى المدن الكبيرة مثل فاس ومراكش والدار البيضاء على « اليهودي التاجر » وفى البداية على « المعمر الاوربي » صاحب « الفرمات » (الضيعات) .

وجولة قصيرة فى الاحياء التجارية ، وفى الاسواق الاسبوعية ، ومراكز الجماعات القروية وفى المعارض الوطنية والدولية ، كافية لابداء ما للمغاربة من نشاط مثمر فى الميدان التجاري .

ففي « القيساريات » و « الفنادق » والازقة المخصصة لانواع المبيعات نرى الاكوام من البضائع

المستوردة من الخارج او المعدة للتصدير ، ونرى الدكاكين المثقلة رفوفها بالاثواب والملابس ، والاحذية والاواني ، ونرى كذلك اكياسا وصناديق وسلالا من « القطنيات » والخضر ، والفواكه ، الخ ...

وفي الاسواق القروية نرى نماذج عديدة من البضائع والسلع وقطعانا من الغنم والبقر ، والحمير والبغال .

واذا انت دخلت ، في ايام معينة من الاسبوع او في اوقات محددة من كل يوم ، بعض الاسواق او الرحاب المعدة للبيع والشراء فانك تشاهد طوائف من الباعة القارين او المتنقلين ، وافواجا من الرائحين والغادين لقضاء مآرب ، وتسمع اصوات الحمالين ، والسقائين والدلالين .

وعلى ذكر الدلالين نسوق هذا للمثل :

46) « اللي صدق دلاله لا ربحه ولا راس ماله »

وهذا مثل قد يصدق على « السماسرة » لانهم يعملون تحت ستار السر والكتمان عندما يتوسطون في بيع دار او دكان او ضيعة ، فانهم في غالب الاحيان يزينون المكان في نظر الشاري ليدفع الثمن المطلوب و « يظهرون » للبائع العيوب لكي يتنازل عن قدر من الثمن . هذا وقد يقع اتفاق بين السمسار والشاري لغبن البائع بوسيلة من الوسائل .

ان كثيرا من الامثال المتعلقة بالتجارة اي بالبيع والشراء تشير الى ان المشترين ، وخصوصا الذين يؤدون ثمن مشترياتهم نقدا ، قلما يتقنون بضاعة من غير ان يتحققوا من سلامتها وصلاحيتها ، ومن ان يطيلوا المساومة ، لانهم مقتنعون بان التجارة لا يستنكفون من الغش والتدليس وان خصائصهم ترديد الايمان المغلظة لتوكيد « قناعتهم » فيما يخص الارباح ولتزكية ادعاءاتهم فيما يخص قيمة بضائعهم وجودتها من المتعارف ان :

46) « مول الفول ما كيقول غير طياب »

وان شعار التاجر هـــو :

47) « عل ، تصيب ما تخلي »

ومعنى هذا ان البائع ينظر دائما « بعين الرضى» الى كل ما يحتوي عليه دكانه ، وانه يرى دائما في « الشاري » رجلا يجد لذة في المساومة ، ويتهاود في الاثمان . ولذا يعتبر ان لا فائدة في اشهار الاثمان و « التعاريف » .

ومن طبيعة الحال ان تضيق صدور التجار بالزبناء الثقلاء المفرطين في المساومة و « المهاودة » . ولذا نسمع بعضهم يقولون :

48) « كساد عام ، ولا مشتري حنكور »

الا ان التجار الصغار لا يرون خيرا في الاحتكار ولا في « الكساد » لان بضائعهم قليلة او سريعة الفساد ورؤوس اموالهم طفيفة ، وارباحهم ضئيلة ، وحينما ينتشر الكساد تبيت البطون طاوية وتظل الوجوه مكفهرة وتشمئز النفوس من الركود والبوار حتى اذا كان في ظل الامن والعدل . وهذا ما ادى الى ذيوع المثل التالي :

49) « حكم جائر ولا سوق بائر »

هذا ولا يخفى على احد ان كثيرا ما تخصص في المدن المغربية ـ بل الشرقية الاسلامية على العموم ـ اماكن معينة للباعة ولاصحاب الصنائع والحرف ، وكثيرا ما تكون دكاكين اصحاب الحرفة الواحدة او البضائع المتشابهة في ازقة او ساحات تصبح معروفة بها ، ولا ادل على ذلك من اسماء الاسواق والحارات بفاس مثلا او مراكش او سلا او الرباط الخ ، فهناك « الحرارين » و « العطارين » و « الشرابلية » و « النيارين » و « العوادين » و « القطانين » و « السلالين » و « النخالين » الخ . بحيث يتسنى للزبناء ان يتجولوا بين الدكاكين قصد الشراء او التطلع الى ما قد يليق بهم اقتناؤه .

50) « الحوانيت مصطفة والارزاق مختلفة »

ويتسنى لهم كذلك ان يقارنوا بين البضائع المعروضة والاثمان المطلوبة ، فيمكنهم أن يختاروا ما يناسب ذوقهم او « طاقتهم الشرائية » .

51) « هود سحاري ، واطلع شاري »

ومن المعلوم ان بكل سوق من الاسواق الكبيرة ، محتسبا مهمته الامر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومراقبة الموازين والمكاييل ، ومحاربة الغش والتدليس ولكـــن :

52) « كل واحد عينه ، هي ميزانه »

ولا يجوز لنا أن ننسى ان المقاييس تختلف باختلاف البيئات والعقول والنفوس والمراكز الاجتماعية والمستويات الحياتية والاعتبارات السلالية:

53) «لو كان تنقاد العقول، لو كان تبور السلوع»

54) « كل فولة مسوسة ، كيجيب لها الله فروج اعـــور »

واذا كان الكل يعرف ان الصفاء وحسن النية من مستلزمات التعارف والتعايش ، فالمشتري يحرص على أن يختار احسن البضائع صنفا واجملها منظرا واطيبها طعما ، غير مغتر « بتزويق العرض » أو رخص الثمن ، او تأخير في الاداء ، مطبقا المثلين التاليين :

55) « اقض وامض ، ورد فلوسك معك »

56) « اللي عجبه رخصه ، في الدار يرمي نصه »

او 57) « عند رخصه ، تخلي نصه »

والبائع كثيرا ما يكون سمحا ولين العريكة مع المشتري الذي يؤدي الثمن نقدا ، لانه يعرف .

58) « ان البائـع بالطلـق ساعـي ولا داعـــي (ساع) أو (داع) »

اي قلما يصل الدائن الى استيفاء ما على المدين بدون الوقوف امام المحاكم او على الاقل بدون « روحات وغدوات » الى منازل المدينين او تردد على الادارات والمصالح التي يعملون بها .

وغالبا ما نرى بالمتاجر والدكاكين اوراقا معلقة عليها هذه العبارات .

59) « الطلق ممنوع ، والعتب مرفوع ، والرزق على اللـه »

- ومهما يكن من امر فان « الدين » من مستتبعات المعاملات التجارية ، لان للدنيا « اقبالا وادبارا » .

60) « الى جات تجرها سبيبة ، والى مشات تقطع السلاسل »

61) « والسلطان بالتاج ويحتاج »

وقد انشئت الابناك وصناديق القرض والاستثمار ، لتيسير المعاملات وليمكن للمعسر ان ينتظر الميسرة ، ولكن المصارف ومؤسسات القرض لا تهتم بصغار التجار او الزبناء الذين لا يتوفرون على موارد ذات شأن ، ولذا نرى اصحاب المتاجر الوديعة لا يرون بأسا في البيع « بالطلق » ولا سيما لصغار الموظفين والمستخدمين الذين يسكنون بجوارهم لان المدينين الاوفياء يكونون بمثابة الشركاء :

62) « اد ورد ، في المال شريك »

واذا ثبت صدق البائع وصدق المشتري فلا يلبث الوئام ان يسود بين الاثنين ، فيطمئن البائع وتزدهر تجارته ، ويستريح بال الزبون فتنتظم حياته :

63) « الدنيا على المليح تولي »

64) « والانسان راس ما الانسان »

واذا ما اكرم الله الازواج بزوجات يحسن التصرف ويقدرن عواقب التهور والاسراف ، فان الاسر تعيش عيشة منزلية كريمة سعيدة ، « والطيب لا ينبت الا طيبـــا » .

65) « الخير مراة ، والشر مراة »

اجل فالثروة الحقيقية هي « الثروة البشرية » اي ما يتسم به افراد « الوحـدات الاجتماعيـة » من ضبط وحزم ومن حرص على مراعاة مقاييس التطور المعقولة في الميادين الروحية والاخلاقية وفي المجالات الاقتصادية سواء عند الانشاء او الانتاج او العرض أو الاستهـــلاك .

يقـــال :

66) « السوق لمن اصبح فيه ماشي لمن سمعبه»

وهذه حكمة ترمز الى ما يترتب عن التقليد الاعمى الذي تبدو خصائصه ، فى « الخضار » مثلا الذي يقصد باحمال من « البصلة » سوقا يبعث فيها البصلة غالية فى الاسبوع المنصرم ، او يستورد من بلاد بعيدة كتبا كثر الطلب عنها الخ . لان السمع « بالطلب » يكثر « العارضين » ويؤدي ذلك بطبيعة الحال ، الى انخفاض الاثمان ، بل الى الخسارة .

« **فالمقلد** تاجرا » كان او موظفا او محترفا قلما ينبغ ويصل الى ما يثلج الصدر فى « معترك الحياة » بيد ان الفرد المنتج ، صاحب المبادرات المفيدة المثمرة الذي يعرض بضاعة جديدة ، او يتكفل بخدمة طريفة ، لاشباع حاجات جديدة يتمتع بمكافأة « مزدوجة » : هي الربح المادي ، والشعور بالقيام بعمل عظيم .

الرباط : عبد القادر الخلادي

انس نفسك

قال ابليس : انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين .
وقال النمروذ : انا احيى واميت .
وقال فرعون : انا ربكم الاعلى .
وقال قارون : انما اوتيته على علم عندي .
وقال صاحب الجنتين : انا اكثر منك مالا واعز نفرا .

و ا لا

فاخرج منها فانك رجيم	عاقبة ابليس
فبهت الذي كفر	عاقبة النمروذ
فاخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم	عاقبة فرعون
فخسفنا به وبداره الارض	عاقبة قارون
فاصبح يقلب كفيه	عاقبة صاحب الجنة



حضارات الصحراء

للأستاذ محمد العربي الخطابي

لم تكن الصحراء فى تاريخنا ، فى تاريخ المغرب الكبير ، مجرد باب أو طريق تتصل منهما بالطرف الاخر من افريقيا ؛ بل ان الصحراء كانت امتدادا حضاريا لا يكتمل كياننا الجغرافي والتاريخي والبشري بدونه .

ومع ذلك ما اكثر ما نجهله عن هذه الصحراء ، وما اقل ما نعنى بدراسة احوالها وشؤونها ، الماضية منها والحاضرة !

فاذا كان بعض القدامى من مؤرخينا ورحالتنا وجغرافيينا قد اهتموا بالصحراء فدرسوها ودرسوا احوال سكانها ، أو جابوها فعرفوا مسالكها وشعابها ؛ فان المحدثين منا قد اهملوها اهمالا مزريا كأنها ليست جزءا يرتبط ببلادنا ارتباطا عضويا ، جغرافيا ، وتاريخيا ، وروحيا .

من المؤلفين والرحالين القدامى الذين اهتموا بالصحراء اهتماما يزيد او ينقص وحدثونا عنها وعن احوال سكانها : ابن حوقل ، والبكري ، والادريسي وابن خلدون ، والحسن الوزان ، وابن بطوطة ، وعبد الرحمن السعدي .

وجاء العصر الحديث فأبدى المؤرخون والجغرافيون والرحالون الغربيون اهتماما بالصحراء، فدرسوها من النواحي الجيولوجية والجغرافية والاثرية والانثروبولوجية والاقتصادية ، وحفروا فيها ونقبوا عن الآثار القديمة وعن النفط والمعادن ، واكتشفوا فيها ثروات لا تقدر بثمن .

وان بين ايدينا الان طائفة من المؤلفات والمراجع الهامة ، باللغات الاوربية ، عن الصحراء ، شرقيها وغربيها ، من هذه المؤلفات ما يتناول بالدرس عصور ما قبل التاريخ ويدرس المآثر والمخلفات المكتشفة في عدد من انحاء الصحراء ، ومنها ما يهتم بمسالكها وطرقها التي كانت تمر بها القوافل التجارية التي كانت تتجمع فى غدامس وسجلماسة وغيرهما متجهة نحو الجنوب متوغلة فى بلاد افريقيا السوداء . ومن هذه المؤلفات ما يبحث فى جغرافية الصحراء ويدرس سطح ارضها وباطنها ، ومنها ما يدرس احوال سكانها الاجتماعية والانثروبولوجية ، ومنها ما يهتم باقتصادياتها . ومعظم هذه المؤلفات مكتوب باللغات الانجليزية والفرنسية والاسبانية والايطالية والالمانية، ولست اعرف لاهمها ترجمة الى اللغة العربية .

وآخر هذه المؤلفات التى صدرت فى أوربا ، فيما اعلم ، كتاب « حضارات الصحراء » (*) اخرجته دار للنشر فى بلجيكا اعتادت ان تصدر نفائس المؤلفات في شتى العلوم والآداب والفنون .

يشتمل هذا الكتاب على قسمين كبيرين : عنوان القسم الاول : « على طريق العربات الفرسية من طرابلس الى النيجر » ، يهتم فيه المؤلف بالصحراء الشرقية فيتعرض لثرواتها الاثرية الهامة التي اكتشفت فى تاسيلي ونواحي فزان وغيرها ، ويتحدث عن الصحراء فى عصور القرطاجنيين والرومان والفتح الاسلامي ، ثم ينتقل الى الكلام عن قبائل ترغة (الطوارق) الملثمين ومواطن اقامتهم وترحالهم ، وعن

(*) Attilio Gaudio - Les Civilisations du Sahara - Marabou Université, Vervier (Belgique)

عاداتهم وطبائعهم ومجتمعهم . ويختتم هذا القسم بالحديث عن مشاريع استثمار الصحراء وتجهيزها والاستفادة من ثرواتها .

ويأتي القسم الثاني من الكتاب ، وهو بعنوان : « على طريق الذهب والملح ، من تافيلالت الى تمبكتو» ، فيعطينا فكرة عن الثروات الاثرية المكتشفة في الصحراء الغربية ، ثم ينتقل للحديث عن تافيلالت ومدينة سجلماسة وما كان لها من اهمية ثقافية واقتصادية قبل تخريبها ، ثم يتكلم عن الحركة التجارية وطرق القوافل بين تافيلالت وتمبكتو ، وعن وادي درعة وقبيلة ايت عطا وبلدتي تمكروت ونسرات وعن الجالية اليهودية في هذه الاصقاع ، ثم يتعرض للصحراء الغربية فيتحدث عن الرقيبات وعن بلدة سمارة ومؤسسها الشيخ ماء العينين ومقاومته الباسلة للاحتلال ، ثم ينتقل الى الكلام عن سكان موريطانيا ومجتمعهم وعاداتهم ، ويخصص فصلا للحديث عن تمبكتو واهميتها التجارية والعلمية قديما . ويختتم المؤلف هذا القسم بكلام عن مشاريع المواصلات عبر الصحراء وحالتها الراهنة .

والكتاب مزدان بالصور العديدة والخرائط . واسلوبه ممتع سلس يجمع بين طلاوة السرد الادبي ورصانة البحث التاريخي ، ولو ان الخيال يشتط احيانا بالمؤلف فيوقعه في بعض المآخذ والهفوات ، الا ان شغفه في ذلك ، كما يبدو ، ولعه الشديد بالصحراء التي جاب اطرافها وخبر شعابها وتعرف على سكانها فاستقى بذلك معلومات مباشرة فضلا عن المصادر المكتوبة التي رجع اليها واثبت قائمة منها في نهاية كتابه .

وسوف الخص فيما يلي بعضا من فصول هذا الكتاب للقراء بقدر ما يسمح به المجال :

على طريق العربات ، من طرابلس الى النيجر

1 - الثروة الاثرية :

كانت الوديان تتخلل سهول الصحراء وهضابها ، في زمن سحيق ، فتبعث في ارجائها الخضرة والحياة . وقد ابانت التنقيبات والحفريات عن وجود بقايا من ذلك الزمن السحيق نحو اسماك وضفدعيات ؛ كما شوهدت اشجار من فصائل البحر الابيض المتوسط مثل السرو والزيتون والفستق . وعثر العلماء على معالم ومخلفات دالة على ان حياة بشرية كانت قائمة على طول الوديان القديمة ، فوجدوا اسنة رماح من الصوان وشواقير من الحجر وحطام الخزف .

في سنة 1956 قام هنري لوط (H. Lhote) برحلة شاقة الى (تاسيلي) حيث اكتشفت منذ حوالي نصف قرن مغاور زينت جدرانها بصور محفورة وملونة ، فدرس هذه المواقع وجرد الوثائق والادوات . وتبين من فحص الصور الرائعة العديدة المنقوشة على الصخور المحجوبة عن اشعة الشمس والرياح الرملية ، ان الصحراء كانت في قديم الزمن مغطاة بالاعشاب الاستوائية آهلة بحيوانات استوائية متعددة ومختلفة ، كما تبين ان هذا المتحف الصخري الهائل يلخص تاريخ الصحراء قبيل بزوغ العصر الحجري الجديد .

وقد تمكن هنري لوط ، بعد فحص الفي صورة من الرسوم المحفورة في صخور تاسيلي ، من استخلاص مختلف مراحل هذه الحضارة الصحراوية وتطورها . فالمرحلة الاولى تبدأ مع نهاية العصر الحجري القديم (6 و 7 آلاف سنة قبل ميلاد المسيح) ، وهي **مرحلة الصيادين** ، وتمثل الصور التي تنتمي اليها اشخاصا قصار القامة ذوي راس مستدير ، وحيوانات . ومن فحص هذه الصور استنتج ان السكان في ذلك الطور كانوا ذوي بشرة سوداء . وهناك صور من حجم كبير تمثل بعض « الالهة » تنتمي الى مرحلة انتقالية ، ويظهر عليها التأثير المصري . وتمتاز هذه الصور بتعدد الوانها ، وهو امر يندر مثيله في الصور الصخرية التي تنتمي الى عصر ما قبل التاريخ التي لم يستعمل فيها من الالوان غير الاحمر (المغرة) والابيض .

وتقع المرحلة الثانية في العصر الحجري الجديد (حوالي 4000 سنة) وفيها اغار على الوديان اقوام جدد يختلفون عن السكان الذين استوطنوا الصحراء منذ آلاف السنين . وقد جاء هؤلاء الغزاة الجدد وهم يسوقون قطعانا هائلة من الابقار . وبمجيئهم امتلأت مغاور تاسيلي بصور اشخاص وحيوانات جديدة حفرت على صخورها . وتعرف هذه المرحلة **بمرحلة الرعاة** . وربما جاء هؤلاء المغيرون الجدد من الشرق ، وربما كانت لهم صلة بالحضارة المصرية . اما الصور التي حفروها على الصخور فتتسم بالحركة والواقعية ، وتدل على ان الذين نقشوها كان لهم نصيب من حسن الملاحظة ؛ فالالوان متعددة رائعة الانسجام ، فيها الاخضر والبنفسجي والازرق . وقد لقيت سوائمهم في هذا الاقليم عشبا وفيرا ، وانهارا تتدفق ماء ، وجوا رطبا .

وتبدأ المرحلة الثالثة حوالي سنة 1200 ق. م. في عصر التاريخ . وهي **مرحلة الحصان** حيث يشاهد على الجدران الصخرية صورة تمثل محاربين يمتطون عربات تجرها الخيول . ويعتقد بان السكان الليبيين ـ الذين ظلوا الى ذلك العهد قاطنين في شمال الصحراء ـ قاموا بحركة توسعية . وقد مكنهم انفرادهم باستخدام العربات من مد سلطانهم الى ضفاف النيجر . وربما ينحدر (الطوارق) الحاليون من هؤلاء الفرميين (Garamantes) الذين وصف لنا هيرودوت عاداتهم .

اما **مرحلة الجمل** فقد بدات قبل بضعة عقود من ميلاد المسيح ، حينما طرات على الصحراء تغيرات لم تعد معها صالحة للسكنى بسبب ما اصابها من جدب .

لقد اكتشفت في اماكن متعددة جنوب طرابلس صور محفورة على الصخور تخلد حيوانات الصحراء قبل تحولها الى منطقة قاحلة ؛ ومن هذه الحيوانات : الفيل ، والنعام ، والبقر ، والغنم ، والتماسيح ، والغزلان ، والاسود ، وعجول الماء . وبفضل هذه الصور وبما عثر عليه من رميم العظام امكن التعرف على البيئة البشرية والحيوانية والنباتية لذلك العصر.

ومـا كان لتلك الحيوانات ، النباتية منها والمفترسة ، ان تعيش الا في ارض غزيرة الماء وفيرة العشب . ولقد كانت بالصحراء الوسطى سهول ندية ومخضرة ، ووديان آهلة بالاشجار التي تقتات منها الزرافات والفيلة والنعام فضلا عن اقوام من الرعاة والصيادين .

وقد اضطرت تلك الحيوانات ، بسبب ما طرا من جفاف وارتفاع درجة الحرارة ، الى مغادرة شمال افريقيا كما غادرت اوربا من قبل ، ونزحت الى غابات افريقيا الوسطى وسهوبها حيث بقيت الى ايامنا هذه. ولم تصبح اسباب العيش شاقة عسيرة في الصحراء الا في العصر الحجري الجديد حيث لم يبق فيها سوى قلة من الناس يقيمون حيث يوجد قليل من ماء . واننا لندين لهؤلاء القوم الصحراويين من العصر الحجري الجديد الذين صاروا رحلا يبحثون عن الماء والمرعى ، اننا لندين لهم بتلك العصور المحفورة على الصخور ، وهي تمثل المرحلة الثانية التي امتدت الى عصر الجمل.

هذا وقد اكتشفت في جبل « عوينات » ، على بعد نحو الف كيلومتر شرقي فزان ، صور صخرية اخرى نقلها بدقة العالم الطبيعي الايطالي (الكونت دي كابورياكو (de Caporiacco ودرسها ونشرها فيما بعد المؤرخ (باولو كرازيوزي (P. Graziosi وتمثل هذه المحفورات حياة سكان ما قبل التاريخ ، اسلاف البربر، الذين يحتمل انهم كانوا من النوبيين . ويعتقد بعض الباحثين ان هذه الرسوم المنقوشة يرجع عهدها الى نحو 7500 ـ 5000 ق. م. وتظهر فيها اسلحة ، وحيوانات اليفة ، وادوات مختلفة وملابس .

وقد اعار (كرازيوزي) ، اثناء دراسة لحضارة فزان القديمة ، اهتماما كبيرا لبعض الرسوم التي تصور عربات تجرها خيول راكضة ويركبها محاربون مسلحون بالرماح والاقواس والتروس ، وهي صور لا يوجد لها شبيه في مكان آخر بالصحراء .

2 ـ الصحراء في عصر التايخ :

اول المؤلفات المكتوبة التي تتعرض لسكان الصحراء عند الانتقال لعصر التاريخ هي ما خلفه لنا هيرودوت (القرن الخامس ق. م.) وديودور الصقلي (القرن الاول الميلادي) ، اللذان حدثانا عن حياة هؤلاء الرحل الليبيين البربر الذين كانوا يجوبون الصحراء من النيل الى الاطلس .

لقد بدات الصحراء (حوالي سنة 1000 ق. م.) تتحول الى ما آلت اليه من جفاف . واذا كان اليونانيون والقرطاجنيون والرومان قد بذلوا جهودا في سبيل استكشاف هذه الاصقاع ، فان معرفتنا عنها ظلت مع ذلك ضئيلة ، كما علقت بوصفها كثير من الاساطير . لقد خلف لنا هيرودوت معلومات دقيقة عن الاقوام الليبيين ، وحدثنا عن الطرق الذاهبة من (غرمة) الى الاطلس ، كما حدثنا عن بيروت مبنية بآجر من ملح ، وذكر هؤلاء القوم الرحل المجاورين للبحر الابيض المتوسط ، ووصف سكان ليبيا الآهلة بالحيوانات الموحشة . وهنا توقفت معارف هيرودوت حيث قال : « انني أجهل ما وراء ذلك ، الا انه يقال ان تلك الارض يعمرها قوم من العمالقة والاقزام وعجائب المخلوقات . وليس في مقدور احد ان يذهب الى تلك الارض ما دامت الحرارة سائدة فيها » .

وقد كانت قرطاجة اول دولة من دول البحر الابيض المتوسط عرفت ان الصحراء ليست بلاد الشمس المحرقة فقط ، كما عرفت ان سكانها لم يكونوا من الهمج ، لذلك فانها لم تسع الى اخضاعهم لسلطانها، بل انها عرفت كيف تجعل منهم شركاءها في مكاسب تجارة منظمة عبر الصحراء . وبذلك كانت قوافل

ليبية تجوب بانتظام ثلاثة آلاف كيلومتر في الصحراء فتجلب من افريقيا السوداء الى شمال افريقيا بضائع تقوم على العاج والتبر والزمرد والياقوت وريش النعام، كما تتألف من الرقيق الاسود . وكانت واحة غدامس (على بعد 600 كم جنوب طرابلس) أكبر مراكز هذه التجارة الصحراوية . وقد بقيت القوافل التجارية تسلك ، طوال نحو الف عام ، نفس السبل بين سواحل طرابلس واقاليم وسط افريقيا وغربها ؛ وهي السبل التي تتوفر فيها منابع الماء . وما تزال هذه الطرق في وقتنا الحاضر هي السبل الرئيسية الذاهبة من الساحل الى الداخل . ومن المرجح ان يكون الرومان قد جابوا هذه الفجاج أثناء بعوثهم العسكرية ، مع انهم كانوا يجهلون الجمل . وكانت الغاية من هذه البعوث تأمين المواقع الرومانية في افريقيا التي كانت تمتد الى نوميديا وموريطانيا .

وفي سنة 665 م توغل العرب في الصحراء الوسطى بقيادة عقبة بن نافع ؛ وقد اتاح مجيء العرب ازدهار الروابط الصحراوية وامكن للمغرب الكبير ان يكتب أروع الصفحات عن صلاته بافريقيا السوداء .

على طريق الذهب والملح ، من تافيلالت الى تمبكتو

1 **الثروة الاثرية** . — كرس جان مالوم (J. Malhomme) — وكان يشتغل بالتدريس في معهد سيدي محمد بمراكش — عدة سنوات قضاها مستكشفا باحثا فدرس خلالها نحو 3500 صورة وجدت مرسومة ومحفورة على الصخور في اكيمدن وجبل ياغور وتيزي نترلست . وتمثل هذه الصور اسلحة وخناجر من البرونز ، واشخاصا وحيوانات ، وعربات ذات عجلتين تشبه العجلات التي اكتشفت في تاسيلي ، كما تمثل رموزا يبدو انها ذات دلالة تعبدية .

واذا كنا نفتقد اية وثيقة اركيولوجية عن عصر البرونز في المغرب ، فان اللغز الذي يظل قائما هو من أين كان هؤلاء القوم الذين حفروا هذه الصور يأتون بالبرنز ، واين كانوا يخدمونه ؟ ان الحفريات الاثرية لم تمدنا لحد الان باية اداة من ادوات البرونز التي تظهر في الصور الصخرية ، كما لم يعثر على اثر لمعمل او منجم من ذلك العصر السحيق .

لقد برهنت بحوث (جان مالوم) على ان الاطلس الكبير لم يكن سدا منيعا بين الحضارات الصحراوية وحضارات السهول الشمالية في عصر ما قبل التاريخ .

هذا وقد اكتشف كل من (أوديت دي بوينكودو وماريون سينوس (O. de Puigaudeau - M. Sinons) اربع محطات صخرية اخرى خلال رحلتين قاما بهما سنة 1937 وسنة 1950 ؛ وهذه المحطات هي : الهويرة ، وسيدي بولنوار ، وعسا ، وفم الحصن . وتضم هذه الاخيرة اهم مجموعات الصور المكتشفة في هذا الاقليم واكثرها تنوعا . ويبلغ مجموعها 114 صورة . وقد عثر في هذا المكان على عدد من بقايا عصر ما قبل التاريخ .

ان صور العربات المنقوشة على الصخور تنطوي على اهمية خاصة حيث انها تطلعنا على حدث تاريخي دقيق، وهو قدم العلاقات بين بلاد البربر وبلاد افريقيا السوداء . ولقد كانت هذه الرسوم بمثابة علامات على الطريق يهتدي بها المسافرون وتسترشد القوافل عند رجوعها .

2 — تافيلالت ، ملتقى قوافل الصحراء المغربية

تافيلالت أرض شاسعة خصبة في اطراف الصحراء تستهوي النفس بتنوع سكانها وبذكرياتها التاريخية والاسطورية . وهذا الاقليم الذي تتخلله البساتين الفيحاء والقصور ذات الشرفات ، والذي يشق أرضه وادي زيز ، بعد باب الصحراء ؛ وقد بقي طوال قرون محط التقاء القوافل والمبادلات عبر الصحراء ، حيث كانت الاتصالات تجري على نطاق واسع ، منذ فجر العصور الوسطى ، بين المغرب وافريقيا السوداء . وكانت تربط بين المغرب وضفاف السنغال والنيجر طريقان هامتان تمر احداهما في المنطقة الساحلية بين تيزنيت وكوليمين ، بينما تمر الاخرى في تافيلالت .

ان السوق الاخاذة العامرة التي تعقد في ساحة (ارفود) الكبرى ليست الا صورة شاحبة لما كانت عليه الفنادق ومرابط البعير قديما .

تأسست مدينة سجلماسة سنة 140 من الهجرة (755 م .) ، وسرعان ما اصبحت ملتقى طرق تجارية كبرى تنطلق من مصر وتمتد على الحافة الشمالية من بلاد البربر حتى تصل الى المغرب ، وهي طريق ارتادها تجار كانوا يأتون من العراق وفارس .

كان الطابع الشرقي غالبا على سجلماسة . وقد ذكر المؤلفون القدامى التشابه الموجود بين عمائرها وعمائر اليمن .

تأسست سجلماسة قبل فاس فكانت اولى المدن الاسلامية فى شمال افريقيا بعد القيروان التي تأسست سنة 670 م . وقد اصبحت سجلماسة حاضرة صحراء المغرب وعرفت نشاطا سياسيا واقتصاديا ودينيا كبيرا ، وظلت طوال ثلاثة قرون مملكة مستقلة شاسعة الاطراف تمتد من الاطلس الى وادي درعة . استقر بها تجار توارد وا عليها من امهات مدن المشرق واقاموا بها متاجرهم ووكلاءهم . ولم يكن ازدهارها الثقافي فيما بين القرنين الثامن والحادي عشر بأقل من ازدهارها التجاري .

وقد اشتهر من قصور سجلماسة (قراها المحصنة) البالغ عددها ثلاثمائة : قصر تانيجنت ، وكان به الف بيت ؛ وقصر تاتو حسنت الذي كان يسكنه التجار الاجانب والصناع واليهود ؛ وقصر مامون . وكان لكل من هذه القصور الثلاثة رئيس واشياع ، وكثيرا ما كانت تنشب بينهم الخلافات فيتقاتلون ويؤدى بينهم الحال الى كسر قنوات الرى وقطع اشجار النخيل . وكان كل رئيس يسك نقوده الذهبية والفضية . وبعد استيلاء المرابطين عليها سنة 447 هـ (1055 م) كانت تعمل بها دار لضرب العملة .

وقد بلغ من رخاء تافيلالت انها كانت تدفع لبيت مال الدولة الفاطمية فى القيروان (وكانت سجلماسة مقاطعة لها) مبلغ 400.000 دينار سنويا ، اي نصف ما كان يجبى من افريقيا الشمالية كلها .

وحيث كانت سجلماسة واقعة فى سهل خصيب غزير المياه ، فقد كانت تزرع فى حقولها الكروم والحبوب كما كان يزرع على طول وادي زيز القطن والكامون والكرويا. والحناء . ومنها كانت تصدر هذه المحاصيل الى جميع انحاء افريقيا الشمالية .

لقد كان الملح ، حتى القرن الثاني عشر ، بضاعة التصدير الاساسية فى تجارة الصحراء ، يحمل على ظهور الجمال ويباع فى غانة بمثل وزنه ذهبا ، وربما بيع بضعف وزنه . وبعد الملح اصبح التمر من الصادرات الاساسية ، يستورد فى مقابله من السودان الرقيق والتبر والعاج والابنوس والجلود .

وكان والي سجلماسة يبذل قصارى الجهد لضمان سلامة التجارةعبر الصحراء بما ينفق مسالكها من رجال الشرطة . وتأسست فى ذلك العهد شركات تجارية حقيقية اشهرها شركة الاخوان المقري التى احتلت مكانة هامة فى عالم التجارة بما كانت تقوم به من اعمال البيع والشراء وتزويد التجار بمعلومات عن مختلف الاسواق والبضائع ، ولما قامت به من حفر الآبار وتامين سلامة القوافل فى المسالك الصحراوية .

وفى سنة 1962 اغار الاعراب الرحل على سجلماسة فافسدوا البساتين وحطموا قنوات السقي ودمروا البيوت والاسوار . وجاء مولاي اسماعيل العلوي فحاول ترميم ما تخرب منها واعاد بناء قصبتها ، وبدات الحياة تدب فيها لولا ان اغار عليها من جديد اهالي (ايت عطا) سنة 1818 ، فدمروها ونهبوها فاصبحت منذ ذلك الحين اثرا بعد عين .

3ـ الصحراء الغربية بين امس واليوم

بزغ عصر التاريخ فى الصحراء الغربية مع قدوم الاقوام الرحل الاوائل الذين انحدروا بجمالهم من صحراء ليبيا ومن شمال افريقيا . وذلك فى العهد الروماني الذي دفعت فيه اعداد من البربر داخل الصحراء حيث اختاروا حياة الترحال والمغامرة . وفى هذا العصر نفسه ازدهرت تجارة القوافل واتسعت نتيجة استخدام الجمل المستوردة من بلاد ما بين النهرين وفارس .

لقد اغارت قبائل زناتة وصنهاجة على الصحراء الغربية فى القرن الثالث الميلادي ، وما زالوا يتوغلون فيها حتى وصلوا الى السنغال والسودان . وكانوا كلما توغلوا عملوا على حفر الآبار وغرس النخيل ، واقامة المضارب فى الواحات .

وحينما فتح العرب هذه البلاد ، وكانوا على جانب من الرقة والثقافة ، بدا الاحتكاك بينهم وبين البربر الرعاة البدائيين ، فكان ذلك بداية وحدة روحية وسياسية ، وسلالية الى حد ما . وقد نشأ عن هذا الاختلاط ، بمرور الزمن ، هؤلاء القوم الصحراويون الذين حافظوا على البنيان الاجتماعي والعادات والاعراف البربرية ، واخذوا عن العرب اللغة والكتابة والدين والثقافة .

وعند قيام دولة المرابطين اللمتونيين عرفت الصحراء الغربية حركة اصلاح ديني عميق . وتحالفت القبائل العربية البربرية فى جنوب المغرب ، وتالف هذا التحالف من لمتونة وجزولة ومعقل وبني هلال وبني سليم وبني حسان . الا ان عقد هذا التحالف قد انفرط فى القرن الحادي عشر عند سقوط دولة المرابطين ، فتشتتت هذه القبائل فى انحاء الصحراء ،

ومنها انحدرت عشائر الرحل الذين يجوبون الصحراء الغربية في عصرنا الحاضر (تكنة ، والرقيبات ، والمور) .

اننا ونحن ندرس التاريخ الاستعماري بالصحراء الغربية في الخمسين سنة الاخيرة لنفاجأ حينما نتبين ان شتى محاولات التوغل والتهدئة التي بذلتها الجيوش الاوربية لم تتمكن ابدا من اخضاع المحاربين من قبائل الرقيبات اخضاعا تاما ، حتى بعد ان القى الطوارق اسلحتهم . ومن اسباب ذلك قيام الشيخ ماء العينين ببعث همم سكان الصحراء الغربية وايقاظ عزائمهم . وكان هذا الشيخ زعيما روحيا وسياسيا كبيرا دعا قومه الى الجهاد ضد المغيرين الاجانب ، واحدث في نفوس سكان الصحراء اثرا عميقا ، فكانت له بذلك هيمنة روحية وسياسية تامة .

حينما حل الشيخ ماء العينين بزمور سنة 1899 كانت تراوده امنية طالما فكر في تحقيقها ، ذلك انه كان يحلم ببناء مدينة جديدة في الصحراء الغربية تكون بمثابة محطة للقوافل وسوق صحراوية كبرى في ذات الوقت . وقد اطلع سلطان المغرب على مشروعه هذا فتحمس له ووعد الشيخ بامداده بكل ما يحتاج اليه لانجاز هذا العمل . وهكذا انفذ له السلطان سفنا نقلت ادوات البناء من اكادير الى الساقية الحمراء ، واستقدم الشيخ المهندسين والصناع والبنائين من فاس وتطوان وطنجة ، وجلب الزليج من الصويرة ، وعمل على شق طريق من تفروت الى المكان الذي اختاره لبناء المدينة . وسرعان ما بدات اعمال البناء وحفر الآبار ومد القنوات وغرس النخيل . واطلق على هذه المدينة التي انبثقت من الرمال اسم « سمارة » ، وكان بقصبتها 18 بناية من طراز عربي مغربي يقوم في وسطها مسكن الشيخ ماء العينين ، ويحيط بها سور ذو خمسة ابواب . وكان بمدينة سمارة اسواق وحي تجاري ومخازن للحبوب وخزان كبير لحفظ الماء . واسس بها الشيخ معهدا علميا كان يشرف عليه بنفسه، وشيد للمريدين والطلبة مساكن اوقفها عليهم . وكان بالمعهد العلمي مخطوطات ثمينة ضاعت مع الاسف . وفي سنة 1913 قام الكولونيل موري بحملة انتقامية ضد مدينة سمارة بسبب الهزيمة التي الحقها به ثوار الرقيبات في قلب الصحراء . وفي اثناء الحملة احرق الكولونيل موري هذه المدينة الوليدة ، فلم يبق منها سوى الانقاض . ولم يشهد الشيخ ماء العينين هذه النهاية الحزينة التي ادركت مدينته حيث كان قد تمكن من الالتجاء بتزنيت . وقد خلفه بعد وفاته ابنه الاغضف الذي بقي نحوا من ثلاثين سنة ممثلا رسميا لخليفة تطوان في الصحراء المغربية التي كانت تحت الحماية الاسبانية . ولم ينس الاغضف عهد والده وما قدمه له السلطان مولاي الحسن من عون وما اختصه به من حسن وفادة واكرام في ايام محنته الاخيرة (*)، لذلك وفد الاغضف في جماعة من اتباعه الى الرباط لمبايعة ملك المغرب محمد الخامس (طيب الله ثراه) على الولاء والطاعة .

4 — تمبكتـــــو

تظهر على مدينة تمبكتو مسحة مغربية اكثر مما تظهر على اية مدينة اخرى من مدن جنوب الصحراء ، وذلك من حيث اهلها وطبيعتها .

اسس الطوارق هذه المدينة سنة 1100 م . ومنذ ذلك الحين وهم يعتبرونها مدينتهم . وقد اشتهرت تمبكتو بجامعتها العلمية وبما عرفته من ازدهار تجاري حتى سموها : « ملكة الصحراء » و « مفتاح الصحراء » و « جوهرة السودان » .

وحيث كان المغرب اقرب الاقطار الى السودان فقد كانت بينه وبين تمبكتو حركة تجارية نشيطة ، تنطلق القوافل اليها من تندوف والصويرة ومراكش وفاس وتافيلالت . اما الجزائر ، التي تأتي في الدرجة الثانية من حيث المبادلات التجارية مع تمبكتو ، فان اتصالاتها بهذه المدينة لم تكن تقع راسا بل بواسطة توات . كما كانت التجارة بين طرابلس وتونس ، من جهة، وتمبكتو، من جهة اخرى ، تقع بواسطة غدامس.

واذا كانت تمبكتو قد فقدت شهرتها العلمية فقد خرجت من قبل علماء وفقهاء وادباء ذاع صيتهم من امثال احمد بابا (القرن السادس عشر) وعبد الرحمن

(*) توفي السلطان مولاي الحسن سنة 1894 . اما الشيخ ماء العينين فقد حل بفاس سنة 1906 ، وكان قد بدا جهاده حوالي سنة 1895 — اي في عهد المولى عبد العزيز . وفي سنة 1909 انتقل الشيخ من عين سمارة الى تيزنيت . وتوفي سنة 1910 — على عهد المولى عبد الحفيظ ، وخلفه ابنه الشيخ محمد الهبة الذي تابع النضال ضد الاحتلال الاجنبي في جنوب المغرب . ويظهر ان المؤلف قد اختلط عليه الامر كما وقع له في بعض فصول الكتاب الاخرى.

السعدي ، مؤلف كتاب السودان (القرن السابع عشر) وبابا شير في (الربع الاول من القرن العشرين) .

وقد اسهم التجار واصحاب القوافل من العرب والبربر اسهاما كبيرا وموصولا في سبيل اثراء الحضارة الزنجية بافريقيا . وبواسطة العرب تلقى غرب افريقيا رفدا خصبا من ثقافة البحر الابيض المتوسط وطرق معاش سكانه . واصبحت تمبكتو ، بفضل المبادلات التجارية عبر الصحراء ، عاصمة الساحل الاقتصادية وحاضرة العرفان منذ القرن الرابع عشر ، كما غدت مركزا دينيا وعلميا وادبيا للاقاليم المحيطة بضفاف النيجر . وقد قيل : « ان الملح ياتي من الشمال والذهب من الجنوب والفضة من ارض البيض ، غير ان كلام الله والعلوم والروايات والحكايات الجميلة لا توجد الا في تمبكتو » .

لقد كانت هذه المدينة من اكبر المراكز العلمية الاسلامية . وكانت جامعتها اختا صغرى لجامعات القاهرة وقرطبة وفاس ودمشق . ذلك ما تشهد به مخطوطاتها القديمة التي تمكننا في نفس الوقت من التعرف على ماضيها واستقصاء تفاصيله .

توارد على تمبكتو علماء وادباء من الاندلس للالتجاء بها فحملوا اليها ثقافة غرناطة وقرطبة ، ونقلت اليها القوافل الاتية من الشمال حضارة فاس ومراكش وتونس ، وعرفت عن طريق الحج ما انتهت اليه المعارف في القاهرة . وبذلك استطاعت تمبكتو ان تستفيد من فتوحات العقل العربي ، وان تحصل على الجديد من المكاسب الثقافية ، وان تؤلف خزانة تعد من اكمل خزانات الكتب . وفضلا عن ذلك كانت تمبكتو مختصة ببيع المخطوطات وشرائها ، حتى لقد قال الحسن الوزان ، المعروف في المغرب بليون الافريقي : « ان الكتب تباع هناك بكثرة وتدر من الارباح مالا تدره اية تجارة اخرى » .

* * *

الان وقد اتينا على نهاية هذه الخلاصة التي اقتبسناها من كتاب « حضارات الصحراء » الذي يعد من الكتب الجديرة بنقلها الى اللغة العربية ، تطالعنا اسئلة كثيرة من الصنف الذي يدور بخلدنا كلما كان الموضوع متصلا من قريب او من بعيد بالمغرب العربي الكبير ، ماضيا وحاضرا ومستقبلا .

هل من سبيل الى الخروج من هذا الغموض المحير الذي يحيط باصل سكان هذه البلاد الذين اطلق عليهم اعتباطا اسم « البربر » ، والذين قسمهم المؤلفون العرب القدامى الى بتر وبرانس ؛ ويشكك المؤلفون المحدثون في هذا التقسيم وما يتفرع عنه ، كما يشككون في حقيقة الجهة التي انطلقوا منها الى هذه البلاد الافريقية ؟ ما مدى هذا الاختلاط الذي حدث بين كل الوافدين على هذه البلاد منذ عصور ما قبل التاريخ الى وقت انتشار الاسلام ، هذا الاختلاط الذي تبدو معالمه واضحة لدى الدارسين المحدثين من علماء الانثروبولوجيا في السحن والالوان والصفات ؟

ما هي الحلقة الضائعة في تاريخ المغرب منذ ان تعرض للتوسع الاوربي وللتجزئة التي كانت تتفق مع اهداف هذا التوسع وراحة القائمين عليه ؟ وبمعنى اوضح اين تبدا اطراف هذا المغرب واين تنتهي ، وهل نحكم في « تحديد » هذه الاطراف التاريخ الحضاري ام التاريخ السياسي ام العوامل الجغرافية الطبيعية منها والبشرية ؟

وماذا عن هذه الطرق والمسالك الصحراوية التي شهدت احقابا طويلة حركة تجارية مزدهرة شملت البلاد الواقعة جنوب الصحراء وشمالها وفي حوض البحر الابيض المتوسط ، وماذا عن مستقبل هذه الطرق وعن المشاريع الحديثة الرامية الى ربط المواصلات عبر الصحراء . وما هي اهميتها الاقتصادية والتجارية والسياسية ؟

اسئلة كثيرة تتردد وتنتظر الجواب الفاصل الحاسم ، وتاريخ ينتظر تقويمه وانصافه وتحقيق معالمه ودراسته دراسة شاملة ، علمية وموضوعية .

الرباط : محمد العربي الخطابي



الكتاب بين النشر والاستيراد

للأستاذ : مبارك ربيع

لا يمكن ان يتناول احد مشكلة الادب او الثقافة دون ان يعرج على مشكلة النشر والطبع . وقد تتداخل مشكلتا النشر والطبع فيتحدث عن مشكلة النشر وحدها باعتبار ان الطبع متضمن فيما ينشر. وادبنا في المغرب بالخصوص يعاني من ازمة النشر عناء كبيرا ، اذ ما من شك في ان وسائل النشر لو توفرت ؛ لامكن ان تظهر نماذج عدة الى الاسواق بامكانها ان تعطي نظرة على حياتنا الادبية وطريقتنا في التفكير ؛ وذلك من دون شك ، من شانه ان يقرب بين الاطراف التي تتناول ادبنا وثقافتنا بالدرس حتى لايذهب البعض الى حد الادعاء بأن هذا الادب غير موجود ، او ليس له كيان . ان مشكلة النشر تكاد تعم البلاد التي هي في طريق النمو . نعم ، ولكن هناك استثناءات عدة ، ففي بلاد الشرق العربي ، هناك اكثر من قطر انحلت عنده مشكلة النشر ، بل ان هناك من الاقطار العربية ، ما يشكو او يمكن ان يشكو من مشكلة تضخم النشر ؛ وقد راينا في كثير من الحالات ان لبنان الشقيق ينشر الترجمة العربية لبعض الكتب قبل ان تظهر مطبوعة في نصها الاصلي ، وبلغتها القومية ، وهذا اقصى ما يمكن ان يبلغه نشاط دور النشر . وبالطبع لكل من تضخم النشر او وفرته، كما لقلته وندرته خطورة . فكما أن الاولى قد تذهب بالمستوى الرفيع للادب ، وقد تكون على حساب الثقافة العالية ، فان الثانية ايضا تؤدي الى قبر العبقريات الادبية ، واعاقة بوادر الابداع من الظهور. ومع ذلك فلربما كان المرء اميل الى ان يختار الحالة الاولى ، حالة وفرة الانتاج والنشر بالرغم مما فيها من مخاطر ، ذلك اننا لن نعدم في خضم الوفرة والكثرة ، ان نجد بعض المبدعين المتفردين . ولعل من المفيد ان تطلع على الطريقة التي يعالج بها رجال الفكر في الامم المتقدمة مشكلة النشر ، وهذا ما اوضحه « بيير دكارج » في مقال أخير له (1) .

لقد تناول الكاتب مشكلة النشر والانتاج في فرنسا من جميع جوانبها والقى نظرة على قيمة كثير من الانتاج الادبي والثقافي في هذا البلد ، بل لقد صنف كثيرا من انواع هذا الانتاج ، انطلاقا من تصنيف الناشرين له . ولعل من الغريب ان يكشف تصنيف الناشرين في فرنسا على كثير من المشابهات بينه وبين انواع الناشرين في البلاد المتخلفة وخاصة ما اتصل من ذلك بالروح التجارية التي تسود الكثير من رجال النشر وتوجه اعمالهم . وقد ميز كاتب المقال بين انواع ثلاثة من الناشرين . فهناك « الذين يصدرون المجموعات المتسلسلة » وهناك طائفة ثانية لاتوجهها الثقافة ، ولا التذوق الادبي وهؤلاء « عملهم تجاري محض » وطائفة ثالثة هي التي تمثلها بعض « دور للنشر التي تشارك في الانتاج ، كما تشارك وتشترك في النشر » . وما من شك في ان لكل من هذه الطوائف الثلاث ، بعض المحاسن وبعض المساويء ، ولكن ذلك على درجات . فمن هذه الطوائف مثلا الطائفة الثانية ، التي تمارس عملية النشر ، دون وعي لدورها في خدمة الثقافة والادب ،

(1 Pierre Descargues : « Le Dynamisme de l'Edition » - Les Lettres Françaises, n° 1211, du 6-12 décembre 1967

والتي لا يقودها اي مثال تقارن بواسطته وتختار حسب مقاييسه . هذه الطائفة تعامل الآثار الادبية والثقافية كما تعامل اية بضاعة مادية ، والرؤية التي تقرها هي رؤية التاجر الى الاسواق . فالتاجر لايمكنه أن يستورد او يدفع ماله الا فيما يعلم سابقا انه قابل للرواج . وهنا يكمن الخطر لان الناشر من هذا النوع ، لاينظر الى دوره كمرب بامكانه ان يوجه الجمهور ، الى ما ينفع والى ما يرقي ذوقه . اذ من الواضح ان الاسواق الثقافية والادبية كاية اسواق اخرى ، يمكن للزبائن فيها ان يقعوا ضحية الرديء المبتذل اذا لم تكن هناك منافسة ، واذا لم يوجد الراقي الجيد بجانب الهزيل الغث . ويكفي أن يمر المرء بنظرة على قوائم المبيعات والمعروضات من الكتب ليدرك المستوى الذي تتدهور اليه المطالعات الثقافية والادبية عندما يغمر الغث سوقها .

على ان المشكلة لاتنحصر في هذا الجانب فحسب ، اي ان نتائج النظرة التجارية المحضة الى عملية النشر لاتقف عند حد يجعل المستهلك ضحية تقدير عقلي ، ويجعل الناشر يحقق الارباح الطائلة فحسب ، بل ان لهذه النظرة ، جانبا اخطر هو نتيجة حتمية لكل ما تقدم ، وذلك من جانب المؤلفين . فالمؤلف امام واقعة مرة كهذه ، مضطر اما الى ان ينزل بمستواه وينحرف عن اسلوبه وطريقته في العرض ، واما ان يعاني الاعراض والتجاهل والتغافل ، وما يترتب عن ذلك من فل العزيمة وتثبيطها .

ولعلنا نتساءل هنا هل يعتقد « الناشر ـ التاجر » انه ذكي وانه محافظ على تجارته ، عندما يصرف النظر الا عن الغث والسهل ، الميسر للاستهلاك ؟ انه مخطيء بدون شك ان ظن ذلك . لان الاولى بالمهارة التجارية ان تتبنى بعد النظر ، ان يعلم صاحبها ان السوق ان كانت اليوم لبضاعة معينة ، فسينقلب الامر غدا ، مع ارتفاع المستوى الثقافي وتحسنه ، او على الاقل مع انتشار التعليم ، وتوافر القراء . فالاولى اذن للناشر ان يكتسب السوق قبل قيامها ، بل ان يعد زبائن المستقبل سواء من القراء او من المؤلفين . على كل ، ومهما تكن الجوانب التي يمكن ان ينظر منها الى هذا المشكل ، فان هذه الطائفة من الناشرين مدانة من الوجهة الثقافية والوطنية وهذا ما اثبته بيير دكارج في هذه العبارة التي اردف بها تصنيفه للناشرين في فرنسا « ... نحن اذ نهنيء الطائفة الاولى ، ندين الطائفة الثانية ، ونصافح الطائفة الاخيرة من حيث المبدا »

والطائفة الاولى التي يهنؤها الكاتب ، هي التي تختص باصدار المجموعات المسلسلة سواء كان ذلك في مجال الدراسات العلمية او الادبية ، او في مجال التراجم او التعريف الجغرافي او مجال الروايات والقصص ... الخ . والذي بالطبع يدعو الى تهنئة هذه الطائفة هو انها بدون شك لكي تختص بنشر مجموعة معينة لابد ان تكون قد وضعت مخططا ذاتيا، وفهمت دورها ، وحددت اهدافها . وبالطبع هذا لايمنع من ان تكون هذه المباديء نفسها مبنية على اختيارات رديئة في بعض الاحيان ، ولكن هذا ان حدث ـ وقلما يحدث ـ فهو خير من التذبذب والاضطراب دون هدف ، والجري وراء اسعار السوق . ان الدور التي تنشر المجموعات ، انما هي في الحقيقة تخلق اسواقا خاصة بها ، وهذا ما يدفعها في غالب الاحيان الى التوفق في الاختيار والى الاحتفاظ بالزبائن ، وكسب المزيد منهم . وهنا نلاقي بالطبع تلك النقطة التي صادفناها سابقا ، والتي راينا فيها ان المهارة التجارية ، تتطلب من الناشر ، ان يكسب السوق قبل قيامها ، اي ان يخلق سوقه الخاصة به ، وهنا يأمن المزاحمة واخطارها .

ولندرك جيدا اهمية هذه الطائفة التي تختص بنشر المجموعات المسلسلة ، يكفي أن نستعرض بعض ما ظهر منها في العالم العربي ، على قلة ما عنده في هذا الباب ، اذا قيس بالدول الراقية كفرنسا التي يكتب عن حركة النشر فيها كاتب هذا المقال . لنذكر مثلا سلسلة « الالف كتاب » و « علم النفس التكاملي » و « الدراسات الفلسفية » و « نوابغ الفكر الغربي » . الخ ان اسم السلسلة في مثل هذه الاحوال ، يصبح شعارا له قيمته ، ويصبح ضمانا للسير المرضي للسوق التجارية .

اما الطائفة الثالثة وهي التي قال عنها صاحب المقال انا نصافحها ، فهي بحق المثل الاعلى لما يجب ان يكون عليه الناشر ، فهي طائفة من الناس يتشؤون دورا للنشر ، ولكن عملهم لايقف عند حد تصريف المال والامور التجارية للكتاب ، بل انهم ليؤلفون ايضا ، او يشاركون في التاليف ، وغالبا ما يكون المبدا الذي ينطلق منه هؤلاء ، هو غيرتهم على ان يقع رجال الفكر ضحية رجال المال ، فيجتمعون ويكونون لجنة من الادباء والمفكرين ، تضع اعتمادات مادية لعملية النشر ، كما تزودها بالاعتمادات المعنوية التي هي ما ينشر طبعا . وكما تكون هذه الطائفة موفقة في اختياراتها نظرا ، لثقافتها ومعرفتها بشؤون

الفكر ، مما يفتقر اليه كثير من الناشرين ، فانها ايضا تكون موفقة فيما تؤلف ، لنفس العوامل والاسباب ، وبذلك يمكنها ان تؤدي دورها على اكمل وجه .

* * *

واذا كنا في المغرب ، البلد الذي لازال مجرد منطلع الى حياة الانتاج الادبي ، والى غزو الاسواق الداخلية والخارجية بالكتاب المغربي ؛ اذا كنا في هذا البلد لانطمع حاليا في ان تظهر دور النشر او رجاله بالتخصص في نشر السلسلات المعينة في ميدان من الميادين ، واذا كنا كذلك نلاحظ بكامل الاسف ان من يقومون بالنشر لا ينظرون الى الكتاب الا كبضاعة لا تختلف عن غيرها من البضائع المادية ، التي تزخر بها الاسواق كالمأكولات والملبوسات ، واذا استرضى عن هذا ولا نرتضيه ، فان لنا ان نطمع ، في ان تجتمع كلمة رجال الفكر ورجال المال جميعا ، في تكوين لجنة للنشر ، تتوفر على الخبرة المالية ، والثقافة والدراية بشؤون الفكر ، قد يبدو هذا مجرد حلم ، ولكنه ليس مستحيل التحقيق ، ثم انه الكفيل بانقاذ حياتنا الادبية ، وتراثنا الثقافي من الاهمال والغبن والضياع .

* * *

تلك بعض مشاكل النشر ، بعض المشاكل فحسب . اما مشكلة الكتاب عامة ، فلا تتمثل في نشره فحسب ، بل ايضا في استيراده ، فكما تستورد الدول ما تحتاجه لبناء اقتصادها وحياتها التجارية ، كذلك يستورد الكتاب . بيد ان عملية الاستيراد قد تكون لاسباب مختلفة ، فبينما هي عند بعض الدول ، قد تكون وليدة حب الاطلاع ، او التلاقح الثقافي ، والتعرف على آداب الغير وثقافته ، وطريقته في التفكير ؛ اذا هي بالعكس من كل ذلك وليدة اسباب تتلخص في الاملاق الثقافي والادبي ، في البلد المستورد منه عند كثير من الدول ، وخاصة منها تلك التي لم تستكمل بعد اسباب النمو الثقافي والازدهار الادبي . وبالطبع لن نقول ان مشكلة الاستيراد الثقافي بالنسبة للبلاد التي تسعى الى التلاقح الحضاري والتعرف ، هي مشكلة ثانوية ، بينما هي مشكلة اساسية واولية عند البلاد التي تعاني املاقا او فقرا في باب الانتاج الادبي والثقافي ، لمجرد ان هاته البلاد تستورد في الحقيقة غذاءها الفكري الاساسي ، عندما تستورد الكتاب من الخارج؛ كلا فليس المجال هنا مما يسمح بوضع الدرجات ، او تصنيف هذه المشاكل الى اولية وثانوية ، لان عملية التغذية الفكرية مهما تبد اساسية ، فان عملية التلاقح الثقافي لا تقل عنها اهمية . ولئن امكن في كثير من الاحيان والظروف ، ان يتحدث الناس عن الاكتفاء الذاتي ، ولئن امكن ان يستحسن هنا الحديث في غالب الاحيان ، ويؤخذ معيارا للوطنية الصادقة والغيرة القومية ، لئن امكن ذلك فان الحديث عن الاكتفاء الذاتي في مجال الثقافة والادب يكون مدعاة الى اثارة الشبهات حول صاحبه ، وعاملا يدعو الى التشكك في حسن نيته ، او على الاقل في نظرته الجدية والسديدة للموضوع .

ان مجال الثقافة والادب ، ومجال الكتاب بصفة عامة ، هو المجال الذي لا يعرف الاكتفاء الذاتي ، وهو الذي يتطلب باستمرار عملية التلاقح الفكري بين الشعوب . اما الانغلاق على الذات وعلى التراث القومي والانتاج الوطني وحده ، فهو تغافل وغفلة عن رسالة الكتاب عامة . ومن هنا تكون اهمية الاستيراد والمستوردين لاتقل عن اهمية النشر والناشرين « فاذا كنا بدون شك ، مضطرين الى اعطاء الاهمية الى الناشرين الذين ينتجون كتبا جديدة فيجب الا تغيب عنا اهمية الذين يستوردون الكتب من الخارج ، ولو كان ذلك بدافع المنافسة التجارية اكثر مما هو بدافع وطني .. » ولكن بالطبع ، يجب الا تطغى المنافسة التجارية ، والا عدنا الى مشكلة النظرة التجارية المحضة الى سوق الكتاب . فالاستيراد يجب ان يخضع لتخطيط عميق حتى يمكن ان يؤدي دوره في التلاقح الفكري . اما اذا خضع الاستيراد الى العوامل التجارية وحدها فسنجد السوق قد امتلأ بالغث والسخيف ، وسنجد كذلك مستوى التذوق العام ينحط ، وبالتالي ستتسع الهوة بين رجال الفكر ، وعموم القراء . فدور المستورد بالضبط هو دور الناشر ، ولا يمكن لاحد منهما ان يتخلى عن جزء من مهمته الاساسية دون ان يختل المستوى الثقافي في البلد . اما اذا امكن للمستورد ان يخطط ويختار ، فبالامكان حينئذ ان نطلع على الفنون والآداب وسائر مرافق الثقافة ، عند الغير ، فنتأثر ونؤثر ، ونظل في تفتح دائم واستقبال مستمر .

ولعله يجمل بنا اخيرا ان نتساءل عن دور المستهلك ، في سوق الكتاب ايضا . لا شك في ان هذا الدور اذا احسن المرء اداءه واتقنه باستطاعته ان يوجه اختيارات الناشر والمستورد ، ويجبره على مراجعة عملياته ، واذا كنا قد اثبتنا سابقا ان دور الناشر ، كفيل بأن ينحدر بالمستوى الثقافي العام ،

ودرجة التذوق الادبي والفني ، او ان يسمو بهمـا ؛ فان هذا ليس أمرا مطلقا ؛ وان وعي المستهلك كفيل ان يحد من قوتـه ، ويكف من فعاليته ، ان وعـي المستهلك هو الملاذ الاخير والحصن المنيـع الـذي بامكانه ان يصمد أمام تيارات الابتـذال والسخف . وبامكان التعاون والتآزر بين همة الناشر والمستورد من جهة ، مع همة المستهلك والمؤلف من جهة اخرى أن يحققا التوازن الثقافي ، والازدهار الفكري للامة . وهذا مجمل ما يمكن ان نخرج به ، من بسط مشكلة الكتاب . فالعلاقة بين هذه الاطـراف المشاركـة في عملية تصدير الكتاب الى السوق واستهلاكه ، يجب الا تكون علاقة عمادها « الشطارة » ، علاقة تغفيـل البعض للآخر ، لان هذه العلاقة من شأنها ، ان تزيـد في اقبار الجهود الادبيـة ، في ادراج النسيان عنـد المؤلفين ، كما تؤدي الى امتلاء سوق الكتاب بما هـو رديء ورخيص في مضمونه . واذا كان الغيورون من رجال الفكر في فرنسا ، يتددون بوضع كهذا ، ويدينون علاقة « الشطار بالمغفلين » في دنيا الكتاب ، ويدعون الى تخطيط محكم ، في النشر والتأليف والاستيراد ؛ اذا كان ذلك في فرنسا وفي غير فرنسا من الـدول المزدهرة ثقافيا ، فما اجدرنا نحن بالانتباه الى هـذا ، والاهتمام بـه ، والعمل على تغييره وتبديلـه .

الرباط ــ م . ربيـع

صبـر المومـن

قـال الشعبـي :

لقد صبر خبـاب بن الارت ، ولـم تلن له بين الكفار قناة ، فجعلوا يلصقون ظهره العاري بالرضف (حجارة محماة) حتـى ذهـب لحمـه .

وقال عمرو بن الحكم :

كان عمار بن ياسر يعذب حتى لا يـدري مـا يقـول .



※ بأمر من جلالة الملك ، قام وفد من العلماء المغاربة برئاسة معالي وزير الاوقاف والشؤون الاسلامية الاستاذ السيد الحاج احمد بركاش بزيارة الى الاتحاد السوفياتي . ويتألف الوفد من الاساتذة :

عبد الرحمن الدكالي ، عبد الله كنون ، عبد الكبير الفاسي ، محمد بنعبد الله ، وذلك تلبية لدعوة رسمية تلقاها وزير الاوقاف من طرف الحكومة السوفياتية ، في نطاق تمتين الروابط بين القطرين .

※ وقع في وزارة الشؤون الخارجية ، اتفاق ثقافي بين المغرب وبلغاريا .

※ زار المغرب بدعوة رسمية الاستاذ الفاضل بن عاشور مفتي الديار التونسية . وقام بالقاء عدة محاضرات في مختلف المدن المغربية ، كان لها صدى بعيد ، وتدخل هذه الزيارة في نطاق الاحتفالات بذكرى مرور 14 قرنا على نزول القرءان الكريم .

※ توجه الى باريس في الشهر الماضي السيد محمد ازنيبر الاستاذ بكلية الادب بجامعة محمد الخامس ، واحد مساعدي اسرة مجلة دعوة الحق وعمدائها لاجتياز امتحان في السربون لنيل شهادة التبريز . وقد نجح الاستاذ محمد ازنيبر بتفوق كبير، فكان على راس قائمة الناجحين .

واسرة مجلة « دعوة الحق » تهنئ صديقها الاستاذ السيد ازنيبر ، وتتمنى له مزيدا من النجاح في غابر الازمان .

※ نظمت وزارة الانباء خلال شهر يونيو بالعاصمة التونسية (اسبوع المغرب في تونس) . وسيقوم بتدشينه وزير الانباء المغربي .

※ قرر المعهد السويدي للعلاقات الثقافية منح جامعة محمد الخامس سلسلة من الكتب باللغة الفرنسية . وتعالج هذه الكتب مختلف اوجه المجتمع الحديث في السويد .

※ جرت في رئاسة جامعة محمد الخامس حفلة سلم خلالها سفير بريطانيا الى رئيس الجامعة الاستاذ محمد الفاسي ، آلة ميكرونيش كهدية من الحكومة البريطانية الى المركز الجامعي للبحث العلمي . وهذا الجهاز سيمكن الجامعة من الاطلاع على جميع سجلات العالم .

※ اقيمت بمدينة مكناس مناظرة ، شارك فيها جميع المهندسين التابعين لوزارة الاشغال العمومية والمواصلات .

※ تعقد اجتماعات لمشروع تاسيس جمعية من صحفي المغرب .

※ زار المغرب السيد كونراد كادلو بوسكي مدير مكتب بون لدار « الجمعية الاوربية للصحافة » . وذلك لتمتين الروابط مع الصحفيين المغاربة .

※ « هجرة الايام » ديوان شعر صدر اخيرا بالفرنسية للشاعرة المغربية السعدية القمري . وقد طبع بالديوان بباريس .

※ قامت الفرقة الفنية الشعبية التابعة للاذاعة الجهوية لمدينة مكناس ، بجولة فنية في القطر الجزائري توثيقا للعلاقات الفنية بين البلدين .

※ بدعوة من وزارة التربية الوطنية ، قامت الدكتورة عائشة عبد الرحمان (بنت الشاطيء) بزيارة

للمغرب ، لالقاء سلسلة من المحاضرات في موضوع « القرءان » ، وذلك في نطاق الاحتفال بذكرى مرور اربعة عشر قرنا على نزوله .

* يوجد في المغرب الكاتب السوري المعروف الاستاذ نزار المؤيد المظم ، وقد قام بكتابة عدة تحقيقات صحفية في مختلف المجالات ، في مجلات وجرائد شرقيـــة .

* صدر عن المركز الجامعي للبحث العلمي العدد الحادي والثاني عشر من مجلة « البحث العلمي»

* احتفل بالمغرب بالاسبوع الثقافي البلغاري .

* زار تونس وفد عن المنظمة العلوية للمكفوفين بالمغرب ، لتمتين اواصر الاخوة بين البلدين ، واطلاع هذا الوفد المغربي على التجربة التونسية ، وما وصلت اليه تونس في هذا الميدان .

* اقيم في طنطان موسم ثقافي ، القيت خلاله عدة محاضرات ، ونظمت فيه ندوات ثقافية .

* عقدت بمدينة طنجة المناظرة الخامسة التي نظمها المركز الافريقي للتكوين والبحث الاداري . وافتتح هذه المناظرة وزير التربية الوطنية ، والفنون الجميلـــة .

* زار المغرب اخيرا وفد عن لجنة انقاذ القدس الذي تنحصر مهمته في لفت الانظار الى الاخطار المحدقة ببيت المقدس ، وبفلسطين المغتصبة ، مع تقديم وثائق ومستندات وكتب عن فلسطين العربية .

* نظمت « جمعية الشباب والمجتمع » ندوة حول مكافحة الامية واثرها الاقتصادي والاجتماعي ، وذلك بوزارة الشبيبة والرياضة بالرباط .

* صدر للاستاذ ابراهيم حركات ، كتاب مدرسي بعنوان : « طريقة التربية الاسلامية » .

* تستعد جمعية اصدقاء « المعتمد » بشفشاون لتنظيم مهرجان الشعر الرابع الذي سيكون موعد الاحتفال به في منتصف شهر سبتمبر القادم في موضوع « الشعر العربي ومعركة الحرية » .

* عقد بمدينة مراكش المؤتمر السابع لمنظمة المحامين المغاربة .

* قدم وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة الى مجلس الحكومة مشروع تأسيس مجلس وطني للتربية . وسيصدر به قرار بعد موافقة صاحب الجلالة عليه .

* اقيم في معرض « باب الرواح » بالرباط معرض للفنان المغربي اليعقوبي . وقد سجل هذا المعرض نجاحا كبيرا .

* « متنوعات الاستاذ الفاسي » اسم كتاب سيصدر لجماعة من الكتاب المغاربة ، تنويها بمجهودات الاستاذ محمد الفاسي ، رئيس جامعة محمد الخامس، بمناسبة الذكرى العاشرة لتأسيس هذه الجامعة .

* اقيم بمدينة الدار البيضاء ، المناظرة العلمية الرابعة لاطباء وجراحي المغرب .

* توفي بمدينة طنجة العلامة الجليل سيدي محمد اقبلال ، احد علماء المغرب الافذاذ . وقد كان المرحوم وزيرا للعدل في الحكومة الخليفية بتطوان . وقد خلف الفقيد عدة مخطوطات مهمة في التشريع والاجتماع . وتتلمذ على يديه الجم العلماء في الشمال. رحمه الله رحمة واسعة ، واسكنه فسيح جناته .

* عين سفيرا للمملكة الليبية بالمغرب الاستاذ خليفة محمد التلسي ، احد الادباء والمؤلفين اللامعين فـي ليبيـــا .

* القى الاستاذ جيلبو محاضرة قيمة بالدار البيضاء في موضوع « المغرب في الادب الفرنسي » .

* احتفل المغرب في مهرجان ثقافي كبير بمدينة فاس بمهرجان « سلطان الطلبة » تحت الرئاسة الفعلية لصاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني ، وبحضور السلك الديبلوماسي ، وعدة شخصيات تنتمي الى عالم الفكر والادب ، وجمهرة الطلبة .

* يوجد تحت الطبع الديوان الاول الذي سيصدر للشاعر المغربي ، الخمار .

* صدر عن الدار التونسية للنشر « ديوان المدني » للشاعر التونسي الهادي المدني .

* كما صدر عن نفس الدار ، كتاب « آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية » للدكتور محمد فاضل الجمالي ، الاستاذ بكلية الاداب ، بالجامعة التونسية .

* اعارت جامعة القاهرة 12 استاذا جامعيا للتدريس في جامعة ليبيا ابتداء من السنة الدراسية المقبلة .

* يصدر قريبا في تونس كتاب « المتنبي » للشيخ الطاهر ابن عاشور ، كما يصدر فيها كتاب « القزاز : حياته وتراثه » للاستاذ المنجي الكعبي .

* « ابن فرحان » هو اسم لناد ادبي سؤسس بمدينة « قابس » .

* قام الاستاذ هلال ناجي بتحقيق كتاب « العمدة » لعبد الله بن علي الهيتي ، وقدمه للطبع بتونس .

* نعت القاهرة الشيخ الدسوقي الملاح ، المراقب العام لتفتيش العلوم الدينية والعربية بالازهر .

* ستصدر جمعية الادباء بالقاهرة مجلة بعنوان: « الكلمة الجديدة » .

* قرر معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة ، اصدار مجلة للدراسات والابحاث العربية .

* في القاهرة ، صدر العدد الاول من مجلة « الادب الافريقي الاسيوي » .

* صدرت في بغداد مجلة فنية ادبية باسم : « الفنون المعاصرة » .

* قدم للطبع الباحث العراقي عبد الله الحيدري كتاب « ديوان ابن النبيه » ، بعد ما قام بتحقيقه على نسختين مخطوطتين .

* صدر بالقاهرة ديوان الشاعر العراقي ابراهيم ادهم الزهاوي ، وقد قام بتحقيقه الاستاذ عبد الله الحيدري .

* « ديوان النعمان بن بشير الانصاري » قدمه للطبع الدكتور يحيى الحيدري ، بعد ما قام بتحقيقه على مخطوطة أيا صوفيا .

* انتهى الاستاذ ساطع الحصري من تحرير الجزء الثاني من مذكراته التي تتناول الفترة المنتهية بنزع الجنسية العراقية عنه ، وابعادة سنة 1941 .

* اعد الشاعر العوضي الوكيل اربعة كتب عن المرحوم عباس محمود العقاد .

* « شهداء العروبة والاسلام » اسم كتاب صدر للاستاذ علي الجمبلاطي .

* الدكتور محمد خلف الله ، صدر له كتاب : « القرءان — ومشكلات حياتنا المعاصرة » .

* تقدم السيد عبد المنعم شحاتة باطروحة لنيل الدكتوراه في موضوع : « الروائي نجيب محفوظ » .

* « دراسات في المذاهب الابية والاجتماعية » عنوان كتاب للاستاذ عباس محمود العقاد .

* قامت الادارة الثقافية بالجامعة العربية ، بترجمة « تاريخ الادب العربي» للمستشرق بروكلمان.

* « اصالة الحضارة العربية » ، كتاب صدر في بغداد ، للاستاذ ناجي معروف .

* صدرت في لبنان مجلة بعنوان : « صدى الارز » .

* اقيمت في لبنان عدة احتفالات تابينية للفقيد اللبناني الدكتور نبيه امين فارس .

* صدر عن دار المشرق بلبنان كتاب : « من مقدمة ابن خلدون » للدكتور البير نصري نادر الذي يقوم بالتدريس في الجامعة اللبنانية .

* صدرت للشاعر اللبناني فؤاد الخشن مجموعة شعرية بعنوان : « الهوى ، وحديث العينين » .

* صدرت عن منشورات المطبعة الكاثوليكية ببيروت كتاب : « العربية الفصحى : نحو بناء لغوي جديد » للاب هنري فليش اليسوعي ، قام بتعريبه وتحقيقه الدكتور عبد الصبور شاهين .

* « ارا الجميل » اسم ملحمة شعرية تاريخية صدرت ببيروت للويس رزق ، وتقديم سعيد عقل .

* صدر عن منشورات عويدات ببيروت كتاب : « القرن الثامن عشر » وهو المجلد الخامس من موسوعة « تاريخ الحضارة العام » ويقع في نحو 700 صفحة ، قام بترجمته يوسف اسعد داغر ، وفريد داغر . ومن المنتظر ان يصدر الجزء السادس والسابع من هذا الكتاب .

* صدر في منشورات وزارة الثقافة بدمشق كتاب : « تاريخ معرة النعمان » للاستاذ محمد سليم الجندي في ثلاثة اجزاء ، حققه وعلق عليه ووضع فهارسه الاستاذ عمر رضا كحالة ، كما صدر في نفس المنشورات كتاب « اغنية المهد » وهي مسرحية لغريغوريو مارتينس سييرا ، قام بترجمتها الاستاذ محمد جلال الخطيب .

* عقد للمرة الاولى بمدينة براونشفايج بالمانيا الاتحادية مؤتمر المؤرخين الالمان لاجل تصحيح كتب التاريخ المدرسية ، ورفع جميع التعابير التي تتنافى مع الحقائق .

* سيقام في دلهي الجديدة احتفال كبير للشاعر الاردي الكبير غالب ، بمناسبة مرور مائة عام على وفاته .

* توفي في الشهر الماضي البروفسور لانداو الذي كان يعتبر من كبار العلماء النوويين في العالم الى ما قبل ست سنوات .

* ستقوم امانة سر اتحاد الادباء العرب بنشر وقائع المؤتمر السادس للادباء العرب من بحوث ، ومناقشات ، وقرارات ، وتوصيات في كتاب خاص يصدر قريبا .

* صدرت بباريس موسوعة باللغة الفرنسية « الشعر العربي المعاصر » بقلم الشاعر المهجري جورج صيدح .

* صدر في العراق كتاب « بريطانيا والعراق حتى سنة 1914 » ويتضمن دراسة في التاريخ الدولي والتوسع الاستعماري وهو من تأليف الدكتور زكي صالح .

* « مجامر في الكهوف » مجموعة شعرية جديدة، صدرت للشاعرة ثريا ملحس في بيروت .

* قام الاستاذ يوسف يعقوب بترجمة كتاب « فتح العرب للصين ومعركة طلس ، او الطلخ لغزو بلاد الصين » وهو من تأليف المستشرق الانجليزي الدكتور دي . ايم دنلوب .

* صدر حديثا عن مجلة « العرفان » اللبنانية كتاب جديد للدكتور محمد يحيى الهاشمي بعنوان : « لغز ابي العلاء » .

* « الاسلام والقضية الفلسطينية » عنوان كتاب صدر في هذه الايام للاستاذ عبد الكاظم اليديري .

* الشاعر السوري عدنان مردم بك ، صدرت له في لبنان مسرحية بعنوان : « العباسة » عن منشورات عويدات ببيروت .

* قام الاستاذ خليل ابراهيم العطية بتحقيق : « ديوان توبة بن الحمير الخفاجي » صاحب ليلى الاخيلية ، وصدر في هذا الاسبوع .

* « جغرافية الاندلس واوربا » من كتاب « المسالك والممالك » تأليف ابي عبيد البكري المتوفى في قرطبة عام 1094 م . صدر بتحقيق الدكتور عبد الرحمن علي الحجي .

* حلت ببلادنا بعثة ثقافية سوفياتية تتألف من العلماء ورجال الفكر ، وذلك للتعرف على مختلف النشاطات الفكرية في المغرب .

* احتفل بمدينة مراكش في قصر « البديع » بالمهرجان الوطني التاسع للفلكلور ، بحضور عدة شخصيات وسياح . وقد ساهمت في هذا المهرجان مجموعة ضخمة من الفرق الفلكلورية التي تمثل مختلف نواحي المغرب .

* يصدر عن وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية الجزء الثالث من كتاب « المدارك » للقاضي عياض ، الذي قام بتحقيقه الاستاذ السيد عبد القادر الصحراوي

الذي حقق هو كذلك الجزء الثاني الذي صدر منذ سنة . اما الجزء الاول فقد قام بتحقيقه الاستاذ السيد محمد بن تاويت الطنجي .

* يصدر للاستاذ اشتوان بوكا ، المستشرق المجري الذي يعمل استاذا بثانوية عمر الخيام بالرباط، معجم مجري عربي ، في 1200 صفحة . ويقوم بطبعه المجمع العلمي المجري .

* تنظم وزارة الشبيبة والرياضة خلال عطلة الصيف ثلاثة ملتقيات دولية للشباب ، يحضرها شبان من المانيا ، وفرنسا ، وليبيا ، وتونس ، والجزائر الى جانب الشبان المغاربة ، الغاية منها الاطلاع على مختلف اوجه النشاطات الثقافية بالمغرب، وتمتين الروابط بين شباب المغرب ، وشباب هذه البلاد .

* اقيمت بمدرج كلية الاداب بالرباط ندوة تحت اشراف وزارة التربية الوطنية في موضوع « الانسان في القرءان الكريم » ، وتدخل هذه المناظرة في اطار تخليد ذكرى مرور اربعة عشر قرنا على نزول القرءان الكريم .

* توجد تحت الطبع مجموعة قصصية للكاتبة المغربية خناثة بنونة .

* قام وفد اتحاد النساء العربي الفلسطيني بزيارة للمغرب بقصد جمع التبرعات لفائدة المنكوبين الفلسطينيين .

* صدر عن المكتب الوطني للسياحة عدد ممتاز من مجلتها : « المغرب السياحي » وذلك بمناسبة المهرجان الوطني التاسع للفلكلور الذي اقيم مؤخرا في مدينة مراكش .

* باغتت المنية الشاعر الدكتور سيف الدين الكيلاني ، سفير المملكة الاردنية بالمغرب سابقا . وقد احدثت وفاته موجة من الاسى في الاوساط الثقافية والديبلوماسية بالمغرب . تعزيتنا الحارة لذويه ، ولمقدري ادبه .

* حصل الاستاذ المكي السنتيسي على دكتوراه الدولة في الحقوق عن رسالته « تدابير الوقاية في التشريع الجنائي المغربي » وذلك يوم 14 يونيه .

* العهد المخضرم في سوريا ولبنان — 1918 — 1922 ، للاستاذ الكبير محمد جميل بيهم ، وهو كتاب للحلقة الاولى من مذكراته خلال جيل تحدث فيه عن العهد المخضرم في سوريا ولبنان ، وقدم لحديثه عن هذا العهد مقتطفات قيمة تناولت الاحداث التي سبقته ، وعلى راسها الثورة العربية التي اعلنها الشريف حسين بمكة ، وقد اسند المؤلف في ذلك الى مذكرات الامير سعيد الجزائري الذي اعلن الحكم العربي بسوريا ولبنان ، تلك المذكرات التي خص المؤلف بها .

* اصدر المجلس البلدي لمدينة القصر الكبير النشرة الثانية التي تتضمن تاريخ هذه المدينة العريقة المجاهدة وعن رجالات وامجادها العتيقة في القرن العاشر الهجري .

وقد سبق لهذا المجلس ان نشر في نشرة اولى لمحة تاريخية عن مدينة القصر الكبير سنة 1964 مع تقرير شامل اتخذه برنامجا له .

وهذا التقرير بقلم رئيس المجلس البلدي السيد محمد بوخلفة .